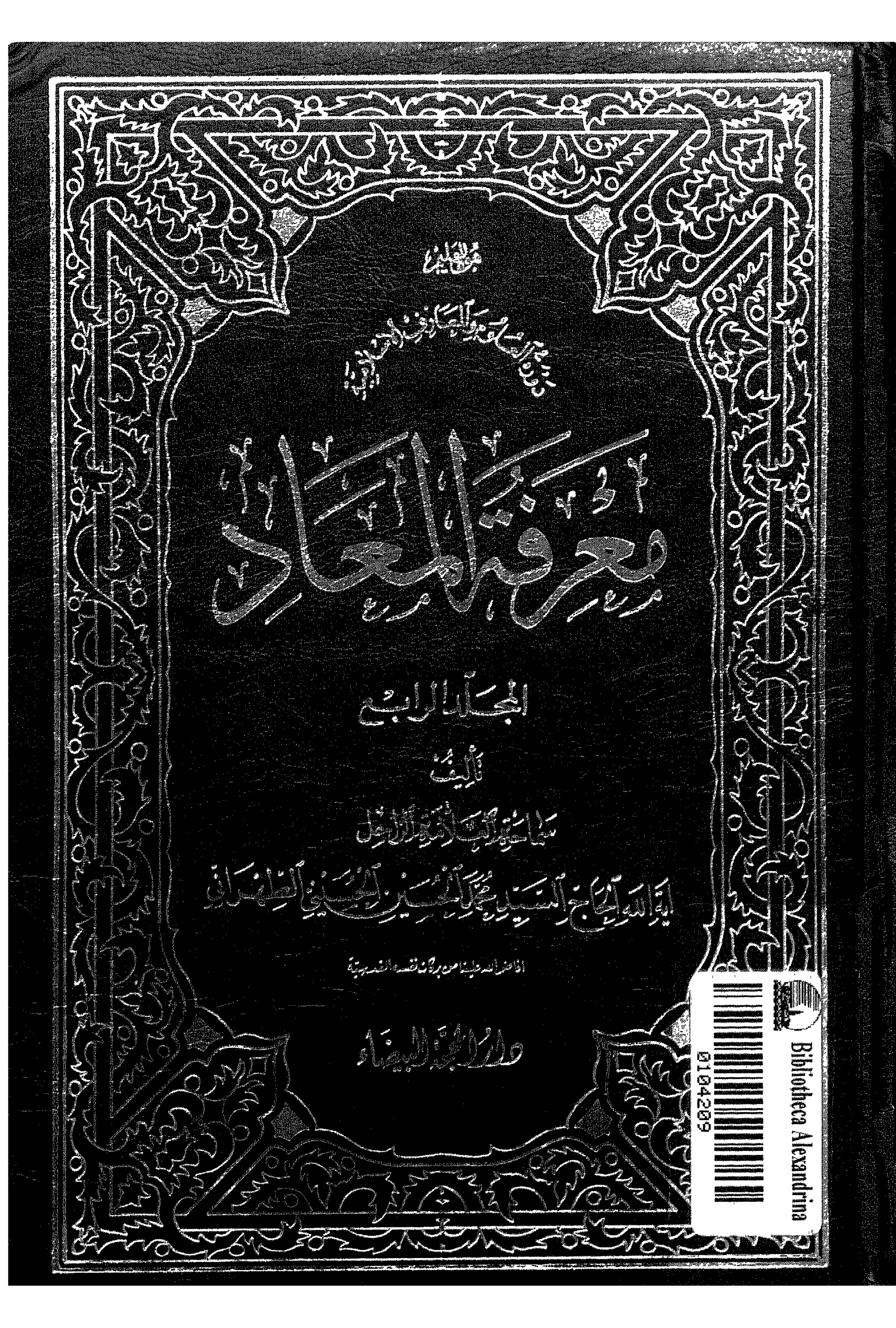


معرفة المعاد
المجلد الرابع
تأليف
آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني
أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية
دار المحجة البيضاء
Bibliotheca Alexandrina
0104209







بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع ═ بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٤٧٩

هو العليم

دورة العلوم والمعارف الإسلامية

٣

معرفة المعاد

الجزء الرابع

تأليف

سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تعريب

عبد الرحيم مبارك

دار المحجة البيضاء

الحسينيّ الطهرانيّ ، السيّد محمّد الحسين ، ١٣٤٥ ـ ١٤١٦ هـ.
معرفة المعاد / لمؤلّفه السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ . ـ بيروت.
دار المحجّة البيضاء ، ١٤١٥ ـ هـ.
١٠ ج . ٢١٣ ص . ـ (دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة ؛ ٣)
الطبعة الأُولى : ١٤١٧ ـ هـ.

العنوان .

ص . ب ٢٢٢ ٢٩٧/٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسّسة ترجمة ونشر (دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة)

من تأليفات

العلّامة آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهراني

دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة (٣)

معرفة المعاد

الجزء الرابع

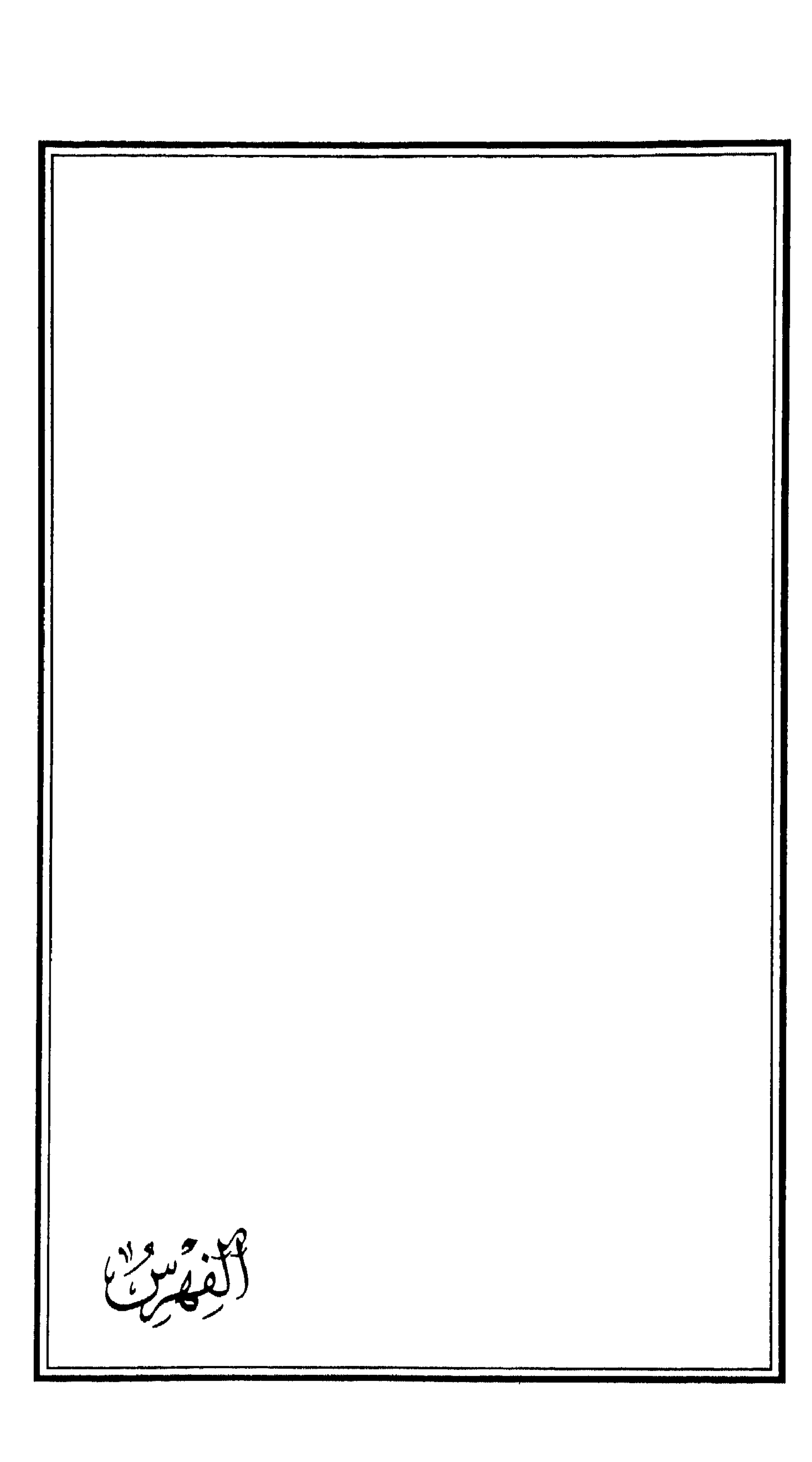
المؤلف : سماحة العلّامة الرّاحل آية الله الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس الله نفسه الزكيّة

تعريب : عبد الرحيم مبارك

الطبعة الأُولى : ١٤١٧ هجريّة

عدد النسخ : ٢٠٠٠

الناشر : دار المحجّة البيضاء


الفهرس



فهرس مطالب و موضوعات

معـرفـة المعاد

الجزء الرابع

المطالب	الصفحات

المجلس العشرون :

علامات ظهور القيامة

الصفحة ٣ إلى الصفحة ٢٥

يشمل المطالب التالية :

علامات القيامة وحضور الإنسان فيها ٥
حديث سلمان في علامات القيامة ٧
مخالفة الأشعث بن قيس لأمير المؤمنين عليه السلام ١٣
اعتراض البعض على أمير المؤمنين في قبول التحكيم وخطبته في ... ١٥
خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في حثّ الناس على الجهاد ١٧
شكوى أمير المؤمنين من الناس ١٩
شكوى أمير المؤمنين من أصحابه ٢١
شكواه عليه السلام من أصحابه ٢٣

المطالب	الصفحات

الدرس الحادي والعشرون :

علامات القيامة

الصفحة ٢٩ إلى الصفحة ٧١

يشمل المطالب التالية :

حديث الإمام الصادق عليه السلام مع المنصور في مسيرهما	٣١
ظهور عشرة أحداث من علامات القيامة	٣٣
استدلال علامات القيامة من آيات القرآن الكريم	٣٥
قصّة ذي القرنين وسدّ يأجوج ومأجوج	٣٧
بيان العلّامة الطباطبائيّ في شأن ذي القرنين	٣٩
نظريّة العلّامة الشهرستانيّ في شأن ذي القرنين	٤٣
نظريّة السير أحمد خان الهنديّ وأبي الكلام آزاد في شأن ذي القرنين	٤٥
رؤيا النبيّ دانيال في شأن ذي القرنين	٤٧
بحث حول طائفة يأجوج ومأجوج	٥١
ذو القرنين وسدّ يأجوج ومأجوج	٥٣
معنى تحطّم سدّ ذي القرنين	٥٧
أمير المؤمنين عليه السلام ذو قرني الأُمّة	٥٩
من علامات القيامة ظهور الدخان في السماء وخروج دابّة الأرض	٦٣
أمير المؤمنين عليه السلام هو المراد بدابّة الأرض	٦٥
علوّ مقام أمير المؤمنين عليه السلام	٦٩

الدرس الثاني والعشرون :

نفخ الصور وإحياء الموتى

الصفحة ٧٥ إلى الصفحة ١٠٢

المطالب	الصفحات
يشمل المطالب التالية :	
وقوع الصيحة السماويّة وخمود الناس	٧٧
معنى الصور والنفخ فيه	٧٩
موجودات عالم البرزخ والقيامة لا تشبه موجودات عالم المادّة	٨٣
في أنّ الأنبياء قد خاطبوا الناس على قدر عقولهم	٨٥
التعبير عن النفخ في الصور بنداء المنادي	٨٧
العلّة في عدم التعبير عن النفخ في الصور بالموت	٨٩
قبض روح جميع الملائكة وبقاء ذات الله عزّ وجلّ وحدها	٩١
موعظة الإمام أمير المؤمنين بعد إصابته	٩٣
خطبة الإمام الحسن عليه السلام بعد شهادة أبيه	٩٥
العلّة التي لا يمكن لأحد بسببها أن يقتل قاتله	٩٧
رغبة أمير المؤمنين عليه السلام في العفو عن قاتله	٩٩
العلّة في عدم عفو الإمام المجتبى عن قاتل أمير المؤمنين	١٠١

الدرس الثالث والعشرون :

المراد بالمبعوثين بنفخ الصور، والأفراد المستثنون

الصفحة ١٠٥ إلى الصفحة ١٢٨

المطالب	الصفحات
يشمل المطالب التالية :	
نفخ الصور الأوّل لأهل البرزخ	١٠٧
الصيحة لأهل الدنيا ؛ ونفخ الصور لأهل البرزخ	١٠٩
المراد بـ «إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ» في آية الفزع	١١١
المراد بالمستثنين في آية الفزع هم أصحاب الولاية	١١٣
المراد بـ «إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ» في آية الصعق	١١٥

المطالب	الصفحات
لحوق التابعين بالمستثنين في دخول الجنّة	١١٧
سرور معاوية بشهادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام	١٢١
بكاء الجمادات دماً عند قتل أمير المؤمنين عليه السلام	١٢٣
بكاء الحيوانات عند شهادة سيّد الشهداء عليه السلام	١٢٧

الدرس الرابع والعشرون :

المخلَصون هم الذين لا يموتون بنفخ الصور

الصفحة ١٣١ إلى الصفحة ١٥٢

يشمل المطالب التالية :

المطالب	الصفحات
المراد بالأفراد المستثنين من الموت عند النفخ في الصور	١٣٣
عباد الله المخلَصون هم وجه الله	١٣٥
المواهب الإلهيّة للمخلَصين	١٣٧
الحديث القدسيّ : عبدي أطعني أجعلك مثلي	١٤١
أحوال المخلَصين ومقامهم	١٤٣
صرف العذاب عن المذنبين ببركة أولياء الله	١٤٥
علم أولياء الله وقدرتهم هما علم الله وقدرته	١٤٧
وصية الإمام أمير المؤمنين إلى الإمام الحسن عليهما السلام	١٤٩

الدرس الخامس والعشرون :

الأنبياء والأئمّة متحقّقون بأسماء الله الحسنى

الصفحة ١٥٥ إلى الصفحة ١٨٠

يشمل المطالب التالية :

المطالب	الصفحات
المقرّبون والمخلَصون هم وجه الله وأسماؤه الحسنى	١٥٧

فهرس المطالب و الموضوعات

المطالب	الصفحات
لولا الإمام لساخت الأرض بأهلها	١٥٩
منزلة إبراهيم الخليل عليه السلام وأسماء الله تعالى	١٦١
موت النبيّ إرميا وبعثه	١٦٣
إحياء إبراهيم عليه السلام الطيورَ المذبوحة	١٦٧
قصّة إحياء حمامة ميّتة على يد وليّ للّه	١٧١
علو مقامات أمير المؤمنين عليه السلام	١٧٥
لعن الملائكة لقتلة أمير المؤمنين وقتلة سيّد الشهداء عليهما السلام	١٧٩

الدرس السادس والعشرون :

في معنى وجه الله ووجه المخلوقات

الصفحة ١٨٣ إلى الصفحة ٢٠٨

يشمل المطالب التالية :

المطالب	الصفحات
معنى وجه الله بين الموجودات	١٨٥
في حقيقة وجه الله	١٨٧
الأئمّة والمخلَصون هم وجه الله وموجودون مع جميع الموجودات	١٨٩
في معيّة وجه الله لجميع عوالم الخلق	١٩١
الآيات الدالّة على انقراض الدنيا ورجوع الإنسان إلى الله	١٩٣
في كيفيّة تخطّي أولياء الله للمراحل والعقبات بعد الموت	١٩٧
الإحاطة الكلّيّة للأئمّة عليهم السلام بعوالم البرزخ والقيامة	٢٠١
ولاء غير المتّقين لبعضهم سيتبدّل يوم القيامة إلى عداء وخصومة	٢٠٣
طلب ابن ملجم من أمير المؤمنين أن يحمله على فرس	٢٠٧

فهرس تأليفات المؤلّف ٢١١



المَجْلِسُ العِشْرُون

عَلامَاتُ ظُهُورِ القِيامَة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مطالب أُلقيت في اليوم العشرين من شهر رمضان المبارك)

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ .[1]

للّه الحمد والمنّة فقد أنهينا بحث المعاد الذي شرعنا به في مقدّمات حياة الإنسان في الدنيا وخصائص حال الاحتضار وسكرات الموت وعالم القبر والبرزخ ، وعلينا الآن أن نبدأ بالبحث في مقدّمات عالم القيامة الكبرى وحضور الإنسان في ساحة الله تعالى ، وفي بيان العوالم التي يطويها الإنسان في هذه الدورة من الحياة الأُخرويّة .

والسياق في هذه الآية الكريمة سياق المؤاخذة والتهكّم ، لكأنّ الكفّار في موقف يتوجّب عليهم فيه إمّا متابعة الحقّ لتكون عاقبتهم مقرونة بالخير والسعادة ، أو انتظار حلول ساعة القيامة ليتذكّروا ويؤمنوا ويتّبعوا

١ـ الآية ١٨ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

الحقّ بمشاهدة تحقّق الوقوع والإشراف الذي يكون لهم عليها والخصائص التي يرونها منها . بَيدَ أنّهم لم يتّبعوا الحقّ اليومَ ، فلم يبقَ أمامهم إذاً إلّا احتمال واحد ، وهو مجيء القيامة نفسها .

وبديهيّ أنّ علامات القيامة الموجودة اليوم ، من انقسام البشر إلى أفراد صالحين وطالحين ، وهو أمر يستتبع ويستلزم وجود القيامة والحساب ، ومن ظهور الموت وهو العبور للوصول إليها ، ومن ظهور نبيّ آخر الزمان وانشقاق القمر ونزول القرآن آخر الكتب السماويّة لم تكن ذات فائدةٍ ما لهؤلاء ، ناهيك عن أنّهم لم يذعنوا للحقّ من خلال المواعظ البليغة والبيّنات والحجج الواضحة البيّنة والعِبَر المتوالية ، ولم يتّجهوا إلى الإيمان بالله والعمل الصالح ، فلم يبقَ أيّ طريق آخر لاتّعاظهم وهدايتهم إلّا وقوع نفس القيامة . لكنّ الإيمان لن ينفعهم شيئاً آنذاك ، لأنّ الأمر سيكون قد حُسِم ، وعالم العمل قد أُغلق ، وعالم الجزاء والحساب قد حان حينه وآن أوانه . **يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى** .[1]

والآيات القرآنيّة الكريمة العائدة إلى القيامة متّفقة بأجمعها على أنّ هذه الأرض ستزول يوم القيامة ، وأنّ النجوم ستنهار ، وأنّ الشمس والقمر سيُكسفان ويُطمسان ، وأنّ هذا العالم سيندكّ ويتلاشى بأجمعه . ثمّ إنّ الله تعالى ، بعد فناء هذا العالم ، سيُحضِر الأرواح في القيامة للحساب والجزاء ، سواء الأرواح التي رحلت عن الدنيا فهي في البرزخ تنتظر حلول القيامة ، أو الأرواح التي ستترك الدنيا بواسطة صَعقة الموت ، فتحضر فجأة في القيامة .

وهناك نفختان في الصور ، إحداهما ، نفخة الإماتة التي يموت الجميع

١ـ الآيتان ٢٣ و ٢٤ ، من السورة ٨٩ : الفجر .

على إثرها ، والأُخرى نفخة الإحياء التي سيُبعث بها الجميع بعد موتهم ويُنشرون **فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** .[1]

وقد وردت مطالب كثيرة في أخبار أهل البيت عليهم السلام في علامات القيامة وبالإضافة لهذه العلامات فهناك أساساً مرحلتان تسبقان القيامة ينبغي طيّهما قبلها كمقدّمات لها ، إحداهما ظهور قائم آل محمّد عليهم السلام الإمام المهديّ محمّد بن الحسن العسكريّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ، والأُخرى رجعة آل محمّد عليهم السلام . وليس من شكّ أو ريب في تحقّق هذين الموضوعين ، فموضوع ظهور الإمام المهديّ أرواحنا فداه متّفق عليه لدى جميع طوائف المسلمين ومذاهبهم ،كما أنّ **رجعة آل محمّد** عليهم السلام من مسلّمات الشيعة ، وكان القول بـ«**الإمامة**» و «**الرجعة**» الوجه المميّز للشيعة عن غيرهم منذ قديم الأيّام ، وهناك في هذا الخصوص مطالب كثيرة في التواريخ والسير والأخبار .

وبصورة عامّة فإنّ هناك مراحل ثلاثاً متعاقبة ومتوالية ينبغي طيّها للوصول إلى تكامل عالم البشريّة .

الأُولى : ظهور الإمام المهديّ أرواحنا فداه ، حيث تطوي البشريّة طريقها إلى الكمال بسرعة .

الثانية : الرجعة ـ بوجود ظهورات وأنوار الأئمّة عليهم السلام ورجوعهم إلى الدنيا ـ حيث ستصل إلى الفعليّة والتحقّق جميع مراحل القابليّات البشريّة التي لم تصل زمن أُولئك الأجلّاء إلى مرحلة الفعليّة .

الثالثة : القيامة التي توجب تكامل المرحلتين السابقتين وفقدان الإنّيّات وطلوع صفة جلال الحضرة الكبريائيّة واندكاك الهويّات

١ـ الآية ٦٨ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

والشخصيّات بظهور الحقيقة في العوالم .

وهذه المراحل الثلاث مترتّبة على بعضها ، وما لم تطوَ المرحلة الأُولى فإنّ المرحلة الثانية لن تأتي ، وما لم تتحقّق الثانية فإنّ الثالثة لن تتحقّق بدورها .

وقد وردت في علامات الظهور وعلامات الرجعة والقيامة أخبارٌ كثيرة دوّنها الأعلام في الكتب ، وبالرغم من عدم وجود الاطمئنان من صحّتها جميعاً ، ومع وجود أخبار ضعيفة كثيرة بينها ، إلّا أنّه يُستفاد من مجموعها ـ إجمالاً ـ أنّ كلّاً من هذه المراحل الثلاث ، من الظهور والرجعة والقيامة ، له مشخّصات وعلامات وآثار مختصّة به ، إضافةً إلى أنّ لبعضها سنداً صحيحاً ، وأنّ ذلك البعض يمكن قبوله وفق القواعد الأُصوليّة ، سواء الروايات الصادرة عن الرسول الأكرم أو عن أئمّة أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين .

فعليّ بن إبراهيم القمّيّ ـ مثلاً ـ الذي كان يعيش قبل أكثر من ألف سنة ، والذي له تفسير في غاية الإتقان والاعتبار تدارسه العلماء الأعلام ورجعوا إليه طوال هذه المدّة المديدة ، حيث يُعدّ من مصادر كتب الشيعة ، ينقل عن سلمان الفارسيّ رواية عن رسول الله صلّى الله عليه وآله بينما كان صلوات الله عليه وآله واقفاً في المسجد الحرام خلال «حجّة الوداع» آخذاً بحلقة باب الكعبة .

وهذه الرواية على نحوٍ لا يطرأ معه أيّ احتمال للدسّ والخدش في مضمونها ، لأنّها تذكر مطالب تتعلّق بآخر الزمان لم يكن لأيّ منها أثر في ذلك الزمان ، حتّى أنّ الأرضيّة لم تكن موجودة ومهيّئة لحدوث مثل هذه الوقائع ، ليمكن احتمال حصولها فيما بعد ، وليمكن ـ من ثَمّ ـ جعل مثل هذا

الحديث .

فعليه يمكن حصول الاعتماد والاطمئنان بهذه الرواية وأمثالها في كتب الحديث والتفسير المتقنة ، وعدّها من الروايات الدالّة على الظهور وعلامات القيامة .

هذا وقد أورد هذه الرواية ذيل الآية التي تصدّرت البحث ، وعدّها من شواهد **أشراط الساعة** ، والأشراط جمع الشرط بمعنى العلامة ، والرواية كالتالي :

يقول عليّ بن إبراهيم : حدّثني أبي (إبراهيم بن هاشم) عن سليمان ابن مسلم الخشّاب ، عن عبد الله بن جريح المكّيّ ، عن عطاء بن أبي رياح عن عبد الله بن عبّاس ، قال :

حَججنا مَعَ رسول الله صلّى الله عليه وآله حجّةَ الوداع ، فأخَذ بحلقةِ بابِ الكعبةِ ثمّ أقبلَ علينا بوجههِ ، فقالَ :

أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟ وَكَانَ أَدْنَى النَّاسِ يَوْمَئِذٍ مِنهُ سَلْمَانُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ .

فَقَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ !

فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ الْقِيَامَةِ ، إِضَاعَةَ الصَّلَاةِ وَاتِّبَاعَ الشَّهَوَاتِ ، وَالْمَيْلَ مَعَ الْأَهْوَاءِ ، وتَعْظِيمَ أَصْحَابِ الْمَالِ ، وَبَيْعَ الدِّينِ بِالدُّنْيَا ، فَعِنْدَهَا يَذُوبُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فِي جَوْفِهِ كَمَا يُذَابُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ ، مِمَّا يَرَى مِنَ الْمُنْكَرِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ .

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! إِنَّ عِنْدَهَا يَلِيهِمْ أُمَرَاءُ جَوَرَةٌ ، وَوُزَرَاءُ فَسَقَةٌ ، وَعُرَفَاءُ

ظَلَمَةٌ ، وَأُمَنَاءُ خَوَنَةٌ .

فَقَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! إِنَّ عِنْدَهَا يَكُونُ الْمُنْكَرُ مَعْرُوفاً ، وَالْمَعْرُوفُ مُنْكَراً ، وَيُؤْتَمَنُ الْخَائِنُ ، وَيُخَوَّنُ الأَمِينُ ، وَيُصَدَّقُ الْكَاذِبُ ، وَيُكَذَّبُ الصَّادِقُ .

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! فَعِنْدَهَا إِمَارَةُ النِّسَاءِ ، وَمُشَاوَرَةُ الإِمَاءِ ،[1] وَقُعُودُ الصِّبْيَانِ[2] عَلَى الْمَنَابِرِ ، وَيَكُونُ الْكِذْبُ طَرَفاً ، وَالزَّكَاةُ مَغْرَماً ، وَالْفَيْءُ مَغْنَماً ، وَيَجْفُو الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ، وَيَبِرُّ صَدِيقَهُ ، وَيَطْلُعُ الْكَوْكَبُ الْمُذَنَّبُ .

فَقَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! وَعِنْدَهَا تُشَارِكُ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي التِّجَارَةِ ، وَيَكُونُ الْمَطَرُ قَيْظاً ، وَيَغِيظُ الْكِرَامُ غَيْظاً ، وَيُحْتَقَرُ الرَّجُلُ الْمُعْسِرُ ؛ فَعِنْدَهَا تُقَارِبُ الأَسْوَاقُ ،[3] إِذَا قَالَ هَذَا : لَمْ أَبِعْ شَيئاً ، وَقَالَ هَذَا : لَمْ أَرْبَحْ شَيئاً ، فَلَا تَرَى إِلَّا ذَامّاً لِلَّهِ .

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟

١ـ أي تُشاور الإماء اللواتي في البيوت في الأُمور السياسيّة .

٢ـ كناية عن الأفراد الذين لا معرفة لهم ولا بصيرة ، الذين يعتلون المنابر ويخطبون في الناس ، وعن إمساك هؤلاء الأفراد ذوي الخبرة والمهارة القليلتين بزمام أُمور الإعلام العامّ .

٣ـ يقول في «المنجد» : المقارب من المتاع : الرخيص . لذا يمكن أن يكون معناه اقتراب الأسواق من بعضها أو هبوط الأسعار .

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! فَعِنْدَهَا يَلِيهِمْ أَقْوَامٌ إِنْ تَكَلَّمُوا قَتَلُوهُمْ ، وَإِنْ سَكَتُوا اسْتَبَاحُوا حَقَّهَمْ ، لِيَسْتَأْثِرُوا بِفَيْئِهِمْ ، وَلِيَطَؤُنَّ حُرْمَتَهُمْ ، وَلِيَسْفِكُنَّ دِمَاءَهُمْ ، وَلِيَمْلَؤُنَّ قُلُوبَهُمْ دَغَلاً وَرُعْباً ، فَلَا تَرَاهُمْ إِلَّا وَجِلِينَ خَائِفِينَ مَرْعُوبِينَ مَرْهُوبِينَ .

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! إِنَّ عِنْدَهَا يُؤْتَى بِشَيْءٍ مِنَ الْمَشْرِقِ وَشَيْءٍ مِنَ الْمَغْرِبِ ، يَلُونَ أُمَّتِي ، فَالْوَيْلُ لِضُعَفَاءِ أُمَّتِي مِنْهُمْ ؛ وَالْوَيْلُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ؛ لَا يَرْحَمُونَ صَغِيراً ؛ وَلَا يُوَقِّرُونَ كَبِيراً ؛ وَلَا يَتَجَاوَزُونَ عَنْ مُسِيءٍ ، أَخْبَارُهُمْ خَنَاءٌ ، جُثَّتُهُمْ جُثَّةُ الْآدَمِيِّينَ ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ .

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! وَعِنْدَهَا يَكْتَفِي الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ ، وَيُغَارُ عَلَى الْغِلْمَانِ كَمَا يُغَارُ عَلَى الْجَارِيَةِ فِي بَيْتِ أَهْلِهَا ؛ وَتَشَبَّهُ الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ وَالنِّسَاءُ بِالرِّجَالِ ، وَيَرْكَبْنَ ذَوَاتُ الْفُرُوجِ [1] السُّرُوجَ ، فَعَلَيْهِنَّ مِنْ أُمَّتِي لَعْنَةُ اللَّهِ !

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولُ اللَّهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! إِنَّ عِنْدَهَا تُزَخْرَفُ الْمَسَاجِدُ كَمَا تُزَخْرَفُ الْبِيَعُ وَالكَنَائِسُ ؛ وَتُحَلَّى الْمَصَاحِفُ ؛ وَتُطَوَّلُ الْمَنَارَاتُ ؛ وَتَكْثُرُ الصُّفُوفُ بِقُلُوبٍ مُتَبَاغِضَةٍ ، وَأَلْسُنٍ مُخْتَلِفَةٍ .

١ـ المراد به : النساء .

فَقَال سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! وَعِنْدَهَا تُحَلَّى ذُكُورُ أُمَّتِي بِالذَّهَبِ ، وَيَلْبَسُونَ الْحَرِيْرَ وَالدِّيبَاجَ وَيَتَّخِذُونَ جُلُودَ النُّمُورِ صِفَاقاً !

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟

قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! وَعِنْدَهَا يَظْهَرُ الرِّبَا ؛ وَيَتَعَامَلُونَ بِالْغَيْبَةِ [1] وَالرُّشَى ؛ وَيُوضَعُ الدِّينُ ؛ وَتُرْفَعُ الدُّنْيَا .

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! وَعِنْدَهَا يَكْثُرُ الطَّلَاقُ ، فَلَا يُقَامُ لِلَهِ حَدٌّ ، وَلَنْ يَضُرَّ اللَهَ شَيئاً .

فَقَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! وَعِنْدَهَا تَظْهَرُ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ ، وَيَلِيهِمْ أَشْرَارُ أُمَّتِي .

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! وَعِنْدَهَا يَحَجُّ أَغْنِيَاءُ أُمَّتِي لِلنُّزْهَةِ ، وَيَحَجُّ أَوْسَاطُهَا

١ـ ورد في حاشية «تفسير عليّ بن إبراهيم» : العينة بالكسر : السلف (ق) ، إلّا أنّها نوع خاصّ من السلف . وفي كتاب الحديث باب يتعلّق به ، ومع أنّه من طرق تحاشي الربا ؛ إلّا أنّه قد ذُمّ في هذا الحديث الشريف باعتبار أنّ لصحّته شروطاً معيّنة إن لم تُراع صار ربا . وعلى كلّ فالظاهر أنّ كلمة «الغيبة» خطأ ولا مناسبة لها مع الكلام .

لِلتِّجَارَةِ، وَيَحجُّ فُقَرَاؤُهُمْ لِلرِّئَاءِ وَالسُّمْعَةِ ؛ فَعِنْدَهَا يَكُونُ أَقْوَامٌ يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَيَتَّخِذُونَهُ مَزَامِيرَ ؛ وَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَيَكْثُرُ أَوْلَادُ الزِّنَاءِ وَيَتَغَنَّونَ بِالْقُرآنِ ؛ وَيَتَهَافَتُونَ بِالدُّنْيَا .

قَالَ : سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! ذَاكَ إِذَا انْتُهِكَتِ الْمَحَارِمُ ، وَاكْتُسِبَتِ الْمَآثِمُ ، وَسُلِّطَ الْأَشْرَارُ عَلَى الْأَخْيَارِ ، وَيَفْشُو الْكِذْبُ ، وَتَظْهَرُ اللَّجَاجَةُ ، وَتَفْشُو الْفَاقَةُ ، وَيَتَبَاهَوْنَ فِي اللِبَاسِ ، وَيُمْطَرُونَ فِي غَيْرِ أَوانِ الْمَطَرِ ، وَيَسْتَحْسِنُونَ الْكُوبَةَ [1] وَالْمَعَازِفَ وَيُنْكِرُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى يَكُونَ الْمُؤمِنُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَذَلَّ مَنْ فِي الْأُمَّةِ ، وَيُظْهِرُ قُرَّاؤُهُمْ وَعُبَّادُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ التَّلَاوُمَ ؛ فَأُولَئِكَ يُدْعَوْنَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ : الْأَرْجَاسَ وَالْأَنْجَاسَ .

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! فَعِنْدَهَا لَا يَخْشَى الْغَنِيُّ إِلَّا الْفَقْرَ حَتَّى أَنَّ السَّائِلَ لَيَسْأَلُ فِيمَا بَيْنَ الْجُمْعَتَيْنِ ، لَا يُصِيبُ أَحَداً يَضَعُ فِي يَدِهِ شَيئاً .

قَالَ سَلْمَانُ : وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِي وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ !

يَا سَلْمَانُ ! عِنْدَهَا يَتَكَلَّمُ الرُّوَيْبَضَةُ .

فَقَالَ : وَمَا الرُّوَيْبَضَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمّي ؟

١ـ في «لسان العرب» : الكُوبة : الشِّطْرنجة . والكوبة : الطبل والنَّرد .(م)

قَالَ صَلَّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَتَكَلَّمْ ؛[1] فَلَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا قَلَيلاً حَتَّى تَخُورُ الْأَرْضُ خَوْرَةً ، فَلَا يَظُنُّ كُلُّ قَوْمٍ إِلَّا أَنَّهَا خَارَتْ فِي نَاحِيَتِهِمْ ، فَيَمْكُثُونَ مَاشَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُنْكُثُونَ فِي مَكْثِهِمْ ، فَتُلْقِي لَهُمُ الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا .

قَالَ : ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ ، ثُمَّ أَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْأَسَاطِينِ فَقَالَ : مِثْلُ هَذَا . فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ ذَهَبٌ وَلَا فِضَّةٌ ، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .[2]

وقد ورد في بعض الآيات تعبير : **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ .**[3]

أي أنّكم ستُقلبون للحضور في القيامة في ساحة الحضرة الإلهيّة ؛ وباعتبار أنّ ذلك العالم عالم الصحو المحض وعالم الصدق والواقعيّة ، فيتّضح أنّ الناس يعيشون في هذه الدنيا ـ وهي عالم الاعتبار ـ على أساس الغفلة والنوم ، وعلى أساس الكذب والأُمور الاعتباريّة الموهومة ، ليكون قلبها وعكسها صحواً وصدقاً وحقيقة .

نعوذ بالله من النفس الأمّارة بالسوء التي تُلحق بالإنسان جميع المصائب والتعاسات . وحقّاً إذا وُكل الإنسان إلى نفسه فإنّه لن يقف في تمرّده وجموحه عند حدّ ، وسينحدر متسارعاً في منحدر الشقاء والتعاسة ، ولن يكون من علاجٍ له آنذاك إلّا جهنّم المستعرة .

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يقود الأُمّة على محور العزّة والشرف ، فحارب الناكثين والقاسطين والمارقين وفقاً لما أخبره

١ـ أي يمسك زمام الأُمور ويتكلّم في الأُمور الاجتماعيّة والأوضاع العامّة من لا حقّ له في إرشاد وهداية الناس ولا ولاية له عليهم .

٢ـ «تفسير عليّ بن إبراهيم» ص ٦٢٧ إلى ٦٢٩ ؛ ونقله عنه في تفسير «الميزان» ج ٥ ، ص ٤٣٢ إلى ٤٣٥ .

٣ـ الآية ٢١ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وكان أهل الكوفة يسبّبون له الأذى كثيراً ويتمرّدون على طاعته ، ويتقاعسون في تجهيز الجيش وفي الحضور في ساحة القتال ، ويقدّمون استراحتهم في بيوتهم مع أهليهم على الجهاد في سبيل الله ، وكانوا يعترضون عليه بآلاف الاعتراضات والانتقادات ، كلّاً وفق رأيه وذوقه اللذين اختارهما وانتهجهما ، ويُبرزون أنانيّتهم وشخصيّتهم مقابل أوامره عليه السلام ، ممّا كان يرهق كاهل الإمام القائم بالحقّ والحاكم بالعدل ، المخلص للرعيّة والداعي إلى الله ويُتعبه ويزهّده في الحياة .

يروي الثقفيّ في كتاب «الغارات» بسنده المتّصل عن أبي الودّاك أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام لمّا فرغ من حرب الخوارج قام في النهروان خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ قال :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإنَّ اللَهَ قَدْ أَحْسَنَ بِكُمْ وَأَعَزَّ نَصْرَكُمْ فَتَوَجَّهُوا مِنْ فَوْرِكُمْ هَذَا إلَى عَدُوِّكُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ .

فقاموا إليه ، فقالوا :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! نَفِدَتْ نِبَالُنَا ، وَكَلَّتْ سُيُوفُنَا ، وَنَصَلَتْ أَسِنَّةُ رِمَاحِنَا وَعَادَ أَكْثَرُهَا قَصْداً .

ارْجِعْ بِنَا إلَى مِصْرِنَا نَسْتَعِدُّ بِأَحْسَنِ عُدَّتِنَا ، وَلَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ فِي عِدَّتِنَا عَدَدَ مَنْ هَلَكَ مِنَّا ، فَإنَّهُ أَقْوَى لَنَا عَلَى عَدُوِّنَا ؛ وَكَانَ الَّذِي وَلِيَ كَلَامَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ .[1]

١ـ «الغارات» ج ١ ، ص ٢٣ إلى ٢٥ . ويقول في الهامش : في «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد بلفظ انصلتت ، ولعلّها تصحيف من انتصلت . من قولهم : انتصل السهم ، أي خرج نصله .

أورده الطبريّ كذلك ضمن بيان وقائع سنة سبع وثلاثين .

كما روى في «الغارات» بسنده عن المستظلّ بن حصين أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبة له :

يا أَهْلَ الْكُوفَةِ ! وَاللَهِ لَتَجِدُنَّ فِي اللهِ ، وَلَتُقَاتِلُنَّ عَلَى طَاعَتِهِ ، أَوْ لَيَسُوسَنَّكُمْ قَوْمٌ أَنْتُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ مِنْهُمْ ، فَلَيُعَذِّبَنَّكُمْ وَلَيُعَذِّبَنَّهُمُ اللهُ .[1]

وروى كذلك في «الغارات» بسنده المتّصل عن عمير العبيسيّ ، قال :

مَرَّ عَلِيٌّ عَلَيهِ السَّلَامُ عَلَى الشُّفَارِ مِنْ هَمْدَانِ ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَوْمٌ فَقَالُوا : أَقَتَلْتَ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ جُرْمٍ ، وَدَاهَنْتَ فِي أَمْرِاللهِ ، وَطَلَبْتَ الْمُلْكَ وَحَكَّمْتَ الرِّجَالَ فِي دِينِ اللهِ ؟! لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَهِ .

فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : حُكْمُ اللهِ فِي رِقَابِكُمْ ، مَا يَحْبِسُ أَشْقَاهَا أَنْ يَخْضِبَهَا مِنْ فَوْقِهَا بِدَمٍ ؛ إِنِّي مَيِّتٌ أَوْ مَقْتُولٌ بَلْ قَتْلاً ، ثُمَّ جَاءَ حَتَّى دَخَلَ الْقَصْرَ .[2]

وجاء في «نهج البلاغة» أنّ شخصاً من أصحاب الإمام قام فقال :

نَهَيْتَنَا عَنِ الْحُكُومَةِ ثُمَّ أَمَرْتَنَا بِهَا ! فَمَا نَدْرِي أَيَّ الْأَمْرَيْنِ أَرْشَدُ ؟ فَصَفَّقَ عَلَيهِ السَّلَامُ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى وَقَالَ :

هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ .[3]

١ـ «الغارات» ج ١ ، ص ٢٣ ؛ وذكره المجلسيّ في «بحار الأنوار» الطبعة الكمباني ، ج ٨، ص ٦٧٩ ، في الفتن .

٢ـ «الغارات» ج ١ ، ص ٣٠ ؛ وأورده المجلسيّ في «بحار الأنوار» الطبعة الكمباني ، ج ٨، ص ٦٧٨ .

٣ـ أي أنّ قولك هذا جزاء من ترك الرأي الوثيق والعزم في قتال معاوية بواسطة قول جهلة قومه . ثمّ أوضح عليه السلام له أنّ الرجوع عن العزم على القتال والأخذ بقول الجهلة إنّما يستند إلى قصور فهم الناس وإدراكهم الذين أصرّوا على هذا الأمر ، وإلّا فإنّ النهج ⇐

أَما وَاللهِ إِنِّي لَوْ حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْراً ؛ فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ ، وَإِنْ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ ، لَكَانَتْ الْوُثْقَى ، وَلَكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ ؟

أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي ؛ كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا .[1]

اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هَـذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ ، وَكَـلَّتْ النَّـزَعَةُ بِأَشْـطَانِ الرَّكِيِّ .[2]

لقد رفع معاوية المصاحف على رؤوس الرماح حيلةً ومكراً ، وعـدّ نفسه تابعاً للقرآن ، وحكّم كتاب الله ، وأناط أمر الحرب إلى التحكيم ، فقام أمير المؤمنين بتحذير الناس تكراراً بخطبه وكلامه من نوايا معاوية السيّئة ، وأخبرهم أنّ الأمر لا يعدو كـونه خـدعة ليس إلّا ، وأنّ أُولئكـم يـريدون إيقاف الحرب باسم القـرآن فـراراً مـن الهـزيمة الحـتميّة أوّلاً ، ولإيـجاد إشكال وخدش ـ عمليّاً ـ في حكومة أمير المؤمنين عليه السلام من خلال إرجاع الأمر إلى التحكيم ثـانياً . وعـلى كـلّ تـقدير فـإنّهم كـانوا يـريدون استغلال الفرصة على نحوٍ سيّئ لصالحهم .

ومن هنا فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام ينهى الناس بشدّة عن قبول التحكيم وعن الخضوع له ، ولكنّ الضجّة التي قام بها الناس مطالبين بالتحكيم ، والفتنة والتفرقة التي حصلت في جيش الإمام (حيث أحاط به

⇦ المنزّه عن الخطأ لذلك الإمام الهُمام وتوقّعاته المنطقيّة لم تتزلزل أو تتزعزع .

١ـ أي كيف يمكنني معالجة ألمي بكم حين يكون ألمي منكم ؟ وكيف يمكنني إقامة بعضكم وإصلاحه ببعضكم الآخر الشبيه له في النزعة ؟

٢ـ الخطبة ١١٩ من «نهج البلاغة» محمّد عبده ، مصر ، ص ٢٣٣ و ٢٣٤ .

القوم بعشرة آلاف سيف مُشهر وهدّدوه أن يقطّعوه إرباً إرباً إن امتنع عن قبول التحكيم) جعلت الإمام لا يجد مناصاً ومفرّاً من قبول التحكيم ، وإلّا خالفه جميع جيشه وعسكره ولانتهى الأمر لصالح معاوية بشكل حتميّ .

لذا فقد قبل عليه السلام بالتحكيم . ثمّ مكر الحكمان واحتالا فخدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعريّ وانتهى أمرهما إلى الانحراف ، فصمّم الإمام على مواصلة حرب صفّين ليُنهي أمر معاوية الماكر الخدّاع ويحسمه إلى الأبد .

إلّا أنّ طائفة الخوارج خرجوا على الإمام وكفّروه لقبوله التحكيم ، فتصدّى عليه السلام لإخماد هذه الفتنة الداخليّة وأفهم الخوارج بصواب عمله ، فتاب غالبيّتهم واعتذروا عمّا فعلوا ، أمّا الباقون فلجّوا في غيّهم وعنادهم وتمرّدهم ، وقاموا بالإغارة على أموال المسلمين ، وانهمكوا بإثارة الفتنة ، فقُتلوا في حرب النهروان وتبدّدوا واستؤصلت هذه الفتنة الخطيرة من جذورها .

وكان الإمام في صدد إعداد جيش مجهّز لمهاجمة أهل الشام ومعاوية عليه الهاوية ، حين غاله السيف الآثم لابن ملجم المراديّ فقضى عليه شهيداً .

يروي في «الغارات» بسنده المتّصل عن **أَبِي عَوْن الثَّقَفِيّ بن عُبيد اللهِ قَالَ : جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي عَبسَ وَعَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمِنْبَرِ.**

فَقَالَت : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! ثَلَاثٌ بَلْبَلْنَ الْقُلُوبَ .

قَالَ : وَمَا هُنَّ ؟

قَالَتْ : رِضَاكَ بِالْقَضِيَّةِ ، وأَخْذُكَ بِالدَّنِيَّةِ ، وَجَزَعُكَ عِنْدَ الْبَلِيَّةِ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَيْحَكِ ! إِنَّمَا أَنْتِ امْرَأَةٌ . انْطَلِقِي فَاجْلِسِي عَلَى

ذَلِكِ .

قَالَتْ : لَا وَاللهِ ؛ مَا مِنْ جُلُوسٍ إلَّا فِي ظِلَالِ السُّيُوفِ .[1]

ويروي في «الغارات» بسنده المتصل عن زيد بن وهب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال في أوّل خطبة له بعد فراغه من النهروان وأمر الخوارج ، فقال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! اسْتَعِدُّوا إلَى عَدُوٍّ فِي جِهَادِهِمْ الْقُرْبَةُ مِنَ اللهِ وَطَلَبُ الْوَسِيلَةِ .

إنّ أعداءكم خالي الوفاض[2] من الحقّ يعيشون حيارى تائهين ، لا بصيرة لهم في الحقّ أبداً تعشوا أعينهم عن مشاهدته ، أنِسُوا بالظلم والجور فخالط قلوبهم فهم عنه لا يعدلون . بعيدون عن كتاب الله جاهلون به ، تنكّبوا عن الصراط الأقوم وانشغلوا بالغيّ والانحراف ، ورسخوا في وادي الطغيان والتمرّد والاعتداء فهم فيه مغمورون ، وابتلوا بجهلهم وعماهم فهم في مستنقع الضلال وغمرات الغيّ ، فأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ، وتوكّلوا على الله فإنّه يكفي من توكّل عليه واستنصره واستعانه .

قال : فلم ينفروا بهذه الخطبة ولم ينشروا ولم يبرحوا بيوتهم ومنازلهم ، فتركهم الإمام أيّاماً حتّى أيس من أن يفعلوا ، فدعا رؤساءهم ووجهاءهم فسألهم عن رأيهم وما الذي ثبّطهم ، فمنهم المعتلّ ومنهم المُنكِر

١ـ «الغارات» ج ١ ، ص ٣٨ و ٣٩ . ويقول في الهامش : وقد نقل هذا الحديث المجلسيّ في المجلّد الثامن من «بحار الأنوار» باب ماجرى من الفتن ، ص ٦٧٩ ، سطر ١٤ ونقله ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» ولم ينسبه وذلك بهذه العبارة : روى الحافظ أبو نعيم قال : حدّثنا أبو عاصم الثقفيّ قال : جاءت امرأة ... إلى آخر الحديث . (يراجع «شرح نهج البلاغة» ج ١ ، ص ١٧٩ ، السطر ٣١) .

وأقلّهم النشيط ، فقام عليه السلام فيهم ثانيةً ، فقال :

عِبَادَ اللهِ ! مَا لَكُمْ إِذَا أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ثَوَاباً ؟ وَبِالذُّلِّ وَالْهَوَانِ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً ؟

أَو كُلَّمَا نَادَيْتُكُمْ إِلَى الْجِهَادِ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي سَكْرَةٍ ، يَرْتَجُّ فَتَبْكُمُونَ ؛ فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ[1] فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ؛ وَكَأَنَّ أَبْصَارَكُمْ كُمْهٌ فَأَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ !

لِلَّهِ أَنْتُمْ ![2] مَا أَنْتُمْ إِلَّا أُسُودُ الشَّرَى فِي الدَّعَةِ ، وَثَعَالِبُ رَوَّاغَةٌ حِينَ تُدْعَوْنَ . مَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُصَالُ بِهِ ، وَلَا ذَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا . لَعَمْرُ اللهِ لَبِئْسَ حُشَاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ . إِنَّكُمْ تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ ، وَتَنْتَقِصُ أَطْرَافُكُمْ وَلَا تَتَحَاشُونَ ، وَلَا يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ .

إِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْيَقْظَانُ ، أَوْدَى مَنْ غَفَلَ ، وَيَأْتِي الذُّلُّ مِنْ وَادِعٍ ؛ غُلِبَ الْمُتَخَاذِلُونَ ، وَالْمَغْلُوبُ مَقْهُورٌ وَمَسْلُوبٌ .[3 و 4]

وقد أورد السيّد الرضيّ رحمة الله عليه هذه الخطبة في «نهج البلاغة» إلّا أنّه أبدل جملة «**مَا أَنْتُمْ إِلَّا أُسُودُ الشَّرَى فِي الدَّعَةِ**» بجملة : «**مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ**» ، كما أضاف هذه الجملات :

وَأَيْمُ اللهِ ؛ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِيَ الْوَغَى وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ قَدِ

١ـ أَلِسَ فلان ألساً : اختلط عقله . فهو مألوس . (م)

٢ـ على وجه الاستهزاء والتهكّم ، شبيه بـ «للّه درّكم» . أي أنّكم من فرط جودتكم فأنتم للّه .

٣ـ أي أنّ عدوّه سيقهره ويسطو به ، وأنّ نفسه وماله وعرضه ستكون في معرض الاعتداء .

٤ـ «الغارات» ج ١ ، ص ٣٣ إلى ٣٧ .

انْفَرَجْتُمْ عَنْ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ ؛[1] وَاللهِ إِنَّ امْرءاً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ ، يُعْرِقُ لَحْمَهُ وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، وَيَـفْرِي جِـلْدَهُ ، لَـعَظِيمٌ عَـجْزُهُ ، ضَعِيفٌ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ[2] أَنْتَ ، فَكُن ذَاكَ إِنْ شِئْتَ ،[3] فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ ، وَيَفْعَلُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .[4 و 5]

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَـقِّي عَـلَيكُمْ فَالوَفَاءُ بِالبيعَةِ وَالنُّصحُ لِي فِي المَشْهَدِ وَالمَغِيبِ ، والإجَابَةُ حِينَ أَدعُوكُمْ وَالطَّاعَةُ حينَ آمركُم ، وَإِنَّ حَـقَّكُمْ عَـلَيَّ النـصيحةُ لَكُـم مَـا صَـحبْتُكُمْ ،

١ـ فلا تلتئمون ولا تجتمعون كالرأس الذي يعزل عن البدن فلا يلتحق به ثـانية ، أو كما ينفلق الرأس فلقتين فلا يلتئم .

٢ـكناية عن القلب .

٣ـ جاء في «الإرشاد» للمفيد ، ص ٨٧ أنّ أمير المؤمنين لمّا وصـل فـي خـطبته إلى قوله : «قد انفرجتم عن ابن أبي طالب» قام إليه الأشعث بن قيس فقال : فهلّا فعلتَ كما فعلَ ابن عفّان ؟! فقال عليه السلام : يا عرفَ النار ! ويلك ، إنّ فعل ابن عفّان لمخزاة على من لا دين له ولا حجّة معه ، فكيف وأنا على بيّنة من ربّي ، والحقّ في يدي . ثمّ قال : أنت فكن ذاك إن شئت ، أمّا أنا ... الحديث . وجاء في «الغارات» ج ٢ ، ص ٤٩٥ : «أنت فكن ذات إن شئت وأمّا أنا ... الحديث» في جواب الأشعث بن قيس . ويقول في الهامش : قال ابن أبي الحديد في «شرح النهج» ج ١ ، ص ١٧٨ ، السطر ٢١ : فأمّا قوله عليه السلام «أنت فكن ذاك» فإنّه إنّما خاطب بذلك الأشعث بن قيس ، فإنّه إنّما خاطب من يمكن عدوّه من نفسه كائناً من كـان غير معيّن ولا مخصّص .

٤ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٣٤ ، طبعة محمّد عبده ، مصر ، ص ٨٢ إلى ٨٤ .

٥ ـ أورد الطبري في تأريخه أغلب فقرات هذه الخطبة ضمن بيان وقـائع سـنة سـبع وثلاثين ، المجلّد الخامس ، ص ٩٠ ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمّد أبي الفـضل إبـراهـيم ؛ والمفيد في مجالسه ، ضمن المجلس ١٨ ، طبعة النجف ، ص ٨٧ ؛ كما أوردها ابـن أبـي الحديد في «شرح نهج البلاغة» ج ٢ ، ص ١٧٩ ضمن شرح هذه الخطبة .

والتَوفيرُ عَلَيْكُمْ ، وَتَعليمُكُمْ كَيلَا تَجْهَلوا ، وَتَأدِيبُكُمْ كَي تَعْلَمُوا ، فَإِنْ يُرِدِ اللّٰهُ بِكُمْ خَيْراً تَنْزَعُوا عَمَّا أَكْرَهُ وَتَرْجِعُوا إِلَى مَا أُحِبُّ ، تَنَالُونَ مَا تُحِبُّونَ وَتُدْرِكُونَ مَا تَأْملونَ .[1]

كما جاء في «نهج البلاغة» أنّه عليه السلام قال في ذمّ أصحابه :

كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ[2] **وَالثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ ، كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ .**

أَكُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ[3] **مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ وَانْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا .**

الذَّلِيلُ وَاللّٰهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ ، وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ[4] **وَإِنَّكُمْ وَاللّٰهِ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ**[5] **قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ .** [باعتباركم من أهل الأُنس ونشدان اللذّات] **وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ وَيُقِيمُ أَوْدَكُمْ ، وَلَكِنِّي لَا أَرَى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي . أَضْرَعَ اللّٰهُ خُدُودَكُمْ ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ ،**[6] **لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ ، وَلَا تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الْحَقَّ .**[7]

كما جاء في «نهج البلاغة» :

١ـ «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ضمن شرح هذه الخطبة .

٢ـ البِكار جمع بكر ، وهي الإبل الفتيّة ، والعمدة : التي قد انشدخت أسنمتُها من داخل لكثرة ركوبها ، بينما ظاهرها صحيح . (م)

٣ـ المنسر : القطعة من الجيش . (م)

٤ـ الأفوق : المكسور الفوق ، و هو موضع الوتر من السهم ؛ و الناصل المنزوع النصل . (م)

٥ـ الباحات جمع باحة وهي ساحة الدار . (م)

٦ـ أضرع الله خدودكم : أذلّ وجوهكم ؛ و أتعس جدودكم أي أحال حظوظكم وأهلكها . (م)

٧ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٦٧ ، طبعة عبده ، مصر ، ص ١٧ و ١٨ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ . فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمْلَةَ الْبَلاَءِ ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالقَمَاءَةِ ،[1] وضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالأَسْهَابِ ،[2] وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ ، وَسِيمَ الْخَسْفَ وَمُنِعَ النَّصَفَ .

أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهاراً وَسِرّاً وَإِعْلَاناً ، وَقُلْتُ لَكُم اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا . فَتَواكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوطَانُ . وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا .

وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ [3] فَيَنْتَزِعُ حُجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلاَئِدَهَا وَرُعُثَهَا ، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالاسْتِرْجَاعِ وَالْاسْتِرْحَامِ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ . فَلَوْ أَنَّ امْرِءاً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً .

فَيَا عَجَباً وَاللهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ اجْتِمَاعُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ، فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى ، يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ ، وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ ، وَيُعْصَى اللّهَ وَتَرْضَوْنَ.

١ـ ديث أي ذُلّل ، ومنه الديّوث الذي لاغيرة له ؛ والصغار : الذلّ ؛ القماءة من قمؤ الرجل قماء وقماءة أي صار قمياء وهو الصغير الذليل . (م)

٢ـ الأسهاب : ذهاب العقل ، وهو لفظ «شرح النهج» ، أمّا في «نهج البلاغة» طبعة محمّد عبده فقد ورد بلفظ الأسداد أي الحُجب . (م)

٣ـ المعاهدة : الذميّة .

فَإذَا أَمَرْتُكُمْ بالسَّيْرِ إلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَـذِهِ حَـمَّارَةُ الْـقَيْظِ. أَمْهِلْنَا يُسَبَّخ [1] عَنَّا الْحَرُّ . وَإذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَـذِهِ صَبَّارَةُ [2] الْقُرِّ . أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخُ عَنَّا الْبَرْدُ ؛ كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ . فَإذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ .

يَـا أَشْبَاهَ الرِّجَـالِ وَلَا رِجَـالَ ، حُـلُومُ الْأَطْـفَالِ ، وَعُـقُولُ رَبَّـاتِ الْحِجَالِ ! [3]

لَوَدِدْتُ أَنِّـي لَمْ أَرَكُمْ وَلَـمْ أَعْـرِفْكُمْ ؛ مَـعْرِفَةٌ وَاللّـهِ جَـرَّتْ نَـدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً .

قَاتَلَكُمُ اللّهُ ! لَقَدْ مَـلَأْتُمْ قَـلْبِي قَـيْحاً ، وَشَـحَنْتُمْ صَـدْرِي غَـيْظاً ، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّـهْمَامِ أَنْـفَاساً ، [4] وَأَفْسَـدْتُمْ عَـلَيَّ رَأيِـي بِـالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ ، حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ إنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ . لِلّهِ أَبُوهُمْ ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي ؟ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ وَهَـا أَنَـا ذَا قَـدْ ذَرَّفْتُ عَـلَى السِّتِّينَ ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . [5]

كما جاء في «نهج البلاغة» أنّه عليه السلام قال في مقام الشكوى من أصحابه :

١ـ يسبخ عنّا الحرّ : أي يخفّ . (م)

٢ـ صبّارة القرّ : شدّة البرد . (م)

٣ـ ربّـات الحـجال : النسـاء ؛ والحـجال جـمع حـجلة وهـي بـيت يـزيّن بـالستور والثياب .(م)

٤ـ النغب جمع النغبة وهي الجُرعة . والتّهام بفتح التاء : الهمّ ؛ وأنفاساً : أي جُرعة بعد جُرعة . (م)

٥ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٢٧ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر ، ص ٦٧ إلى ٧٠ .

أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ، كَلاَمُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلاَبَ ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأَعْدَاءَ . تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ حِيدِي حِيَادِ .[1]

مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ ، وَلَا اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ ، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ ،[2] دِفَاعِ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ ،[3] لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ ، وَلَا يُدْرِكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ .

أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ ! وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ ؟!

الْمَغْرُورُ وَاللَّهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَاللَّهِ بِالسَّهْمِ الأَخْيَبِ ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ .

أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ لَا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ ، وَلَا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ . مَا بَالُكُمْ ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ ؟ مَا طِبُّكُمْ ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ أَقَوْلاً بِغَيْرِ عَمَلٍ ، وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ ، وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ ؟[4]

ويقول في خطبة أخرى :

وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي .

إلى أن يقول :

أَيُّهَا الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، الْغَائِبَةُ عُقُولُهُمْ ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ ، صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ

١ـ حيدي حياد كلمة يقولها الهارب الفارّ ، من حاد عن الشيء أي انحرف .(م)

٢ـ أي يتعلّلون بالأضاليل التي لا جدوى لها . (م)

٣ـ المطل في الدين : تأخيره ودفعه كرّةً بعد أُخرى . (م)

٤ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٢٩ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر ، ص ٧٣ إلى ٧٥ .

يَعْصِي اللَهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ .

لَوَدَدْتُ وَاللَهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُـمْ صَـرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ .[١]

ولقد كان أمير المؤمنين يسعى بهذه الخطب والكلمات البليغة العميقة إلى التحدّث مع أرواحهم ، وإلى إحياء إحساسهم الباطنيّ ووجدانهم ، وإلى إفهامهم حقيقة الأمر بطرق مختلفة ، بهذه اللطائف من الإشارات والكنايات والاستعارات .

وقد أورد عليه السلام في خطبة له في بداية حرب صفّين حين منع معاويةُ جيشَ الإمام من الماء :

فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ .[٢]

وهو في الحقيقة عالمٌ من دروس الأدب والأخلاق والعزّة والشرف لو دُوّنت في شرحه وتفسيره الكتب لكان ذلك جديراً .

ولقد أتعبوا وأبرموا الإمام عليه السلام بتساهلهم وتقاعسهم ، بحيث كان ينتظر الموت ويترقّبه حقّاً ، حتى إذا هوت ضربة ابن ملجم المراديّ على يافوخه ،[٣] نادى : **فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ !**

وكان يضع من تراب المحراب على رأسه ويقول :

مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ .[٤]

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٩٥ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر ، ص ١٨٧ و ١٨٨ .

٢ـ الخطبة ٥١ ، ص ١٠٠ .

٣ـ اليافوخ ملتقى عظم مقدّم الرأس ومؤخّره ؛ ويُستفاد من هذه العبارة أنّ سيف ابن ملجم لم يمرّ من عند جبين الإمام ، بل جاء في عرض رأسه الشريف بين أُذنيه وهوى على يافوخه ومخّه .

٤ـ الآية ٥٥ ، من السورة ٢٠ : طه .

صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيكَ وَصَلَوَاتُ مَلَائكَتِهِ المُقَرَّبِينَ وَأَنبِيَائِهِ المُرسَلِينَ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ يا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ .



المجلس الحادي والعشرون

علامات القيامة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مطالب أُلقيت في اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك)

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .[١]

دار كلامنا في مقدّمات الشروع والورود في عالم القيامة ، وذكرنا أنّ هناك إجمالاً تواتراً معنويّاً للأخبار على أنّ الناس يُقلبون ويفقدون حالتهم الإنسانيّة حين يقترب قيام القيامة ، فيزداد الفسق والفجور والفساد في الأرض ، وتُفتقد الرحمة والإنصاف والمروءة ، ويُستهان بأعراض الناس ، ولا تُمدّ يد المعونة للضعفاء والمسحوقين ، ولا يُبجّل الكبار ، ولا يحكم قانون العدل بين الناس .

وقد جرى في المجلس السابق نقل رواية شريفة عن تفسير عليّ بن إبراهيم رواها بسنده المتّصل عن عبد الله بن عبّاس ، عن رسول الله

١ـ الآية ١٨ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

صلّى الله عليه وآله ، حدّثها في **حجّة الوداع** [١] لسلمان الفارسيّ ، وكان أقرب الناس إليه ، بينما كان صلوات الله عليه ممسكاً بيده حلقة باب الكعبة ، وقد احتوت مضموناً رفيعاً حقّاً .

ونذكر الآن رواية أُخرى نقلها **محمّد بن يعقوب الكلينيّ** في كتابه الشريف «روضة الكافي» بسنده عن حمران بن أعين (وهو أخو **زُرارة وعبد الملك وبَكر بن أعين** ، وجميعهم من الرواة) .

حديث الإمام الصادق في موكب المنصور :

يقول حمران : قال أبو عبد الله (الصادق) عليه السلام وذُكر هؤلاء عنده وسوء حال الشيعة عندهم فقال : إنّي سرتُ مع أبي جعفر المنصور (الدوانيقيّ) وهو في موكبه ، وهو على فرسٍ وبين يديه خيلٌ ومن خلفه خيلٌ ، وأنا على حمارٍ إلى جانبه ، فقال لي : يا أبا عبد الله ؛ قد كان ينبغي لك أن تفرحَ بما أعطانا اللهُ من القوّةِ وفتح لنا من العزِّ ، ولا تُخبر الناسَ أنّكَ أحقُّ بهذا الأمرِ منّا وأهل بيتك ، فتُغْرينا بكَ وبهم .

قال : فقلتُ : ومَن رَفَعَ هذا إليكَ عنّي فقد كذب .

فقال لي : أتحلف على من تقول ؟

قال : فقلت : إنّ الناسَ سحرة ، يعني يحبّون أن يفسدوا قلبك عَلَيّ فلا تمكّنهم من سمعكَ فإنّا إليك أحوج منك إلينا .

١ـ يأتي وزن فَعلة بالفتح لبيان المرّة الواحدة ، مثل ضربته ضَربة ؛ وأمّا وزن فِعلة بالكسر فيأتي للهيئة والكيفيّة ، مثل جلستُ جِلسة العبد .

ويُستفاد منه أنّ حِجّة الوداع صحيحة بالكسر لا بالفتح ، أي تلك الكيفيّة الخاصّة من الحجّ الذي له صفة الوداع .

فقال لي : تذكر يوم سألتُك هلْ لنا مُلكٌ ؟ فقلتَ : نعم ؛ طويلٌ عريضٌ شديدٌ ، فلا تزالون في مُهلةٍ من أمركم وفسحةٍ من دنياكم حتّى تُصيبوا منّا دماً حراماً في شهرٍ حرامٍ في بلدٍ حرامٍ . فعرفتُ أنّه قد حفظ الحديثَ ، فقلتُ : لعلّ الله عزّ وجلّ أن يكفيك ، فإنّي لم أخصّك بهذا ، وإنّما هو حديث رويتُه ، ثمّ لعلّ غيرك من أهل بيتك يتولّى ذلك . فسكتَ عنّي ، فلمّا رجعتُ إلى منزلي أتاني بعضُ موالينا فقال : جُعِلْتُ فِداك ! واللهِ لقد رأيتُك في موكبِ أبي جعفر وأنتَ على حمار وهوَ على فرسٍ ، وقد أشرفَ عليك يكلّمك كأنّك تحته ، فقلتُ بيني وبين نفسي : هذا حجّة الله على الخلقِ ، وصاحبُ هذا الأمر الذي يُقتدى به ، وهذا الآخر يعمل بالجور ويقتلُ أولادَ الأنبياءِ ويسفك الدماءَ في الأرضِ بما لا يحبّ اللهُ ، وهو في موكبه وأنت على حمارٍ ، فدخلني من ذلك شكٌّ حتّى خِفْتُ على ديني ونفسي .

قال (الإمام) : فقلتُ : لو رأيتَ مَنْ كان حولي وبين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي من الملائكة لاحتقرتَه واحتقرتَ ما هو فيه .

فقال : الآن سكنَ قلبي . ثمّ قال : إلى متى هؤلاء يملكون أو متى الراحة منهم ؟

فقلتُ : أليس تعلم أنّ لكلّ شيءٍ مُدّة ؟

قال : بلى !

فقلتُ : هل ينفعك علمُك أنّ هذا الأمرَ إذا جاءَ (أي الظهور والقيام) كان أسرعَ من طرفة العين ؟ إنّك لو تعلم حالهم عند اللهِ عزّ وجل وكيف هي كنت لهم أشدَّ بُغْضاً ، ولو جهدتَ وجهد أهلُ الأرض أن يدخلوهم في أشدِّ ما هم فيه من الإثم لم يقدروا !

فَلَا يَسْتَفِزَّنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ[1] فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .[2]

ألا تعلم أنّ من انتظر أمرنا وصبر على ما يرى من الأذى والخوف هو غداً في زمرتنا .

ثمّ يبدأ الإمام مفصّلاً ببيان العلامات التي يجب أن تقع في آخر الزمان لظهور الإمام وليّ العصر كمقدّمة للرجعة والقيامة ، فيذكر جميع تفاصيل أخلاق الناس وسيرتهم ، وتعاستهم وشقاءهم ، والظلم الذي يلحق بهم ، والمعاصي التي يبتلون بارتكابها ، الواحد بعد الآخر ، بحيث يزيد ذلك على أربع صفحات للكتاب من الحجم العادي . ثمّ يعزّيه الإمام ويطيّب خاطره بأنّ الله معنا دوماً ، وعسى الله أن يُعجّل فرجنا :

وَٱعْلَمْ : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ،[3] و: إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ .[4 و 5]

١ـ اقتباس من الآية ٦٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء : وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ .

٢ـ اقتباس من الآية ٨ ، من السورة ٦٣ : المنافقون : وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

٣ـ وردت هذه الآية بهذا اللفظ في ثلاثة مواضع من القرآن : الأوّل : الآية ١٢٠ ، من السورة ٩: التوبة . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . الثاني : الآية ١١٥ ، من السورة ١١ : هود ؛ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . والثالث : الآية ٩٠ ، من السورة ١٢ يوسف . إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

٤ـ الآية ٥٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٥ـ «روضة الكافي» طبعة المطبعة الحيدريّة ، ص ٣٦ إلى ٤٢ .

ظهور عشرة آيات للقيامة

وروى الصدوق رحمة الله عليه في كتاب «الخصال» عن أبي الطُّفَيل عن حُذَيفة بن أُسيد ، قال : اطّلعَ علينا رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وآله من غرفةٍ ونحنُ نتذاكرُ الساعةَ ، [فـ] قال رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وآله :

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَكُونُ عَشْرُ آيَاتٍ : الدَّجَّالُ ، وَالدُّخَانُ ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ ، وَيَأْجُوجُ وَمأْجُوجُ ، وَثَلَاثُ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ ، تَنْزِلُ مَعَهُمْ إِذَا نَزَلُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا .[1]

وهذا الحديث موجود في «الخصال» المطبوع بالطبعة الحجريّة ، إلّا أنّ المجلسيّ أورده عنه في «بحار الأنوار» باب أشراط الساعة ، بسنده المتّصل عن أبي الطفيل ، عن حذيفة بن أُسيد ، لكنّه أورد بدلاً من الجملة الأخيرة ، جملة : **وَتُقْبِلُ مَعَهُمْ إِذَا أَقْبَلُوا .**[2]

والخلاصة فقد ذُكرت في هذا الحديث تسع علامات لظهور القيامة ، أمّا العاشرة فهي بالطبع نزول النبيّ عيسى ابن مريم على نبيّنا وآله وعليهما السلام ، والشاهد على هذا القول أنّ هذا الحديث قد ذُكر في «صحيح مسلم» عن أبي الطفيل ، عن حُذيفة بن أُسيد الغفاريّ ، وذكر فيه نزول عيسى ابن مريم ، علاوة على الفقرات التسع التي ذكرناها هنا .[3]

١ـ «الخصال» طبعة المطبعة الحيدريّة ، ص ٤٣١ و ٤٣٢ .

٢ـ «بحار الأنوار» الطبعة الحروفيّة ، ج ٦ ، ص ٣٠٣ .

٣ـ «صحيح مسلم» طبعة محمّد فؤاد عبد الباقي ـ بيروت ، ج ٤ ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، تسلسل الصفحة ٢٢٢٥ و ٢٢٢٦ .

والشاهد الآخر أنّ الصدوق يروي في «الخصال» بسنده المتّصل عن **حُذيفة بن أُسيد** يقول :

سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : عَشْرُ آيَاتٍ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ : خَمْسٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَمْسٌ بِالْمَغْرِبِ ، فَذَكَـرَ الدَّابَـةَ ، وَالدَّجَّـالَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَـلَيْهِ السَّـلَامُ ، وَيَأْجُـوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَأَنَّـهُ يَغْلِبُهُمْ وَيُغْرِقُهُمْ فِي الْبَحْرِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ تَمَامَ الآيَاتِ.[1]

وقد وردت روايات كثيرة بأسانيد مختلفة ومضامين متفاوتة حـول الفقرات المختلفة للرواية التي ذكرناها بهذا السند ، والتي تتحدّث عن أمر الدجّال ونزول عيسى ابن مريم ومجيء يأجـوج ومأجـوج وفـناء الأرض وغيرها ،كما يمكن ـ إجمالاً ـ استنتاج تلك المضامين من آيات القـرآن الكريم :

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِـيَ بَـعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَـمْ تَكُـنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ.[2]

فظهور آيات الله تعالى في هذه الآية الشريفة لا ينحصر في الآيات الظاهريّة التي وُجدت فعلاً من الأرض والسماء والريـاح والغـيوم ونـزول المـطر وأمـثال ذلك ، لأنّ النـاس يشـاهدون هـذه الآيـات وأشـباهها فلا يؤمنون . بل هم في صدد مشاهدة نـوع خـاصّ مـن الآيـات الخـارقة للعادة ، وفي صدد البحث عن نوع من الأعاجيب والغرائب التي لم يروا لها مثيلاً .

١ ـ «الخصال» طبعة المطبعة الحيدريّة ، ص ٤٤٦ و ٤٤٧ .

٢ ـ الآية ١٥٨ ، من السورة ٦ : الأنعام .

وعليه فإنّ تلك الآيات نوع من الآيات الاستثنائيّة التي تظهر قدرة الله تعالى في مجالات خرق العادات والأُمور غير المألوفة وغير المعهودة التي سيعجز المنكرون والكفّار والمشركون والمعاندون أمامها أن يصرّوا على جحودهم وإنكارهم ، ولن يكون لديهم مناص من الإقرار بها .

ظهور يأجوج ومأجوج

ويمكن اعتبار هذه الآية الشريفة منطبقة على نزول عيسى على نبيّنا وآله وعليه السلام ، وعلى طلوع الشمس من المغرب ، أو بعض الآيات والعلامات الخارقة ، فقد جاء في الآيتين ٩٨ و ٩٩ ، من السورة ١٨ : الكهف على لسان ذي القرنين في خطابه للقوم الذي بنى لهم السدّ :

قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا .

ثمّ يقول :

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا * ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا .[1]

ومن أجل أن يتّضح جليّاً معنى الآية الشريفة التي عدّت من علامات القيامة ومن ملاحم القرآن ، فإنّ علينا الشروع في البحث في مواضيع ثلاثة :

الأوّل : ذو القرنين .

١ـ الآيتان ١٠٠ و ١٠١ ، من السورة ١٨ : الكهف .

الثاني : طائفة يأجوج ومأجوج .

الثالث : السدّ .

أمّا ذو القرنين فقد ورد ذكره في موضع واحد فقط في القرآن الكريم وذلك في سورة الكهف ، فقد ذُكرت عنه أمور عدّة :

قصّة ذي القرنين من وجهة نظر القرآن :

١ ـ إنّا مكنّا له في الأرض وسخّرنا له كل الأسباب فهي طوع أمره .

٢ ـ إنّه سخّر تلك الأسباب ، فتحرّك مرّة إلى الغرب حيث (وصل إلى آخر المعمورة جنب البحر الخضمّ المترامي فبدا له أنّ) الشمس تغرب في عين حمئة ،[١] ووجد هناك قوماً . فقلنا له : إنّ لك أن تختار في وضعك هذا إمّا أن تعذّبهم وتعاقبهم جزاءً على ما فعلوا ، أو أن تتّخذ فيهم إحساناً . فقال لهم ذو القرنين : من ظلم فإنّنا سنعذّبه في هذه الدنيا سريعاً ، ثمّ يُرَدّ إلى ربّه فيعذّبه عذاباً غير معهود ولا مألوف ولا متوقّع . وأمّا من عمل صالحاً فإنّ جزاءه وثوابه سيكون الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يُسرا .

٣ ـ ثمّ استفاد من تلك الأسباب وتحرّك صوب الشرق حتّى وصل إلى قوم يعيشون في صحراء تطلع عليهم الشمس فيها فلا ستر لهم دونها ، عرايا لا لباس لهم ولا ستر .

٤ ـ ثمّ استفاد من تلك الأسباب وتحرّك حتّى وصل بين السدّين فوجد هناك قوماً ليس لهم نصيب من التمدّن والإنسانيّة ولا يفقهون ولا يعقلون

---

١ ـ قال صاحب «الميزان» قدّس سرّه : المراد بالعين البحر ... والمراد بوجدان الشمس تغرب في عين حمئة أي تقف على ساحل بحر لا مطمع في وجود برّ وراءه ، فرأى الشمس كأنّها تغرب في البحر لمكان انطباق الأُفق عليه . (م)

قولاً . فقال أُولئك القوم لذي القرنين : إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، أفترضى أن نعطيك خرجاً على أن تبني بيننا وبينهم سدّاً .

فقال : إنّ ما مكّنني منه ربّي من الأموال والعدّة خيرٌ وأفضل من خرجكم ، فأعينوني لأصنع لكم سدّاً متيناً راسخاً . اجلبوا لي قطع الحديد الكبيرة وأرصفوها بين هذين الجبلين لتسدّ هذه الفتحة والفرجة بين قمّتيهما ، فلمّا فعلوا ذلك قال : فانفخوا الآن بمنافخ الحديد ، لتحمرّ قطع الحديد وتتوهّج ، ثمّ قال لهم : أذيبوا قطع النحاس وصبّوها في مسامات قطع الحديد وفراغاته ، لتمتلئ تلك الثقوب وليتشكّل منها سدّ محكم واحد يسدّ بين ذينك الجبلين . فما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يعلوا ذلك السدّ بعد ذلك فيؤذوا أُولئك القوم ، ولا أن ينقبوا ذلك السدّ ليمكنهم التردّد من خلاله .

وآنذاك قال لهم ذو القرنين : هذه رحمة من ربّي منّ بها عليّ فاستطعتُ صنع سدّ كهذا لكم ، أمّا حين يأتي وعد ربّي للقيامة ، فإنّ هذا السدّ سيندكّ ويتلاشى .

كان هذا ما جاء في القرآن الكريم بشأن ذي القرنين

من هو ذو القرنين وما أصله ؟

أمّا مَن هو ذو القرنين ، وهل جاء له ذكر في الكتب السماويّة الأُخرى أو في التأريخ ؟

هناك احتمالات كثيرة ، وللمؤرّخين والمفسّرين أبحاث طويلة في هذا الشأن ، فقد بذلوا قصارى جهدهم واستعانوا بالروايات التي جاءت في شأن ذي القرنين ، فقام كلٌّ منهم بتفسير إحدى الآيات القرآنيّة على نحوٍ ما

لنفسه ، واعتبر أنّ بعض الملوك هو الملقّب بذي القرنين ، وأنّ هذا العنوان ينطبق عليه .

وقد ذكرت بيانات مفصّلة في أمر تعيين ذي القرنين وعلّة تسميته بهذا اللقب في «مجمع البحرين» مادّة «ق رن» ، وفي المجلّد الخامس من «بحار الأنوار» في أحوال ذي القرنين .

يقول العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه [1] في تفسير هذه الآية الشريفة :

إنّ الروايات المرويّة من طرق الشيعة وأهل السنّة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ، ومن طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وكذا الأقوال المنقولة عن الصحابة والتابعين [التي] يتعامل معها أهل السنّة معاملة الأحاديث الموضوعة في قصّة ذي القرنين مختلفة اختلافاً عجيباً ، متعارضة متهافتة في جميع خصوصيّات القصّة وكافّة أطرافها ، وهي مع ذلك مشتملة على غرائب يستوحش منها الذوق السليم أو يحيلها العقل وينكرها الوجود ، لا يرتاب الباحث الناقد إذا قاس بعضها إلى بعض وتدبّر فيها ، أنّها غير سليمة عن الدسّ والوضع ومبالغات عجيبة في وصف القصّة ، وأغربها ما روي عن علماء اليهود الذين أسلموا **كوَهَب بن منبّه وكعب الأحبار** ، أو ما تُشعر القرائن أنّه مأخوذ منهم .

بيانات العلّامة الطباطبائيّ في شأن ذي القرنين :

ونذكر هنا خلاصة ما أورده في تفسير «الميزان» :

لم يتعرّض القرآن الكريم لاسم ذي القرنين ، ولا لتأريخ زمن

١ـ حافظنا على تعبير المؤلّف ، فقد أُلّف الكتاب زمن حياة العلّامة قدّس سرّه وهذا هو دأبنا في جميع فصول الكتاب . (م)

ولادته وحياته ونسبه وسائر خصوصيّاته ، على ما هو دأبه في ذكر قصص الماضين ، بل اكتفى بالتطرّق إلى ثلاث رحلات له .

والخصوصيّات والجهات الجوهريّة التي تستفاد من القصّة هي أنّ صاحبها كان يسمّى بذي القرنين قبل نزول قصّته في القرآن ، بل حتّى في زمن حياته كما يظهر من سياق القصّة القرآنيّة :

يَسْئَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ؛ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ؛ وقَالُوا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ .

وثانياً : أنّه كان مؤمناً بالله واليوم الآخر متديّنا بدين الحقّ .

وثالثاً : أنّه كان ممّن جمع الله له خير الدنيا والآخرة ، أمّا خير الدنيا فالمُلك العظيم الذي بلغ مغرب الشمس ومطلعها فلم يقم له شيء ، وقد ذلّت له الأسباب . وأمّا خير الآخرة فبسط العدل وإقامة الحقّ والصفح والعفو والرفق وكرامة النفس وبثّ الخير ، ودفع الشرّ . وكان له ـ على هذا ـ السيطرة في الجهتين الجسمانيّة والروحانيّة .

ورابعاً : أنّه صادف قوماً ظالمين بالمغرب فعذّبهم ، ثمّ إنّه سافر مرّة أُخرى فبنى في سفره سدّاً وردماً محكماً متيناً ، والسدّ الذي بناه واقع في غير المغرب والمشرق ، لأنّه بناه بعد سفره إلى المشرق والمغرب ، بعد أن تحرّك إلى أُولئك القوم البعيدين عن المدنيّة والذين بنى لهم السدّ .

ومن خصوصيّات السدّ مضافاً إلى كونه واقعاً في غير المغرب والمشرق ، أنّه واقع بين جبلين كالحائطين ، وأنّه ساوى بين صدفيهما وسدّ الثغرة بينهما ، وأنّه استعمل في بنائه زبر الحديد والقطر (النحاس) ولا محالة أنّه في مضيق يربط بين ناحيتين من نواحي الأرض المسكونة .

والخلاصة ، فلم يذكر قدماء المؤرّخين في أخبار ملكاً يسمّى في عهده بذي القرنين أو ما يؤدّي معناه من غير اللفظ العربيّ ، ولا يأجوج

ومأجوج بهذين اللفظين ولا سدّاً ينسب إليه باسمه .

نعم ، ينسب إلى بعض ملوك حِمْيَر من اليمنيّين أشعار في المباهاة والفخر يذكر فيها ذا القرنين وأنّه من أسلافه **التبابعة** ، ذكر فيها سيره إلى المغرب والمشرق وسدّ يأجوج ومأجوج .

وجاء في كتاب «كيهان شناخت» وتعريبه : «معرفة العالم» للحسن بن قطّان المروزيّ الطبيب المنجّم المتوفّى سنة ٥٤٨ ، أنّ الذي بنى السدّ هو أحد ملوك آشور واسمه «بلينس» ، وسمّاه أيضاً إسكندر .

فقد كان يهجم في حوالَى القرن السابع قبل الميلاد أقوام يسمّون عند الغربيّين باسم «سيت» وعند اليونانيّين باسم «ميكاك» ، من مضيق جبال قفقاز إلى أرمينية ثمّ غربي إيران ، وربّما بلغوا بلاد آشور وعاصمتها نينوى فيحيطون بهم قتلاً وسبياً ونهباً ، فبنى ملك آشور السدّ لصدّهم .

وقال في «روح المعاني» : وقيل هو ـ يعني ذا القرنين ـ فريدون بن أثفيان بن جمشيد خامس ملوك الفرس الفيشداديّة ، وكان ملكاً عادلاً مطيعاً للّه تعالى . وفي كتاب «صور الأقاليم» لأبي زيد البلخيّ أنّه كان مؤيّداً بالوحي ، وفيه أنّ التأريخ لا يعترف بذلك .

وقيل إنّ ذا القرنين هو الإسكندر المقدونيّ وإنّه هو الذي بنى السدّ ، وهو المشهور على الألسن ، وسدّ الإسكندر كالمثل السائر بينهم .

وقد ورد ذلك في الروايات كما في رواية «قرب الإسناد» عن موسى بن جعفر عليهما السلام ، ورواية **عقبة بن عامر ووهب بن منبّه** عن رسول الله صلّى الله عليه وآله .

وبه قال بعض قدماء المفسّرين من الصحابة والتابعين ، كمعاذ بن جبل على ما في «مجمع البيان» وقتادة على ما رواه في «الدرّ المنثور» ،

وعلى هذا الرأي الشيخ ابن سينا حيث تحدّث عن أرسطو أُستاذ الإسكندر في كتابه «الشفاء» فوصفه بذي القرنين، وأصرّ على ذلك الإمام الفخر الرازيّ في تفسيره الكبير.

لكنّ هذا المعنى لا ينسجم مع تعبير القرآن، لأنّ القرآن ذكر أوّلاً أنّ ذا القرنين كان مؤمناً بالله واليوم الآخر، وعلى دين التوحيد، بينما نعلم أنّ الإسكندر كان مشركاً وثنيّاً وصابئيّاً؛ وجاء في التأريخ أنّه كان يقدّم قرابينه إلى جِرَم «المشتري».

وثانياً: فقد عدّ القرآن ذا القرنين من عباد الله الصالحين من ذوي العدل والرفق، بينما يبيّن لنا التأريخ خلاف ذلك عن الإسكندر.

وثالثاً: أنّه لم يرد في شيء من التواريخ أنّ **الإسكندر المقدونيّ** بنى سدّ يأجوج ومأجوج.

وذكر جمع من المؤرّخين، كالأصمعيّ في «تاريخ العرب قبل الإسلام»، وابن هشام في «السيرة» و«تيجان الملوك»، وأبي ريحان البيرونيّ في «الآثار الباقية»، ونشوان بن سعيد الحِميَريّ في «شمس العلوم» أنّ ذا القرنين أحد الملوك التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حِمير.

وقد بحث المقريزيّ في «الخطط» هذا الموضوع مفصّلاً، ويُستفاد من مجموع كلامه أوّلاً: أنّ لقب ذي القرنين تَسَمَّى به أكثر من واحد من ملوك حِميَر.

وثانياً: أنّ ذا القرنين الأوّل وهو الذي بنى سدّ يأجوج ومأجوج كان قبل الإسكندر المقدونيّ بقرون كثيرة.

بَيدَ أنّ هناك إشكالين في كلامه: أحدهما: أين موضع هذا السدّ الذي بناه تبّع الحِميَريّ؟

وثانيهما : من هم هؤلاء المفسدون ـ أي يأجوج ومأجوج ـ الذين بُني هذا السدّ لصدّهم ؟

فهل هذا السدّ أحد السدود المبنيّة في اليمن أو ما والاها ، كسدّ مأرب وغيره ؟

إنّ هذا غير صحيح ، لأنّ سدّ مأرب بُني لادّخار المياه لا لصدّ الأعداء ، كما أنّه لم يستعمل في سدّ مأرب قطع الحديد والنحاس المصهور ؛ يُضاف إلى ذلك أنّ ما كان يُجاور تبّع من حمير من أمثال الأقباط والآشوريّين والكلدانيّين كانوا أهل حضارة ومدنيّة ، ولم يكونوا أقواماً متوحّشين ليحتاجوا إلى سدّ لصدّهم .

نظريّة الشهرستانيّ في ذي القرنين :

وقال العلّامة السيّد هبة الدين الشهرستانيّ في تأييد هذا القول :

إنّ ذا القرنين المذكور في القرآن قبل الإسكندر المقدونيّ بعدّة قرون ، فهو أحد الملوك الصالحين من التبابعة الأذواء من ملوك اليمن ، وكان من شيمة طائفة منهم التسمّي بذي ، كـ «**ذِي هَمْدان**» و «**ذِي غمدان**» و «**ذي المنار**» و «**ذي الأذعار**» و «**ذي يَزَن**» .

وكان مسلماً موحّداً وعادلاً حسن السيرة ، سار نحو المغرب فوصل إلى البحر الأبيض ، ثمّ سار نحو المشرق ، ثمّ مال إلى الشمال حتّى بلغ مدار السرطان ، ولعلّه الذي شاع في الألسن أنّه دخل الظلمات ، فسأله أهل تلك البلاد أن يبني لهم سدّاً فبناه لهم .

فإن كان هذا السدّ هو الحائط الكبير الحائل بين الصين ومنغوليا (طائفة المغول) ، فيجب القول إنّ ذا القرنين عمّره ورمّم فيه مواضع تهدّمت

بمرور الأيّام ، ولا إشكال في أنّ أصل الحائط إنّما بناه بعض ملوك الصين قبل ذلك التأريخ . وإن كان سدّاً آخر فلا إشكال في الأمر .

ثمّ أورد السيّد هبة الدين شاهداً لتأييد كلامه ، وهو أنّ ذا القرنين كان ملكاً عربيّاً صالحاً يسأل عنه الأعرابُ رسول الله صلّى الله عليه وآله ويذكره القرآن الكريم للتذكّر والاعتبار ، وهو أقرب لذوق العرب وسؤالهم من أن يسألوا عن ملوك الروم والعجم والصين وهم من الأُمم البعيدة التي لم يكن لهم اتّصال بتأريخ العَرب ، ولم يكن للعرب رغبة في سماع أخبارهم أو الاعتبار بآثارهم . لذا لم يتعرّض القرآن لشيءٍ من أخبار الأُمم والطوائف التي كانت بعيدة عن العرب . (انتهى كلام الشهرستانيّ ملخّصاً) .

لكنّ الإشكال الموجود على هذه النظريّة ، أنّ كون حائط الصين هو سدّ ذي القرنين لا سبيل إليه ، فإنّ ذا القرنين سبق الإسكندر بعدّة قرون ، وقد بُني حائط الصين بعد الإسكندر بما يقرب من نصف قرن . وأمّا غير الحائط الكبير ففي ناحية الشمال الغربيّ من الصين بعض السدود الأُخرى ، لكنّها مبنيّة بالحجارة ولا أثر فيها من الحديد والنحاس .

وقال في «تفسير الجواهر» إنّ المعروف من دول اليمن بمعونة من النقوش المكتشفة في خرائب اليمن ثلاث دول :

١ ـ **دولة معين** وعاصمتها **قَرْناء** ، وزمن حكمها من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن السابع أو الثامن قبله .

٢ ـ **دولة سبأ** وهم من **القحطانيّين** ، ويبتدئ ملكهم من ٨٥٠ قبل الميلاد إلى ١١٥ قبل الميلاد .

٣ ـ **دولة الحِمْيَرِيِّينَ** ، وهم طبقتان :

الأُولى : **ملوك سبأ وريدان** ، من سنة ١١٥ قبل الميلاد إلى سنة ٢٧٥ ميلاديّة .

والثانية : **ملوك سبأ وريدان وحضرموت** وغيرها ، ويبتدئ ملكهم من سنة ٢٧٥ ميلاديّة إلى سنة ٥٢٥ ميلاديّة .

ويُستفاد ممّا ذكر أنّ صفة الاتّصاف بلقب «ذي» مثل ذي القرنين عائدة إلى ملوك اليمن ، بينما لا نجد في غيرهم كملوك الروم من يلقّب بـ «ذي» . فذو القرنين ـ إذَن ـ من ملوك اليمن ، وقد ذكر التأريخ بعض الملوك باسم ذي القرنين ، ولكن هل هو ذو القرنين المذكور في القرآن ؟

نقول في الإجابة :كلّا ، لأنّ ذا القرنين هذا مذكور في ملوكٍ قريبي العهد إلى زمان رسول الله والقرآن ، ولم يرد في التأريخ ذكر لسدٍّ بهذه المواصفات ولا ذكر لأسفاره .

وقد كذّب ابن خلدون جميع هذه الأخبار الواردة في شأن ذي القرنين ووسمها بأنّها مُبالَغ فيها ، ونقضها بأدلّة جغرافيّة وأُخرى تأريخيّة . (انتهى ما أورده في «الجواهر») .

وأخيراً فقد قال السير أحمد خان الهنديّ : إنّ ذا القرنين هو كورش أحد ملوك الفرس الهخامنشيّين ، وتأريخه من ٥٦٠ قبل الميلاد إلى ٥٣٩ قبل الميلاد ، وهو الذي أسّس الإمبراطوريّة الإيرانيّة ، وجمع بين مملكتي **فارس وماد** ، وسخّر **بابل** ، وأذن في رجوع اليهود من بابل إلى أُورشليم ، وساعد في بناء الهيكل ، وسخّر مصر واليونان وبلغ المغرب ، ثمّ سار إلى أقاصي المعمورة .

نظريّة أبي الكلام آزاد في شأن ذي القرنين :

وقد أيّد هذا المدّعى المحقّق الخبير الباحث أبو الكلام آزاد ، وبذل الجهد في إيضاحه وتقريبه .[1]

فأوّلاً أنّ الذي ذكره القرآن من وصف ذي القرنين منطبق على هذا الملك العظيم ، فقد كان مؤمناً بالله بدين التوحيد ، عادلاً في رعيّته سائراً بالرأفة والرفق والإحسان ، سائساً لأهل الظلم والعدوان ، وقد آتاه الله من كلّ شيء سبباً ، فجمع بين كمالات الدين والعقل وفضائل الأخلاق والعدّة والقوّة والثروة والشوكة ومطاوعة الأسباب .

وقد سار ـ كما ذكر الله في كتابه ـ مرّة نحو المغرب حتّى استولى على ليديا وحواليها ، ثمّ سار ثانياً نحو المشرق حتّى بلغ مطلع الشمس ووجد عندها قوماً بدويّين همجيّين يسكنون في البراري ، ثمّ بنى السدّ وهو على ما تدلّ عليه الشواهد ، السدّ المعمول في مضيق داريال بين جبال قفقاز بقرب مدينة تفليس .

أمّا إيمانه بالله واليوم الآخر ، فيدلّ على ذلك ما في كتب العهد العتيق ككتاب عزرا و«الإصحاح ١» وكتاب دانيال «الإصحاح ٦» وكتاب أشعياء «الإصحاح ٤٤ و ٤٥» .

ولو قطع النظر عن كونه وحياً ، فاليهود على ما بهم من العصبيّة المذهبيّة لا يعدّون رجلاً مشركاً مجوسيّا أو وثنيّاً ـ لو كان كورش كذلك ـ مسيحاً إلهيّاً مهديّا مؤيّداً وراعياً للربّ .

على أنّ النقوش والكتابات بالخطّ المسماريّ المأثور عن داريوش الأكبر ، وبينها وبين كورش من الفصل الزمانيّ ثمانين سنة ، ناطقة بكونه

---

١ ـ نشرة «ثقافة الهند» العددان الأوّل والثاني .

موحّداً غير مشرك ، وليس من المعقول أن يتغيّر ماكان عليه كورش في هذا الزمن القصير .

وأمّا فضائله النفسانيّة فيكفي في ذلك الرجوع إلى المحفوظ من أخباره وسيرته وما قابل به الطغاة والجبابرة الذين خرجوا عليه أو حاربهم كملوك **ماد** و**ليديا** و**بابل** و**مصر** وطغاة البدو في أطراف **بَكْتريا** وهو «بلخ» ، فقد كان كلّما ظهر على قومٍ عفا عن مجرميهم وأكرم كريمهم ورحم ضعيفهم ، وساس مفسدهم وخائنهم .

وقد أثنت عليه كتب العهد القديم ، واليهود يحترمونه أعظم الاحترام لما نجّاهم من أسر بابل على يد بخت نَصّر (بنوكد نصر) الذي خرّب معبدهم ، وأرجعهم إلى بلادهم ، وبذل لهم الأموال لتجديد بناء **الهيكل** ، وردّ إليهم نفائس الهيكل المنهوبة المخزونة في خزائن ملوك بابل .

وهذا في نفسه مؤيّد وشاهد آخر على كون ذي القرنين هو كورش ، فإنّ السؤال عن ذي القرنين في القرآن الكريم إنّما كان بتلقين من اليهود على ما في الروايات . وقد وردت كلمة قَرْن في اللغة العبريّة والعربيّة بمعنىً واحد .

وقد ذكره مؤرّخو اليونان القدماء ، كهيرودوت وغيره ، فلم يسعهم ـ مع عدائهم لإيران وملوكها ـ إلّا أن يصفوه بالمروءة والفتوّة والسماحة والكرم والصفح وقلّة الحرص ، والرحمة والرأفة ، ويثنوا عليه بأحسن الثناء .

وأمّا تسمية كورش بذي القرنين ، فالتواريخ وإن كانت خالية عمّا يدلّ على شيء من ذلك ، لكنّ اكتشاف تمثاله الحجريّ أخيراً في «مشهد مرغاب» في جنوب إيران يزيل الريب في اتّصافه بذي القرنين . وهذا

التمثال ـ تبعاً لقول «دي لافواي» ـ نموذج ثمين وقيّم للنحت القديم ، فهو مماثل لأفضل التماثيل اليونانيّة والنموذج الأوحد للفنون الآسيويّة . وقد صنع هذا التمثال ونصب في «عصر أردشير» ، وقد قدم العلماء الألمان إلى إيران لمجرّد التفرّج عليه . وكان اكتشافه في القرن التاسع عشر الميلاديّ في «مرغاب» .

وهذا التمثال بقدر قامة الإنسان ، ويمثّل «كورش» في وضع وقد بسط في جانبيه جناحا نسر ، وله فوق رأسه قرنان كقرني الكبش لا يقعان على جانبي رأسه ، بل يقعان في وسط الرأس ، وأحد القرنين يقع خلف الآخر ، مرتدياً الملابس التي يرتديها ملوك بابل .

وهذا التمثال يثبت بلا ريب وجود تصوّر معنى ذي القرنين عند «كورش» وفي تفكيره ، لذا فقد مُثل فيه ذا قرنين نابتين من أُمّ رأسه من منبت واحد ، وأحد القرنين مائل إلى الأمام والآخر إلى الخلف .[1]

والخلاصة فإنّ معنى القرنين الموجودين في تمثال كورش وتلقيبه بذي القرنين هو تشكيل دولة واحدة من فارس وماد اللتين كانتا إلى ذلك الوقت دولتين مستقلّتين لكلّ منهما حاكم مستقلّ ، إلّا أنّ كورش تغلّب عليهما وشكّل منهما دولة واحدة ، وهذا هو المعنى الذي ورد في رؤيا النبيّ دانيال .

١ـ أجرى العالم الجليل السيّد صدر الدين البلاغيّ بحثاً لطيفاً حول نظريّة أبي الكلام وذلك في كتاب «فرهنگ قصص قرآن» وتعريبه : «معجم قصص القرآن» من ص ٣٥٩ إلى ٣٧٤؛ وطبع في ص ٣٦٤ صورة للتمثال جديرة بالتأمّل والملاحظة . (الطبعة السادسة لدار نشر أمير كبير) .

رؤيا النبيّ دانيال بشأن ذي القرنين

جاء في كتاب دانيال (الإصحاح الثامن، من الصفحة ١ إلى ٩):

«في السنة الثالثة من مُلك «بيلشاصر» الملك ظهرت لي أنا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء. فرأيتُ في الرؤيا وكأنّ في رؤياي وأنا في «شوشن» القصر الذي في ولاية عيلام. ورأيت في الرؤيا وأنا عند نهر «أولاي» فرفعتُ عيني وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان، والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر، والأعلى طالع أخيراً. [فـ] رأيتُ الكبش ينطح غرباً وشمالاً وجنوباً فلم يقف حيوان قدّامه ولا منفذ من يده، وفعل كمرضاته وعظم.

وبينما كنت متأمّلاً إذا بتيس من المعز جاء من المغرب على وجه كلّ الأرض ولم يمسّ الأرض، وللتيس قرن معتبر بين عينيه، وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذي رأيته واقفاً عند النهر وركض إليه بشدّة قوّته ورأيته قد وصل إلى جانب الكبش فاستشاط عليه وضرب الكبش وكسر قرنيه فلم تكن للكبش قوّة على الوقوف أمامه، وطرحه على الأرض وداسه ولم يكن للكبش منفذ من يده، فتعظّم تيس المعز جدّاً».

ثمّ ذكر بعد تمام الرؤيا أنّ جبرئيل تراءى له وفسّر رؤياه بما ينطبق فيه الكبش ذو القرنين على كورش وقرناه مملكتا فارس وماد، والتيس ذو القرن الواحد على الإسكندر المقدونيّ.

وجاء في رؤيا دانيال أنّ الكبش الذي شاهده كان له قرنان، إلّا أنّهما ليسا كقرون سائر الأكباش، بل كان أحد القرنين خلف الآخر، وهذا المعنى نفسه هو المعنى المشاهد في التمثال الأثريّ لكورش.

أمّا ذينك الجناحان اللذان يشبهان جناحي نسر في تمثال كورش

فهما صورة لرؤيا أشعياء الذي عبّر عن رؤيا نسر الشرق بكورش .

ولهذا السبب فقد اشتهر تمثال كورش بـ «مرغ» يعني «الطائر» ، كما أنّ النهر المصوّر عند قدمي كورش في التمثال يدعى «مرغاب» يعني «نهر الطائر» .

وقد فهم اليهود من بشارة دانيال أنّ انتهاء أسرهم في بابل منوط بذلك الملك صاحب القرنين الذي سيستولي على مملكة فارس وماد ويتغلّب على ملوك بابل ، فيخرجهم في النهاية من الأسر .

ثمّ إنّ كورش ظهر بعد رؤيا دانيال بعدّة سنوات ، وكان اليهود يدعونه بـ «خورش» بينما كان اليونانيّون يدعونه بـ «سائوس» ، فاستولى على مملكة فارس وماد فظهرت دولة عظيمة ، وكما جاء في رؤيا دانيال من نطح المغرب والشمال والجنوب ، فقد استولى كورش على فارس وماد وتقدّم إلى الجنوب أي إلى بابل وحرّر اليهود ، لذا فقد اجتمع اليهود بكورش في بابل بعد استيلائه عليها وقصّوا له رؤيا دانيال ففرح بذلك وعزم على مساعدة اليهود والإحسان إليهم ، فأعادهم إلى أُورشليم وأعاد تعمير معبدهم .

والخلاصة ، فإنّ هذه بأجمعها شواهد صدق على أنّ كورش هو الآخر كان يعتبر نفسه ذا القرنين ، أي صاحب دولتي فارس وماد اللتين ظهرتا في الرؤيا في هيئة قرنين متّصلين ببعضهما نميا من على أُمّ رأسه . لذا فقد كان يضع على تاجه أو قلنسوته هذين القرنين علامة لهاتين الدولتين ، وانعكس ذلك أيضاً في تمثاله .

وأمّا سيره نحو المغرب فقد كان لدفع طاغية لديا الذي كان قد سار بجيوشه نحو كورش ظلماً وعدواناً برغم قرابته من كورش والمعاهدة التي

كانت بينهما ، وكان ـ إضافة إلى ذلك ـ يُثير عليه سلاطين أُوروبّا ، فسار إليه كورش وحاربه وهزمه ، ثمّ تعقّبه حتّى حاصره في عاصمة ملكه ثمّ فتحها وأسره ، ثمّ عفا عنه وعن سائر أعضاده وأكرمه وإيّاهم وأحسن إليهم ، وكان له أن يسوسهم ويُبيدهم . وهذه القصّة تنطبق على قوله تعالى :

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ (ولعلّها الساحل الغربيّ من آسيا الصغرى) **وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** .[1]

لقد قلنا لذي القرنين إنّ لك الخيرة في هؤلاء الذين ظلموا فوقعوا في يدك ، إمّا أن تعذّبهم جزاءً لما فعلوا ، أو أن تعفو عنهم وتُحسن إليهم .

فقال ذو القرنين : سأُعاقب الذين يظلمون بعد الآن ، أمّا الذين يؤمنون ويعملون صالحاً ، فإنّي سأُحسن إليهم إضافة إلى الثواب الأُخرويّ الذي سينالونه .

ثمّ إنّه بعد سفره إلى المغرب سار نحو الصحراء الكبيرة في المشرق حوالى «بكتريا» لإخماد غائلة قبائل بدويّة همجيّة انتهضوا هناك للمهاجمة والفساد .

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا .

وأمّا طائفة يأجوج ومأجوج فقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في موردين :

الأوّل : في سورة الكهف ، حيث يبيّن قصّة ذي القرنين ، وقد مرّ شرح ذلك .

١ـ الآية ٨٦ ، من السورة ١٨ : الكهف .

الثاني : في سورة الأنبياء :

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ .[1]

وقد ورد ذكر هاتين الطائفتين في مواضع من كتب العهد القديم ، وذكروا في التوراة باسم يأجوج ومأجوج .

وقد ورد في الإصحاح العاشر من سفر التكوين وكتاب حزقيال الإصحاح ٢٨ والإصحاح ٣٩ ، وفي رؤيا يوحنّا في الإصحاح ٢٠ مطالب تدلّ على أنّ «مأجوج» أو «جوج ومأجوج» كانوا أُمّة أو أُمماً تقطن الأراضي المعمورة في شمال آسيا ، وأنّهم كانوا من أهل الحرب والقتال يشتغلون بالحرب والنهب وإثارة الفتن .

ومن هنا فيبدو أنّ كلمة **يأجوج ومأجوج** ليست عبريّة ، بل إنّها تسرّبت إلى العبريّة من اللغات الخارجيّة ، لأنّ هاتين الكلمتين تلفظان في اليونانيّة بلفظ «گاگ وماگاگ» وقد وردت بهذا النحو في الترجمة السبعينيّة للتوراة وفي سائر اللغات الأُوروبيّة .

ومن مسلّمات التأريخ أنّ منطقة شمال شرقيّ آسيا وبراري ومرتفعات شمال الصين كانت محلّ سكنى طوائف كبيرة من البدو والهمجيّين الذين كانت أعدادهم تتزايد باستمرار . وكانت تلك الطوائف تهاجم الأُمم التي تجاورها مثل الصينيّين ، بل ما أكثر ما عبرت الصين ووصلت إلى دول وسط آسيا والدول الغربيّة من آسيا ، ثمّ سارت من هناك إلى شمال أُوروبا ، حيث توطّن بعضهم في تلك البلاد المنهوبة كما فعل

١ـ الآيتان ٩٦ و ٩٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

أغلب سكنة أُوروبّا الشماليّة الذين اختاروا مدناً لهم هناك ، فتمدّنوا تدريجيّاً واشتغلوا بالزراعة والصناعة ، وعاد البعض الآخر بعد إغارتهم واستمرّوا في ديدنهم في الهجوم والإغارة والنهب .

وقال البعض إنّ يأجوج ومأجوج أُمّة تقطن المنطقة الشماليّة من آسيا ، ومدنهم تمتدّ من التبت والصين إلى المحيط المنجمد الشماليّ ، وتصل غرباً إلى بلاد تركستان . وقد نقل هذا القول عن «**فاكهة الخُلفاء**» و «**تهذيب الأخلاق**» لابن مسكويه ، وعن «**رسائل إخوان الصفا**» .

أمّا من جهة البحث في التطوّرات الحاكمة على اللغات فيمكن القول إنّ أصلها الصينيّ «**منگوگ**» أو «**منجوگ**» ثمّ صارت في العبريّة والعربيّة «**يأجوج ومأجوج**» ، وفي اليونانيّة «**گوك وماگوك**» ويمكن الحكم من التشابه الكامل بين «**ماگوگ**» و«**منگوگ**» أنّ هذه الكلمة متطوّرة من التلفّظ الصينيّ «**منگوگ**» ، كما اشتقّ منه «**منغول ومغول**» . **فيأجوج ومأجوج هم المغول** ، وكانت هذه الأُمّة القاطنة في الشمال الشرقيّ من آسيا من أقدم الأعصار أُمّة كبيرة مهاجمة ، تهاجم برهة الصين وبرهة من طريق داريال القفقاز إلى أرمينية وشمال إيران ، وبرهة بعد بناء السدّ إلى شمال أُوروبّا . وتسمّى عندهم بـ «سيت» . ومنهم الأُمّة الهاجمة على الروم .

وقد سقطت في هذه الكرّة دولة الرومان ؛ والرومانيون يسمّونهم «سي تهين» الذي ذكر في الواجهة المخطوطة لداريوش في اصطخر فارس .

وقد تقدّم أنّ المستفاد من كتب العهد القديم أن هذه الأُمّة المفسدة هم من سكنة أقاصي الشمال .[١]

١ـ «تفسير الميزان» ج ١٣ ، ص ٣٨٧ إلى ٤٢٦ ؛ ويقول العلّامة هنا : هذا جملة ما ⇦

أمّا أين يقع السدّ ؟ فقد ورد في تفسير «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في تفسير ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾[1] قال : الجبلين أرمينية وآذربيجان .[2]

وللعثور على هذا السدّ فإنّ علينا الالتفات إلى جهتين :

الأُولى : أنّ السدّ قد صُنع في محلّ شكّلت الجبال الواقعة في أطرافه ما يشبه الجدار العالي ، أي أنّ السدّ يقع في مضيق جبليّ .

والأُخرى : أنّ قطع الحديد والنحاس قد استعملت في بناء هذا السدّ لأنّ القرآن الكريم ذكر هذه الخصوصيّات في مواصفات السدّ .

وعليه فإنّ ما نسب إلى البعض من قولهم إنّ سدّ ذي القرنين هذا هو جدار الصين ليس صحيحاً ، فجدار الصين جدار طويل بُني بين الصين وبين منغوليا ، بناه «شين هوانغ تي» أحد ملوك الصين لصدّ هجمات المغول عن الصين ، وطول هذا الجدار ثلاثة آلاف كيلو متر وعرضه تسعة أمتار وارتفاعه خمسة عشر متراً ، وقد بُني هذا السدّ بالأحجار .

هذا وقد أقدم شين هوانغ تي حاكم الصين على البدء فيه سنة ٢٦٤ قبل ميلاد المسيح ، وانتهى العمل فيه في مدّة عشر سنين أو عشرين سنة .

ومن هنا فإنّ سدّ ذي القرنين لا يمكن أن يكون جدار الصين ، وذلك أوّلاً : لأنّه لم يرد في تأريخ الصين أنّ هذا الملك كان له سفر إلى غرب الأرض .

وثانياً : لأنّ جدار الصين لا يقع بين جبلين ، بل هو جدار بطول ثلاثة

⇐ لخّصناه من كلامه ، وهو وإن لم يخل عن اعتراضٍ ما في بعض أطرافه ، لكنّه أوضح انطباقاً على الآيات وأقرب إلى القبول من غيره .

١ـ الآية ٩٣ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ـ «تفسير الميزان» ج ١٣ ، ص ٤٠٦ .

آلاف كيلو متر يمرّ في مسيره من الجبال والصحارى .

وثالثاً : أنّه مصنوع من الصخر ولم يُستعمل في بنائه أيّ حديد أو نحاس .[١]

وقال البعض : إنّه **حائط دربند** الذي سُمّي في العربيّة بـ «**باب الأبواب**» . وقد اختار **البيضاويّ** في تفسيره هذا القول ، فيقول : إنّ أنوشيروان قد أعاد تعميره وترميمه ، لكنّ أصل بنائه كان على يد ذي القرنين .

وباب الأبواب حائط طويل وعال بُني على ساحل بحر الخزر في جوار سدّ مضيق داريال ؛ وهذا القول غير صحيح لأنّ أيّاً من الأوصاف التي ذكرها القرآن لسدّ ذي القرنين لا توجد فيه . وقد وقع بعض المؤرّخين المعاصرين في هذا الخطأ فتصوّر أنّ حائط دربند هو سدّ ذي القرنين ، وقد ثبت عند المؤرّخين المسلمين أنّ أصل حائط دربند قد بني في زمن الساسانيّين بأمر أنوشيروان ، ولا معنى لأن يكون يوسف اليهوديّ الرحّالة الإسرائيليّ المعروف الذي كان يعيش قبل أنوشيروان بقرون قد شاهده ، لأنّ من المسلّم أنّ هذا الرحّالة قد شاهد ذا القرنين في أسفاره وذكر خصائصه وصفاته .

ومن ثمّ فإنّ سدّ ذي القرنين هذا هو السدّ الموجود في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر إلى البحر الأسود ، ويسمّى المضيق «**داريال**» (**وداريال** محرّف **داريول** التي تعني بالتركيّة المضيق ، ويدعى هذا السدّ باللغة المحلّيّة **دمير قاپو** بمعنى البوّابة الحديديّة) .

ويقع هذا المضيق بين بلدة «**تفليس**» وبين «**ولادي كيوكز**» ، وهذا

---

١ ـ «الميزان» ج ١٣ ، ص ٤١١ .

السدّ واقع في مضيق بين جبلين شاهقين يمتدّان من جانبيه ، وهو وحده الفتحة الرابطة بين تلك السلسلة الجبليّة .

كما أنّ هذا المضيق هو الرابط الوحيد بين النواحي الشماليّة والنواحي الجنوبيّة ، لأنّ تلك السلسلة الجبليّة بين بحر الخزر والبحر الأسود هي نفسها مانع وحاجز طبيعيّ يمتدّ آلاف الكيلو مترات ويفصل الجنوب عن الشمال .

وكان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقيّ من آسيا من مضيق جبال قفقاز إلى ما يواليها من الجنوب فيُغيرون على ما دونها من أرمينية ثمّ إيران حتّى آشور وكلدة ، فلا يتورّعون في هجماتهم عن ارتكاب القتل والسبي والنهب ، وقد هجموا مرّة في حوالي القرن السابع قبل الميلاد حتّى بلغوا نينوى عاصمة آشور ، وكان ذلك في القرن السابق على عهد كورش .

وقد ذكر المؤرّخون اليونانيّون مثل **هيرودوت** سير كورش إلى شمال إيران لإخماد نوائر فتن اشتعلت هناك ، والظاهر أنّه بنى السدّ في مضيق داريال في مسيره هذا بطلب من أهل الشمال وتظلّم منهم ، وقد بناه بالحجارة والحديد ، وهو السدّ الوحيد المتين الذي استعمل فيه الحديد ، وهو ذلك السدّ الواقع بين جبلين الذي ينطبق عليه قوله تعالى :

فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ .

وممّا أيّد هذا المدّعى وجود نهر بالقرب منه يسمّى «سايروس» وهو اسم كورش عند الغربيّين ، كما أنّ هذا الحائط يُسمّى في الآثار التاريخيّة القديمة للأرمن «هاك كورائى» ومعنى هذا اللفظ مضيق كورش أو ممرّ كورش . ومن الجليّ أنّ كتابات الأرمن في هذا الموضوع ـ بناء على

قربهم من أرمينية ووجود المضيق ـ تعدّ بمنزلة شهادة محلّيّة .

وكما قلنا فإنّ يوسف اليهوديّ قد شاهده ، ثمّ شاهده بعده المؤرّخ المعروف **بروكوبيس** في القرن السادس الميلاديّ وكتب عنه شرحاً .[1]

وإلى هنا ينتهي بحثنا عن ذي القرنين ويأجوج ومأجوج وبناء السدّ ، وعلينا الآن أن نرى ما معنى الدكّ الذي ورد في القرآن الكريم فعدّ دكّ سدّ ذي القرنين من علامات القيامة .

كما أنّ انفتاح السبيل ليأجوج ومأجوج ليتدفّقوا من كلّ صوب وحدب إلى البلاد والمدن قد عدّ من تلك العلامات ، وانكسار السدّ وتدفّقهم من ملاحم القرآن وأخباره الغيبيّة .

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ .[2]

يقول العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه : أمعن أهل التفسير والمؤرّخون في البحث حول القصّة (قصّة يأجوج ومأجوج) ، وأشبعوا الكلام في أطرافها ، وأكثرهم على أنّ يأجوج ومأجوج أُمّة كبيرة في شمال آسيا ، وقد طبّق جمع منهم ما أخبر به القرآن من خروجهم في آخر الزمان وإفسادهم في الأرض على هجوم التتر في النصف الأوّل من القرن السابع الهجريّ على غربي آسيا ، وإفراطهم في إهلاك الحرث والنسل بهدم البلاد وإبادة النفوس ونهب الأموال وفجائع لم يسبقهم إليها سابق .

وقد أخضعوا أوّلاً الصين ثمّ زحفوا إلى تركستان وإيران والعراق

---

١ ـ «الميزان» ج ١٣ ، ص ٤٢٥ ، نقلاً عن كلام أبي الكلام آزاد .

٢ ـ الآيتان ٩٦ و ٩٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

والشام وقفقاز إلى آسيا الصغرى ، وأفنوا كلّ ما قاومهم من المدن والبلاد والحصون ، كسمرقند وبخارا وخوارزم ومرو ونيسابور والري وغيرها فكانت المدينة من المدن تصبح وفيها مئات الأُلوف من الناس ، وتُمسي ولم يبقَ من عامّة أهلها نافخ نار ، ولا من هامة ، أبنيتها حجر على حجر .

ثمّ رجعوا إلى بلادهم ثمّ عادوا وحملوا على الروس ودمرّوا أهل بولونيا وبلاد المجر ، وحملوا على الروم وألجأوهم على الجزية ،كلّ ذلك في فجائع يطول شرحها .

لكنّهم أهملوا البحث عن أمر السدّ من جهة خروجهم منه وحلّ مشكلته ، فإنّ قوله تعالى :

فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ [1] الآيات ، ظاهرة على ما فسّروه أنّ هذه الأُمّة المفسدة محبوسون فيما وراءه لا مخرج لهم إلى سائر الأرض ما دام معموراً قائماً على ساقه ، حتّى إذا جاء وعد الله سبحانه جعله دكّاء مثلّماً أو منهدماً فخرجوا منه إلى الناس وساروا بالفساد والشرّ .

فكان عليهم (أي على الباحثين والمؤرّخين) على هذا أن يقرّروا للسدّ وصفه هذا ، فإن كانت الأُمّة المذكورة هي التتر وقد ساروا من شمال الصين إلى إيران والعراق والشام وقفقاز إلى آسيا الصغرى ، فأين كان هذا السدّ الموصوف في القرآن الذي وطؤوه ثمّ طلعوا منه إلى هذه البلاد وجعلوا عاليها سافلها ؟ (فإن كان المراد بيأجوج ومأجوج المغول والتتر فإنّ هذا الإشكال باقٍ في محلّه) وإن لم يكن (يأجوج ومأجوج) هي التتر أو

١ـ الآيات ٩٧ إلى ٩٩ ، من السورة ١٨ : الكهف .

غيرها من الأُمم المهاجمة في طول التأريخ ، فأين هذا السدّ المشيّد بالحديد ومن صفته أنّه يحبس أُمّة كبيرة منذ أُلوف من السنين من أن تهجم على سائر أقطار الأرض ولا مخرج لهم إلى سائر الدنيا دون السدّ المضروب دونهم ، وقد ارتبطت اليوم بقاع الأرض بعضها ببعض بالخطوط البرّيّة والبحريّة والجوّيّة وليس يحجز حاجز طبيعيّ كجبل أو بحر ، أو صناعيّ كسدّ أو سور أو خندق أُمّة من أُمّة ، فأيّ معنى لانصداد قوم عن الدنيا بسدّ بين جبلين بأيّ وصف وُصف وعلى أيّ نحوٍ فُرض ؟

والذي أرى في دفع هذا الإشكال ـ والله أعلم ـ أن قوله : **دكّاء** من **الدكّ** بمعنى الذلّة ، قال في «لسان العرب» : وجبل دكّ : ذليل ـ انتهى .

والمراد بجعل السدّ دكّاء جعله ذليلاً لا يعبؤ بأمره ولا ينتفع به من جهة اتّساع طرق الارتباط وتنوّع وسائل الحركة والانتقال برّاً وبحراً وجوّاً . فحقيقة هذا الوعد (بجعل السدّ دكّاء) هو الوعد بِرُقِيِّ المجتمع البشريّ في مدنيّته ، واقتراب شتّى أُممه إلى حيث لا يسدّه سدّ ولا يحوطه حائط عن الانتقال من أي صقع من أصقاع الأرض إلى غيره ، ولا يمنعه من الهجوم والزحف إلى أيّ قومٍ شاءوا .

ويؤيّد هذا المعنى سياق قوله تعالى في موضع آخر يذكر فيه هجوم يأجوج ومأجوج : **حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ** حيث عبّر بفتح يأجوج ومأجوج ولم يذكر السدّ .

وللدكّ معنى آخر وهو الدفن بالتراب ، ففي «صحاح اللغة» : **دَكَكْتُ الرَّكِيّ** ـ وهو البئر ـ دفنتُه بالتراب ـ انتهى . ومعنى آخر وهو صيرورة الجبل رابية من طين . قال في «الصحاح» : **وتَدَكْدَكَتِ الْجِبَالُ أَيْ صَارَتْ رَابِيَةً مِن طِينٍ وَاحِدَتُهَا دَكَّاءُ** ـ انتهى .

فمن الممكن أن يحتمل أنّ السدّ من جملة أبنية العهود القديمة التي ذهبت مدفونة تحت التراب عن رياح عاصفة أو غريقة بانتقال البحار أو اتّساع بعضها على ما تثبتها الأبحاث الجيولوجيّة ، وبذلك يندفع الإشكال لكنّ الوجه السابق أوجه .[1]

وكلام العلّامة الطباطبائيّ هذا ناظر إلى أبحاث أبي الكلام والسير أحمد خان اللذين أشارا بتحقيقهما في أمر السدّ من خلال الشواهد التأريخيّة والقرآنيّة والآثار القديمة أنّ باني السدّ هوكورش ، إلّا أنّهما ـ مع ذلك كلّه ـ لم يحلّا مشكلة اندكاك السدّ الذي يعدّ من علامات القيامة ، وقد حللناها بفضل الله تعالى بهذا البيان .

لقد عُدّ أمير المؤمنين عليه السلام ذا قرني الأُمّة في الكثير من الروايات التي وردت عن طريق الشيعة والسنّة ، وهذه الروايات تصل إلى حدّ الاستفاضة إن لم نقل بوصولها حدّ التواتر .

يروي الصدوق في «إكمال الدين» بسنده المتّصل عن أبي بصير ، عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام :

قَالَ : إنَّ ذَا ٱلْقَرنَينِ لَمْ يَكُنْ نَبِيّاً ، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَبْداً صَالِحاً أَحَبَّ اللهَ فَأَحَبَّهُ اللهُ ، وَنَاصَحَ لِلّهَ فَنَاصَحَهُ اللهُ ، أَمَرَ قَوْمَهُ بِتَقْوَى اللهِ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ فَغَابَ عَنْهُمْ زَمَاناً ثُمَّ رَجَعَ إلَيْهِمْ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ الآخَرِ وَفِيكُمْ مَنْ هُوَ عَلَى سُنَّتِهِ .[2]

كما يروي بسنده المتّصل عن الأصبغ بن نباتة ، قال :

قَامَ ابْنُ الْكَوَّا إلَى أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ

١ـ «الميزان» ج ١٣ ، ص ٤٢٦ إلى ٤٢٨ .

٢ـ «إكمال الدين» الطبعة الحجريّة ، الباب ٤٠ ، ص ٢٢٠ .

عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أَخْبِرْنِي عَنْ ذِي الْقَرْنِينِ أَنَبِيٌّ كَانَ أَوْ مَلِكٌ ؟ وَأَخْبِرْنِي عَنْ قَرْنَيْهِ أَذَهَبٌ كَانَ أَوْ فِضَّةٌ ؟

فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَمْ يَكُنْ نَبِيّاً وَلَا مَلِكاً وَلَا قَرْنَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ عَبْداً أَحَبَّ اللَهَ فَأَحَبَّهُ اللَهُ وَنَصَحَ لِلَّهِ فَنَصَحَهُ اللَهُ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ فَغَابَ عَنْهُمْ حِيناً ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمْ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ الْآخَرِ ؛ وَفِيكُمْ مِثْلُهُ .[1]

والمراد بذلك نفسه الشريفة حين ضربه عَمرو بن وُدّ بالسيف على رأسه ، ثمّ إنّه سيُضرب مرّة أُخرى ، إذ سيضربه ابن ملجم المراديّ على قرنه بالسيف ، وهذا من ملاحمه صلوات الله عليه .

وقد روي هذا الحديث في تفسير «البرهان» عن الصدوق بنفس السند ، وفي «علل الشرايع» أيضاً بهذا السند ، وفي «تفسير عليّ بن إبراهيم» دون ذكر السند ؛[2] كما أورده في كتاب «الغارات» ضمن حديث طويل يسأل فيه ابن الكوّا أمير المؤمنين عليه السلام ؛[3] ونقله عن «الغارات» المجلسيّ في «بحار الأنوار» المجلّد الرابع ، باب «ما تفضّل عليّ عليه السلام به على الناس» ص ١٢٠ ، س ١٩ ، كما نقله عنه حسن بن سليمان الحلّيّ تلميذ الشهيد الأوّل في كتاب «مختصر البصائر» ص ٢٠٤ ؛ وأورده كذلك في «البحار» المجلّد ١٣ ، باب الرجعة ، ص ٢٢٧ ، س ٢١ .[4]

ويقول في هامش ص ٣١ من كتاب «الغارات» : أورد هذا الحديث

١ـ «إكمال الدين» الطبعة الحجريّة ، الباب ٤٠ ، ص ٢٢٠ .

٢ـ «تفسير البرهان» ج ٢ ، ص ٦٤١ ، الطبعة الحجريّة ؛ و «علل الشرايع» ص ٤٠ و ٤١ ؛ و «تفسير القمّيّ» ص ٤٠٢ .

٣ـ «الغارات» ج ١ ، ص ١٨٢ .

٤ـ «الغارات» ج ١ ، التعليقة الأُولى من ص ١٨٢ .

ابن عساكر في تأريخه ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ بأدنى اختلاف في اللفظ ؛ والمجلسيّ رحمة الله عليه في «بحار الأنوار» المجلّد ١٥ ، عن عليّ بن إبراهيم ، بسنده عن أبي بصير ، عن الإمام الصادق عليه السلام . كما أورد محمّد بن عليّ بن شهرآشوب في كتاب «المناقب» فصل «أنّ أمير المؤمنين الشاهد والمشهود وذو القرنين» ، الجزء الثالث من طبعة بمبي ، ص ٦٣ ، عن كتاب أبي عبيد «غريب الحديث» أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال لأمير المؤمنين عليه السلام :

إنَّ لَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ ؛ وَإنَّكَ لَذو قَرْنَيْهَا .

وجاء في الحديث أنّ سُوَيد بن غَفَلة وأبا الطفيل رويا عن أمير المؤمنين عليه السلام هذه الرواية التي أوردناها عن ابن الكوّا بأدنى اختلاف في اللفظ . وأورد هذه الرواية محمّد بن مسعود العيّاشيّ في تفسيره ، في تفسير آية : **يَسْئَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ** ؛ ورواها أحمد بن أبي طالب في كتاب «الاحتجاج» .

يقول أبو عبيد القاسم بن سلام الهرويّ المتوفّى سنة ٢٢٤ هجريّة في كتاب «غريب الحديث» : قد كان بعضُ أهلِ العلم يتأوّل هذا الحديث [أي قول رسول الله : ذُو قَرْنَيْهَا] أنّه ذو قرني الجنّة ، يريدُ طرفيها ، وإنّما تأوّل ذلك لذكره الجنّة في أوّل الحديث [فأرجعوا الضمير في «ذو قرنيها» إلى الجنّة] ، وأمّا أنا فلا أحسبه أراد ذلك والله أعلم ، ولكنّه أراد [بقوله : ذُو قَرْنَيْهَا] أنّك ذو قرني الأُمّة ، فأضمر الأُمّة وإن كان لم يذكرها ، وهذا سائر كثير في القرآن الكريم . ثمّ يضرب عدّة أمثلة من القرآن الكريم [1] ثمّ

١ـ كالآية الشريفة : **وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ** . وفي موضع آخر : **مَا تَرَكَ عَلَيْهَا** . حيث إنّ الضمير في كلا الموضعين يعود إلى الأرض مع ⇦

يقول :

وإنّما اخترت هذا التفسير على الأوّل لحديث عن عليٍّ نفسه هو عندي مفسّر له ولنا ، وذلك أنّه ذكر ذا القرنين فقال : **دَعَا قَوْمَهُ إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ ضَرْبَتَيْنِ ، وَفِيكُمْ مِثْلُهُ .**

ونعلم من هذا الحديث أنّه كان يعني نفسه الطاهرة ، أي أنّه يقول إنّني أدعو الناس إلى الحقّ حتّى أُضرب ضربتين وأُقتل على إثرهما .

كما أنّ الزمخشريّ في «الفائق» مادة [قَرَنَ] ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ قد أرجع الضمير إلى الأُمّة .

وأورد ابن منظور في «لسان العرب» مادّة «قرن» نظير مفاد كلام ابن الأثير ، كما ذكر الزبيديّ في «تاج العروس» هذا الحديث بعد بحث مفصّل ، وأورد تفسير أبي عبيد ؛ ثمّ يبيّن مطلباً لطيفاً عن أبي الكمال السيّد أحمد عاصم في «اقيانوس بسيط» ترجمة «القاموس المحيط» في قول رسول الله لأمير المؤمنين عليهما صلوات الله :

إنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ بَيْتاً وَإنَّكَ لَذُو قَرْنَيْهَا .[1]

ومن هنا ، وتبعاً لمفاد هذه الروايات المستفيضة ، بل المتواترة التي ذكرنا بعضها هنا ، والتي رواها الشيعة والسنّة وفسّروا ذا القرنين فيها بمعنى

⇐ أنّها لم تُذكر . وكمثل الآية الشريفة : **إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ** ، أي توارت الشمس ، مع أنّها لم تذكر . ونظير هذا كثير في كلام العامّة . وقد يقول القائل : **مَا بِهَا أَعْلَمُ مِنْ فُلَانٍ** ؛ يعني القرية والمدينة والبلدة . ونظير هذا قول حاتم طيء [من البحر الطويل] :

أَمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

أراد النفسَ فأضمرها .

١ـ خلاصة التعليقة ٣١ من تعليقات «الغارات» ج ٢ ، ص ٧٤٠ إلى ٧٤٥ .

مَن ضُرِب على قرنيه ، وعيّنوا إن مَثَله في هذه الأُمّة أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّ تطبيق الآيات الواردة في شأن ذي القرنين على كورش سيكون أمراً مُستعصياً .

ظهور الدُّخان في السَّماء

وأحد علامات القيامة : الدخان الذي يظهر في أُفق السماء ، وهذا الدخان ظاهر جليّ ، وهو علامة للعذاب :

فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ .[1]

خروج دابّة الأرض من علامات القيامة

وأحد علامات القيامة خروج دابّة الأرض :

وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ .[2]

فما المراد بدابّة الأرض في هذه الآية التي ذكرها الرسول الأكرم في هذه الرواية الشريفة ، تلك الدابّة التي هي إحدى علامات يوم القيامة ، والتي وردت أخبار كثيرة في شأنها ؟

دابّة تخرج من الأرض فتكلّم الناس ، وتَسِمُ المعاندين والمعارضين والكافرين ، وتجلو وجوه المؤمنين والملتزمين ، وتفرّق هذين الفريقين

١ـ الآيات ١٠ إلى ١٣ ، من السورة ٤٤ : الدخان .

٢ـ الآية ٨٢ ، من السورة ٢٧ : النمل .

عن بعضهما في صفّين مختلفين متميّزين ؟

هناك نكتة ما في عدم ذكر القرآن الكريم لاسمها ،كما أنّ هناك نكتة في عدم ذكر اسم عليّ عليه السلام في جميع القرآن الكريم ، مع أنّ جميع القرآن قد تحدّث عن مقامات أمير المؤمنين وصفاته وأخلاقه ، أي عن مقام الولاية . فالولاية في الباطن هي النبوّة ، والنبوّة هي ظاهر الولاية ، والقرآن الكريم كتاب النبوّة ، أي ظاهر الولاية .

الولاية هي تفسير القرآن وتأويله ، والتفسير والتأويل في الباطن ، لأنّه تأويل وتفسير بالفرض . لذا لا يمكن ـ أُصولاً ـ أن يوجد اسم عليّ في القرآن ، ومن ثمّ فقد ورد في آثار كثيرة أنّ تفسير وتأويل آيات القرآن عائد إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وإذا ما شاهدنا آيةً ما تفسّر في بعض التفاسير الواردة عن الأئمّة عليهم السلام على نحوٍ يرجع معه مفادها ومعناها إليهم ـ عليهم السلام ـ أو إلى أعدائهم ، فإنّ هذا راجع إلى تأويل القرآن لا إلى بيان الظاهر ، ولا تنافي أبداً بين هذين المقامين والمرحلتين .

ومن جملة ذلك هذه الآية الشريفة التي وردت في أخبار كثيرة نُقل معظمها في تفسير «البرهان» ذيل الآية الشريفة .

وقد روى في «مجمع البيان» عن محمّد بن كعب القرظيّ أنّ عليّاً صلوات الرحمن عليه سُئل عن المراد بهذه الدابّة ، فقال :

أَمَا وَٱللَّهِ مَا لَهَا ذَنَبٌ وَإِنَّ لَهَا لَلِحْيَة .[1]

وروى عليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره ، عن أبيه ، عن ابن أبي عُمير ، عن أبي بصير ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال :

انْتَهَى رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

١ ـ «مجمع البيان» طبعة صيدا ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ قَدْ جَمَعَ رَمْلاً وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَيْهِ ، فَحَرَّكَهُ بِرِجْلِهِ ثُمَّ قَالَ لَه : قُمْ يَا دَابَّةَ اللهِ ! فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَيُسمِّي بَعْضُنَا بَعْضاً بِهَذَا الاسْمِ ؟

فَقَالَ : لَا ، وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا لَهُ خَاصَّةً ، وَهُوَ الدَّابَّةُ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ : وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ .

ثُمَّ قَالَ : يَا عَلِيُّ ! إِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ أَخْرَجَكَ اللهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَمَعَكَ مِيْسَمٌ تَسِمُ بِهِ أَعْدَاءَكَ .

فقالَ رَجُلٌ لأبي عبدِ اللهِ (الصادق) عليه السلام : إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ هَـٰذِهِ الدَّابَّةَ إِنَّمَا تَكْلِمُهُمْ ؟

فقال أبو عبد الله عليه السلام : كلمهم اللهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، إِنَّمَا هُوَ يُكَلِّمُهُمْ مِنَ الْكَلَامِ .

والدليلُ عَلَى أَنَّ هَذَا في الرَّجْعَةِ قَوْلُهُ :

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .[1]

قال (الإمام) : الآيَاتُ أَمِيرُ الْمُؤمِنِينَ وَالأَئِمَّةُ عَلَيهِمُ السَّلَامُ .

فقال الرجلُ لأبي عبد الله عليه السلام : إِنَّ العَامَّةَ تَزْعَمُ أَنَّ قَوْلَهُ «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا» عنى به يَوْمَ الْقِيَامَةِ (لا الرجعة) .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : أَفَيَحْشُرُ اللهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً وَيَدَع البَاقِينَ ؟ لَا ، وَلَكِنَّهُ فِي الرَّجْعَةِ ، وَأَمَّا آيَةُ القِيَامَةِ فَهِيَ :

١-الآيتان ٨٣ و ٨٤، من السورة ٢٧ : النمل .

وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .[١]

يقول عليّ بن إبراهيم : وحدّثني أبي عن ابن أبي عُمير ، عن المفضّل عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال :

قال رجلٌ لعمّار بن ياسر : **يَا أَبَا اليَقْظَان ! آيةٌ فـي كـتابِ اللـهِ قَـدْ أَفْسَدَتْ قَلْبِي وَشَكَّكَتْنِي .**

قال عمّار : وأيّ آيةٍ هي ؟

قال : قولُ اللهِ : **وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ** ،[٢] الآية ؛ فأيّ دابّة هي ؟

قال عمّار : **وَاللهِ مَا أَجْلِسُ وَلَا آكُلُ ولَا أَشْرَبُ حَتَّى أُرِيكَهَا .**

فجاء عمّار مع الرجلِ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يأكلُ تمْراً وزبداً ، فقال له : **يَا أبا اليقظان هَلُمَّ !** فجلسَ عمّار وأقبل يأكُل معه ، فتعجّب الرجل منه ، فلمّا قام عمّار قالَ لَهُ الرجلُ : سُبحانَ اللهِ ! يَا أَبَا اليقظان حَلَفْتَ أَنّكَ لا تأكلُ ولا تشربُ ولا تجلسُ حتّى ترينيها ! قال عمّار : **قَدْ أَرَيْتُكَهَا إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ !**[٣]

وقد نُقلت هذه الرواية عن عليّ بـن إبـراهـيم فـي «مـجمع البـيان» وتفسير «البرهان» ،[٤] وأوردها الأخير بسنده المتّصل عن الأصبغ بن نباتة قال :

دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِالمُؤمِنِينَ عَلَيهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَأْكُلُ خُبْزاً وَخَلّاً وَزَيْتاً ،

١ـ الآية ٤٧ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ـ الآية ٨٢ ، من السورة ٢٧ : النمل .

٣ـ «تفسير عليّ بن إبراهيم» ص ٤٧٩ و ٤٨٠ .

٤ـ «مجمع البيان» ج ٤ ، ص ٢٣٤ ؛ و «تفسير البرهان» ج ٢ ، ص ٧٨١ .

فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ .

فَمَا هَذِهِ الدَّابَّةُ ؟

قَالَ : هِيَ دَابَّةٌ تَأْكُلُ خُبْزاً وَخَلّاً وَزَيْتاً .[1]

وروى أيضاً بسنده المتّصل عن رسول الله صلّى الله عليه وآله :

تَخْرُجُ دَابَّةُ الْأَرْضِ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ، تَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِعَصَا مُوسَى ، وَتَسِمُ وَجْهَ الْكَافِرِ بِخَاتَمِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]

وهذا هو مقام ظهور الولاية ، لأنّ الولاية المطلقة لأمير المؤمنين عليه السلام طبقت المُلك والملكوت ، لكنّ تلك الولاية تظهر وتبرز وتتجلّى من خفائها وكمونها بعالم الشهادة حين تتحقّق مقدّمات القيامة .

والولاية موجودة الآن أيضاً ، إلّا أنّه ليس لها ظهور لعامّة الناس ، فهي مختفية لا يحسّونها ولا يدركونها . بلى ، لها ظهور لخواصّ الناس الذين جاهدوا الجهاد الأكبر وطووا منازل الإخلاص وصاروا من عباد الله المقرّبين المخلَصين ، فأُولئك هم الذين يرون جميع حركات وسكنات العوامل تحت سيطرة الولاية وهيمنتها ؛ أمّا في الرجعة فإنّ ظهور الولاية سيكون لعموم الناس .

ولدينا في الكثير من الروايات : **عَلِيٌّ قَسِيمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَلَا يَجُوزُ أَحَدٌ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَّا وَكَتَبَ عَلِيٌّ لَهُ الْجَوَازَ .**

عليّ هو دابّة الأرض ، يجلو بعصا موسى وجوه المؤمنين فتصبح نيّرة

---

١ و ٢ ـ «تفسير البرهان» ج ٢ ، ص ٧٨١ و ٧٨٢ .

وضّاءة ، ويسم بميسمه وجوه الكفّار ، ويفصل أفراد المؤمنين عن الكافرين واحداً فواحداً ، ويميز الحقّ عن الباطل ، ويشخّص أهل الجنّة من أهل النار .

ولقد تجلّى تجلّياً بسيطاً في هذه الدنيا فحار فيه المجوسيّ والنصرانيّ واليهوديّ وبهتوا وأذعنوا لعظمته ، فقافلة الوجود سائرة لاستكشاف مقامه ومنزلته .

يقول جُبران خليل جُبران :

وَفِي عَقِيدَتِي أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِب أَوَّلُ عَرَبِيٍّ جَاوَرَ الرُّوحَ الْكُلِّيَّة وَسَامَرَهَا .

ويقولُ : **عَلِيٌّ مَاتَ وَالصَّلَاةُ بَيْنَ شَفَتَيْهِ .**

ويقول : **لَقَدْ فَاقَ عليٌّ بْنُ أبي طالبٍ [عَلَيهِ السَّلَامُ] زمانَهُ ، ولستُ أعلمُ ما السرُّ في أن يجيء الدهرُ أحياناً بأفرادٍ لا ينتمونَ إلى زمانهم !**

ولقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام بنفسه إلى هذا الأمر في وصيّته القصيرة حين ضُرب وسقط في الفراش ، وذلك في قوله :

غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي ، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي ؛ وَتَعْرِفُونِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي .[1]

وقوله :

وَاللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ ، وَطَالِبٍ وَجَدَ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ .[2]

بلى ، ذلك الإمام الذي كان يقول مرّةً :

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٤٧ ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر .

٢ـ «نهج البلاغة» الكلمة ٢٣ ، ج ٢ ، ص ٢١ .

وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ .[1]

ويقول في موضع آخر :

وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضِمُهَا .[2]

وفي موضع :

وَاللَّهِ لَدُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عَرَاقِ[3] **خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ .**[4]

ذلك الإمام الذي يروي مرّة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قوله :

مَوْتَةٌ عَلَى الْفِرَاشِ أَشَدُّ مِنْ ضَرْبَةِ أَلْفِ سَيْفٍ .[5]

والذي تربّى في هذه المدرسة الإلهيّة بحيث صار يُقسم :

وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ .[6]

لحقيقٌ أن يكون عاشقاً للموت ولقاء الله تعالى ، وحقيقٌ أن يُحار أفراد البشر أمام عظمته ، أيّ عظمة الله تعالى ، ولأن تخضع البشريّة أمامه وتخشع .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ وَعَلَى رُوحِكَ الطَّيِّبِ وَبَدَنِكَ الطَّاهِرِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٣ ، ج ١ ، ص ٣٧ من طبعة محمّد عبده ـ مصر .

٢ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٢٢٢ ، ج ١ ، ص ٤٥٣ .

٣ـ في بعض نسخ «نهج البلاغة» عراق بضمّ العين ، وهو العظم الذي أُكل اللحم الذي عليه .

٤ـ «نهج البلاغة» الحكمة ٢٣٦ ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

٥ـ «الغارات» ج ١ ، ص ٤٣ .

٦ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٢١ ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

دادیم به یک جلوۀ رویت دل و دین را

تسلیم تـو کـردیم هـمان را و هـمین را

ما سیر نخواهیم شد از وصـل تـو آری

لب تشـنه قـناعت نکـند مـاء مـعین را

مـی‌دید اگـر چشـم تـرا لعـل سـلیمان

مـی‌داد در اول نـظر از دست نگـین را

در دائـــرۀ تـــاجْوَران راه نـــدارد

آن سر که نسائیده به پای تو جـبین را[1]

وقد ورد عن الخليل بن أحمد العروضيّ أَنَّهُ سُئِلَ : لِمَ هَجَرَ النَّاسُ عَلِيّاً ، وَقُرْبُهُ مِن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قُرْبُه ، وَمَوْضِعُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَوْضِعُهُ ، وَعِيَاذُهُ فِي الْإِسْلَامِ عِيَاذُهُ ؟

فَقَالَ : بَهَرَ وَاللهِ نُورُهُ أَنْوَارَهُمْ ، وَغَلَبَهُمْ عَلَى صَفْوِ كُلِّ مَنْهَلٍ ، وَالنَّاسُ إِلَى أَشْكَالِهِمْ أَمْيَلُ .

ثُمَّ قَالَ : أَمَا سمعتَ الأَوَّل حَيث يَقُول :

وَكُلُّ شَكْلٍ إِلَى شَكْلِهِ آلِـفٌ أَمَا تَرَى الْفِيلَ يَأْلَـفُ الْـفِيلَا

قَالَ : وَأَنْشَدَنَا الرياشيُّ فِي مَعْنَاهُ عن العبّاس بن الأحنف :

وَقَائِلٍ كَـيْـفَ تَـهَـاجَـرْتُـمَا فَقُلْتُ قَـوْلاً فِـيـهِ إِنْـصَـافُ

لَمْ يَكُ مِنْ شَـكْلِي فَهَاجَرْتُهُ وَالـنَّـاسُ أَشْـكَـالٌ وَآلَافُ .[2]

١ـ يقول : وهبنا لحُسن طلعتك القلبَ والدين معاً ووضعناهما في يديْك .
لن تَنقضي لوصلك لهفتنا ، ولن يُقنع الماءُ المعين الشفاه الظماء إليك .
كان سيُعطيك ياقوته منذ أوّل لمحة ، خاتمُ سليمانَ ، لو شاهدَ عينيك .
وهيهات أن يجد سبيلاً لدائرة المتوّجينَ ، رأسٌ لم يُمرّغْ جبينَه على قدمَيْك !
٢ـ «أمالي الصدوق» المجلس الأربعون ، ص ١٩٠ و ١٩١ .

وَسُئِلَ أَيْضاً : مَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ عَلِيّاً إِمَامُ الْكُلِّ فِي الْكُلِّ ؟ فَقَالَ : احْتِيَاجُ الْكُلِّ إِلَيْهِ وَغِنَاهُ عَنِ الْكُلِّ .

وسئلَ الخليلُ عن فضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، **فقالَ :**

مَا أَقُولُ فِي حَقِّ مَنْ أَخْفَى أَحِبَّاؤُهُ فَضَائِلَهُ مِنْ خَوْفِ الْأَعْدَاءِ ، وَسَعَى أَعْدَاؤُهُ فِي إِخْفَائِهَا مِنَ الْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ ، وَظَهَرَ مِنْ فَضَائِلِهِ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا مَلَأَ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ ؟[1]

وما أبدعَ وأروعَ ما أنشد الصاحب بن عبّاد في هذا المعنى :

مَا لِعَلِيٍّ الْعُلَى أَشْبَاهُ لَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُو

مَبْنَاهُ مَبْنَى النَّبِيِّ تَعْرِفُهُ وَابْنَاهُ عِنْدَ التَّفَاخُرِ ابْنَاهُ

إِنَّ عَلِيّاً عَلَا عَلَى شَرَفٍ لَوْ رَامَهُ الْوَهْمُ زَلَّ مَرْقَاهُ[2]

١ـ «روضات الجنّات» الطبعة الحجريّة ، ص ٢٧٥ ؛ والحروفيّة ج ٣ ، ص ٢٩٩ و ٣٠٠.

وقال مؤلّف الروضات : وممّن صرّح بتشيّع الخليل : القاضي نور الله الشوشتريّ في «مجالس المؤمنين» ، واستدلّ على ذلك بوجوه ، منها ما أوردناه هنا إلى قوله الذي يقول فيه : احتياج الكلّ إليه وغناهُ عن الكلّ .

٢ـ «الكنى و الألقاب» ج ١ ، ص ٣٠١ ، طبعة صيدا.



المجلس الثاني والعشرون

نفخ الصور وإحياء الموتى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مطالب أُلقيت في اليوم الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك)

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .[1]

وهذه الآية المباركة معروفة بآية **نفخ الفزع** ، أي أنّ جميع مَن فِي السماوات والأرض سيخافون ويهلعون ويفزعون ويروّعون بواسطة النفخ في الصور .

كما لدينا الآيتان ٦٨ و ٦٩ من السورة ٣٩ : الزمر :

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن

١ـ الآيات ٨٧ إلى ٩٠ ، من السورة ٢٧ : النمل .

شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

والآية المباركة معروفة بآية **نفخ الصَّعْق** ؛ وصُور الصعْق هو الصور الذي يُنفخ فيه نفخة يهلك على إثرها الجميع ، لأنّ الصعق بمعنى الهلاك . إلّا أنّه يستفاد من الآية الأخيرة أنّ لدينا صورين ، أي أنّ النفخ في الصور على نحوين .

أحدهما النفخ الذي يموت على إثره جميع الأحياء في السماوات والأرض .

والنحو الآخر النفخة الذي يُبعث بواسطته جميع الأموات ويُنشرون بعد موتهم . ذلك لأنّه يقول : **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ** .

بَيدَ أنّ **الصعق والفزع** يمتلكان على الظاهر معنىً واحداً ، وقد وردا لإظهار حالة معيّنة ، فالفزع في الآية يعني الخوف والجزع المؤدّي إلى الموت ،[1] كما أنّ الصعق بمعنى الهلاك الذي يُصيب الإنسان إثر خوف ورعب مفاجئ .

إذَن فمفاد صدر كلا الآيتين : الواردة في سورة النمل ، والواردة في سورة الزمر ، هو النفخ في الصور الذي يُصاب على إثره جميع الأحياء بالفزع والرعب والهلاك .

أمّا مفاد ذيل الآية الثانية ، أي تلك الواردة في سورة الزمر ، فهو إحياء

١ـ قال في «مجمع البيان» ج ٧ ، ص ٣٧٠ من طبعة دار نشر «ناصر خسرو» طهران في تفسير الآية : أي ماتوا لشدّة الخوف والفزع ، يدلّ عليه قوله في موضع آخر : فصعق من في السمٰوات . (م)

الأموات وبعثهم بعد هلاكهم وفنائهم . يقول الشيخ الطبرسيّ في «مجمع البيان» : وقيل هي ثلاث نفخات [ينفخها إسرافيل في الصور] ، الأُولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق [التي يموت على إثرها جميع من في السماوات والأرض] ، والثالثة نفخة القيام لربّ العالمين [وفيها يخرج جميع الناس من قبورهم] .[1]

إلّا أنّنا سنبيّن إن شاء الله تعالى أنّ ذلك الفَرَق والرعب الذي ينتاب الناس في الدنيا بواسطة النفخ في الصور ، والمعبّر عنه بالصيحة :

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ .[2 و 3]

ليس إلّا صيحة واحدة لا أكثر سيخمد على إثرها جميع الناس ويتسمّرون ويفنون . وقد ورد في آية أُخرى :

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ .[4]

حتّى أنّه ورد في الحديث : تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتّى تقوم ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتّى تقوم ، والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتّى تقوم .[5]

ولربّما كان مَن نقل الطبرسيُّ قولَه يريد بنفخة الفزع : الصيحة التي

١ـ «مجمع البيان» تفسير آية نفخ الصور في سورة النمل ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ .

٢ـ الآية ٢٩ ، من السورة ٣٦ : يس .

٣ـ بالرغم من أنّ هذه الآية تتحدّث عن هلاك أهل أنطاكية ، إلّا أنّه يمكن استفادة العموم منها .

٤ـ الآيتان ٤٩ و ٥٠ ، من السورة ٣٦ : يس .

٥ـ «مجمع البيان» ج ٤ ، ص ٤٢٧ .

يُنادى بها في الدنيا فيهلك على إثرها الناس .

أمّا الصيحة التي تُطلق عند القيامة فإنّما هي صيحتان : صيحة تُميت أهل البرزخ ليردوا في القيامة ، وأُخرى لأهل البرزخ أنفسهم ليُبعثوا من جديد بعد موتهم .

وعلى ذلك فإنّ نفخة الفزع ونفخة الصعق عائدتان إلى أهل البرزخ لا إلى أهل الدنيا ، وليس هناك إلّا نفخة واحدة لا غير . أمّا النفخة الأُخرى فتتعلّق بإحياء الأموات وبعثهم .

وعلى كلّ تقدير فإنّ النفخة التي يموت الناس على إثرها ثمّ يُبعثون نفختان لا أكثر ، نفخة الإماتة ونفخة الإحياء ؛ النفخ في الصور للإماتة ونفخه للإحياء من جديد .

وينبغي أن نرى الآن ما هو الصور ؟ الصور بمعنى القرن ، أي قرن البقر أو الماعز أو الحيوانات الأُخرى ، المفتوح من أحد طرفيه والمغلق من الطرف الآخر ، والصور جمع [لا مفرد له] ، ويكثر أن يُثقب فيُنفخ فيه من ذلك الثقب فيخرج الصوت من طرفه المفتوح مرتفعاً منتشراً ، ويُقال له في الفارسيّة «بوق» .[1]

وبهذا الصور ينبأون بالموت ، وبالاستعداد والتهيّؤ والحياة . وقد ورد ذكر **نفخة الصور** في عشر مواضع من القرآن الكريم ، كما استعمل لفظ **الصيحة** في ثلاثة عشر موضعاً منه .

أمّا ذلك الصور الذي تحصل الإماتة بواسطته فقد ورد في هاتين الآيتين فقط : آية الفزع وآية الصعق في سورتي النمل والزمر ، أمّا

١ـ في «لسان العرب» مادّة [بوق] : والبوق شبه مِنقاف ملتوي الخَرْق . ينفخ فيه الطحّان فيعلو صوته فيُعلم المراد به . (م)

المواضع الأُخرى فقد ورد فيها ذكر النفخ في الصور للإحياء والبعث .

وقد احتمل المرحوم الشيخ الطبرسيّ ، ومن قبله الشيخ المفيد رضوان الله عليهما ، أنّ الصور في هذه الآيات جمع الصورة ، وأنّ **نُفِخَ فِى الصُّورِ** أي بواسطة النفخ في الصُّوَرِ فتحيا تلك الصُّوَر . وكما يصوّر الجنين في رحم الأُمّ ثمّ ينفخ فيه بعد تصويره فتحيا تلك الصورة وتتحرّك ، فإنّ الله عزّ وجلّ يصوّر الموتى في قبورهم وينفخ في صورهم فيُحييهم ؛ ومن ثمّ فإنّ صور جمع صورة .

كما يمكن القول إنّ الصور الموجودة في عالم البرزخ تتعلّق بالأفراد الذين رحلوا عن الدنيا ، فهم يمتلكون صوراً برزخيّة يُنفخ فيها فيُبعثون ؛ وفي ضوء ذلك فلا احتمال هناك لكون الصور بمعنى البوق ،كما أنّه ليس إعلاناً للموت والحياة .

بَيدَ أنّ هذا الاحتمال مُجانب للصواب ، فهو أوّلاً مخالف لظواهر الآيات القرآنيّة ، بل لصريح الآيات ، إذ ليس هناك من صُوَر في النفخة الأولى لينفخ فيها ، ولأنّ هذا الاحتمال - ثانياً - يتنافى مع المجيء بالضمير مفرداً في قوله تعالى **نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ** ، لأنّه يجب أن يُقال عند صحّة هذا الاحتمال **ثُمَّ نُفِخَ فِيهَا أُخْرَى** أي النفخ في تلك الصُّوَر .

وثالثاً فإنّ هذا الاحتمال يوجب أن نترك - بلا داعٍ ولا مبرّر - النصوصَ الصريحة الصحيحة الواردة عن الأئمّة المعصومينَ عليهم السلام التي فسّرت الصور بالبوق . ونحن نعلم أنّ سيّد الساجدين صلوات الله عليه قال في دعائه الثالث من أدعية الصحيفة السجّاديّة الكاملة :

وَإِسْرَافِيلُ صَاحِبُ الصُّورِ الشَّاخِصُ الَّذِي يَنْتَظِرُ مِنْكَ الإِذْنَ وَحُلُولَ

الْأَمْرِ ، فَيُنَبَّهُ بِالنَّفْخَةِ صَرْعَى رَهَائِنِ الْقُبُورِ.[1]

وعليه فإنّ الصور في هذه الآيات بمعنى البوق ، وهو تلك الآلة التي تستعمل لبثّ الصوت وتكبيره ، والمستخدمة في الطرق والجبال والصحارى وفي مواقع القتال والحرب التي تكثر فيها الجلبة والضوضاء فلا يصل الصوت إلى جميع النقاط إلّا بها .

إلّا أنّ هناك مطلباً ينبغي التنبيه إليه ، وهو : لماذا عُرفت هذه الآلة بالصُور ؟ وهل الصور الذي في يد إسرافيل ينفخ فيه ، هو هذا البوق المعروف الذي له طرف صغير وآخر كبير ؟ وهل هو مكوّن من جسم ماديّ يمسكه ذلك المَلَك المقرّب في يده ،كما يفعل جنود الحكّام والملوك ، وينفخ فيه بالحنجرة والنَّفَس الخارج من الرئة ، فيخرج من إسرافيل هواء كَنَفس الإنسان ونفخه المسبّب للصوت ، فيؤدّي إلى خروج الصوت من الصور ، ذلك الصوت الذي يملأ فضاء عالم الدنيا والبرزخ ، وتلك الموجات التي تهلك مَن تصيبه مِن موجودات عالم البرزخ ، ثمّ يُبعثون في الوهلة الأُخرى ؟ أم أنّ الأمر ليس على هذا النحو ، وأنّه أمر آخر ؟

ومن أجل بيان الأمر وإيضاحه لابدّ لنا من ذكر مقدّمة ، وهي أنّ جميع الموجودات في عالم البرزخ أو في عالم القيامة لا تشابه بأيّ وجه من الوجوه موجودات هذا العالم الذي هو محلّ الطبع والمادّة ،كما لا تشابه اعتبارات وتوهّمات وحُجب هذا العالم .

فالشخص الذي يرحل عن هذا العالم يترك جميع الأُمور الاعتباريّة

١ـ «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٣٢٦ ، الطبعة الحروفيّة مع التوضيحات التي ذكرناها لها سابقاً .

والأفكار والخيالات التي تدور حول المصالح الشخصيّة وراء ظهره ويخلّفها في زوايا النسيان ، فيرد عالماً جديداً لا يشبه هذا العالم بأيّ وجه من الوجوه .كما أنّ الموجودات البرزخيّة حين تريد ورود عالم القيامة فإنّها تتخلّى عن خصوصيّات عالم البرزخ وتتعرّى عنها وعن لوازمها ، فترد عالم القيامة دونها .

بَيدَ أنّه قد ذُكر لنا ذلك باعتبار عدم وجود أيّ معرفة وأُنس لنا بتلك العوالم ، فالآيات القرآنيّة الكريمة والروايات الواردة عن المعصومين سلام الله عليهم أجمعين حين قرّبت تلك المعاني لأفهامنا وإدراكنا كان لابدّ لها الدخول من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، وخلع لباس المحسوسات على تلك المعاني الرفيعة والدقائق السنيّة ، وصبّها وقولبتها في قالب تلك المحسوسات .

فالإنسان ـ مثلاً ـ يرى في عالم الرؤيا والمنام أنّه يُرزق رزقاً معنويّاً وباعتبار أنّ الحليب هو ذلك الرزق الطاهر السائغ والمفيد له في عالم اليقظة ، يفيد منه جميع الناس ، المرأة والرجل ، الشيخ والشابّ ، الصغير والكبير ، والسليم والسقيم ، فإنّه سيرى ذلك الرزق المعنويّ الروحانيّ في عالم الرؤيا في هيئة الحليب ، فيُصوّر له أنّه يشرب منه .

وحين يذهب إلى مفسّر الأحلام فيقصّ عليه رؤياه ويسأله تفسيره ، فإنّ المفسّر سيقول له : إنّك ستُرزق رزقاً معنويّاً وروحانيّاً ، وهذا من باب أُنس ذهن المفسّر بارتباط الغذاء المعنويّ والروحانيّ بالغذاء المادّيّ اللطيف ، وبإدراك حالات من يُشاهد الرؤيا وكيفيّة تداعي المعاني في نفسه .

وذلك لأنّ ذهن من يشاهد الرؤيا محروم عن إدراك الحقائق المجرّدة

بسبب أُنسه وأُلفته بعالم المادّة، فهو يتصوّر كلّ غذاء لطيف مفيد لا ضرر فيه في قالب الحليب ومفهومه، لذا فإنّه سيمثّل في عالم النوم ذلك الغذاء المعنويّ ويجسّده في هيئة الحليب، وإلّا فليس هناك في عالم البرزخ حليب ماديّ.

وقد يشاهد الإنسان في الرؤيا أنّه يسبح في بحرٍ ما، وحين يرجع إلى المفسّر فسيقول له: إنّك ستخوض غمار علوم طاهرة فتستفيد منها، لأنّ العلم الخالي من الغشّ والجهل يتمثّل في الدنيا في هيئة ماء زلال لا كدر فيه ولا طين، وهذا من باب تنزّل المعقول إلى المحسوس.

ولدينا الكثير من هذا القبيل في آيات القرآن الكريم، مثل:

ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ.[1]

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ.[2]

أفهل للّه تعالى جسم وبدن محسوس ليحتاج إلى الجلوس على عرش وكرسيّ؟ وليكون له عرش مُلكٍ وسُلطان يجلس عليه فيأمر وينهى؟

ليس الله تعالى جسماً، وليس له حدّ ولا نهاية، ولا يحيطه مكان ولا زمان، بل هو بسيط مجرّد، وهو محض الوجود والوجود المحض بلا كمّيّة ولا كيفيّة بأيّ عنوان كانت؛ وجميع السماوات والأرضين في حضوره وفي قبضته وتحت قدرته:

وَٱلسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّـٰتٌ بِيَمِينِهِ.[3]

أمّا لو شاء مَلِكٌ ما في عالم الطبع ومحلّ الأُمور الاعتباريّة هذا، أن

١ـ الآية ٥، من السورة ٢٠: طه.

٢ـ الآية ٢٥٥، من السورة ٢: البقرة.

٣ـ الآية ٦٧، من السورة ٣٩: الزمر.

يأمر وينهى ، وأن يصدر حُكماً أو قراراً ، فإنّه يذهب إلى حيث مظهر قدرته ، فيجلس على عرشه ، ذلك العرش المزيّن بالجواهر التي تمثّل تعيّنه واعتباره ، ثمّ يصدر أمره وحكمه من فوق ذلك العرش بينما يصطفّ أمامه جميع أعضاء الدولة وضبّاطها وقادتها مستعدّين متأهّبين لتنفيذ أمره ، وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، فالأحكام الصادرة من حضرة ذي الجلال وأمره ونهيه قد بُيّنت هي الأُخرى بهذه المضامين وبهذه الألفاظ الممثّلة لهذه المعاني .

أمّا عرش الله وكرسيّه فليسا جسماً ، ولا جهة لهما ، وليس الله جسماً ليستقرّ على ذلك الموضع ، بل كرسيّه سبحانه محيط بجميع السماوات والأرض ، وعرشه محيط بعالم الوجود وأرجائه ، وبجميع عالم الإمكان وبجميع المخلوقات ، بل وبأسمائه وصفاته ؛ أي أنّه مسيطر ومهيمن عليها جميعاً بإرادته واختياره ومشيئته المطلقة ، ومهيمن وحاكم على أرجاء عالم الخلقة ، وهو الملك والحاكم الأوحد لعالم الوجود .

ثمّ إنّ جميع موجودات عالم الطبع تحت كرسي الله ، أي الملكوت الأسفل ، وهي جميعاً تحت عرش الله ، وهو الملكوت الأعلى . وعلى ذلك فإنّ عرش الله يعني مشيئة الله وقدرته ؛ وكرسيّه يعني جميع الموجودات الواقعة تحت تلك القدرة والمشيئة القاهرة وقد ظهرت وتلبّست بلباس الوجود .

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا .[1]

فلو تصوّر امرؤ من هذه الآية المباركة أنّ مجيء الله تعالى كمجيء الحكّام والسلاطين الذين يأتون يوم ظهور قدرتهم بأُبّهة وعظمة بينما يقف

١ـ الآية ٢٢ ، من السورة ٨٩ : الفجر .

الضبّاط والجنود مصطفّين سماطين في تلك الهيئة الخاصّة ، لكان تصوّره هذا خاطئاً ومجانفاً للحقيقة .

بل لأنّ عظمة الملوك وجلالهم في عالم الاعتبار يتجلّيان في المجيء بهذه الكيفيّة ، وفي إظهار الجلال والقدرة على هذا النحو ، فقد شُبّهت لنا قدرةُ وعظمة الله جلّ شأنه وعلا قدره في يوم القيامة بهذه الصورة من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، وإلّا فإنّ ورود الملائكة ليس وروداً مادياً ، كما أنّهم ليسوا في جهة مادّيّة ومكان مادّيّ ، فالملائكة هم الموجودات المقرّبة التي طبّقت جميع العوالم .[1]

وكونهم صفّاً صفّاً يعني القدرة تلو القدرة ، والعلْم تلو العلم ، والحياة تلو الحياة ؛كما أنّ مجيء الملائكة ليس بأقدام مادّيّة ، بل هو اقتراب وظهور تدريجيّ ، ومجيء الله تعالى ليس مجيء جسم أو هيكل معيّن ، وليس له تعالى قدم ، بل مجيئه تعالى ظهور تجلّيات جماله وجلاله الذي عُبّر عنه في العربيّة بالمجيء باعتبار حصوله تدريجيّاً في القيامة ، وباعتبار تحقّق لقاء الحضرة الأحديّة .

والخلاصة فقد ورد الكثير من هذا النوع من التعبيرات في كتاب الله وبيانات رسول الله والأئمّة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين .

وبناء على أنّ الألفاظ وُضعت للمعاني العامّة الكلّيّة ،كما هو الحقّ المحقّق في محلّه ، فلا مجال للشكّ والارتياب في هذا الأمر ، ولا حاجة لنا

---

١ المراد بعدم كون الملائكة مادّيّين ، أنّ أصل خلقتهم ليس من الأرض ، وأنّهم ليسوا كالإنسان المخلوق من الطين ، ولا كالجنّ المخلوقين من النار والدخان والغاز ، وليس المراد بذلك عدم تمتّعهم بآثار المادّة وخواصّها كالكمّ والكيف ، وإلّا فلا تردد هناك من ارتداء الملائكة لباس الصورة وتشكّلهم في أشكال مختلفة .

لتشبيهات واستعارات وكنايات لإيصال المعاني وتفهيمها ، بل إنّ الألفاظ متكفّلة بنفسها بإيفاء هذه المعاني .

وما يحلّ هذا الإشكال ويكشف الستار عن هذا اللغز ، رواية وردت عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله في أنّ الأنبياء يكلّمون الناس دوماً على قدر عقولهم وإدراكهم .

يروي الكلينيّ في «أُصول الكافي» عن جماعة من الأصحاب ؛ وفي «روضة الكافي» عن محمّد بن يحيى ، وكلا السندين عن أحمد بن محمّد ابن عيسى ، عن الحسن بن عليّ بن فضّال ، عن بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : مَا كَلَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْعِبَادَ بِكُنْهِ عَقْلِهِ قَطُّ . وَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ .[1]

إنّ إسرافيل من ملائكة الله المقرّبين ، وهو الملك المأمور بالإحياء ، فوجوده يطبّق جميع عوالم الإمكان المحتاجة إلى الحياة ، وصُوره قدرته ، وصُوره أجنحته الملكوتيّة والمعنويّة ، وصورُه إمكاناته التي مَنَّ عليه بها الربّ جلّ وعلا ، والوسائل الخاصّة التي جهّزه بها ووهبه إمكان الإحياء .

فصُور إسرافيل ـ إذَن ـ هو الثروة العلميّة والقدرة التي في يده ،

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٢٣ ؛ و «روضة الكافي» ص ٢٦٨ . وأورده في «تحف العقول» ص ٣٦ ، وفي «بحار الأنوار» الطبعة الكمباني ، المجلّد ١٧ (الروضة) ، ص ٤١ والمجلّد ٧٧ ، ص ١٤٠ من الطبعة الحروفيّة ، عن «تحف العقول» بلفظ : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم» . وروى البرقيّ في «المحاسن» ص ١٦٥ بسنده عن سليمان بن جعفر بن إبراهيم الجعفريّ ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إنّا معاشر الأنبياء نكلّم الناس على قدر عقولهم .

واختياره خاضع لاختيار الله تعالى .

ينفخ إسرافيل في صوره الخاصّ فتهلك جميع الموجودات ، ثمّ ينفخ فيه كرّة أُخرى فيُحيي جميع الموتى والهالكين . وليس بوقه وصوره جسماً ولا هيئة له ، وليس شرقيّاً ولا غربيّاً ، بل إنّه قد طبق جميع السماوات والأرض وما بينهما . وأصحاب مثل هذه القدرة التي أفاضها الله عليهم يحيطون بجميع العوالم العلويّة والسفليّة ويسيطرون ويهيمنون عليها ويعملون كلّ لحظة بوظيفتهم بأمر الله تعالى .

وقد روي في «تفسير عليّ بن إبراهيم» ذيل آية **وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ** ، عن ثوير بن أبي فاختة ، عن الإمام السجّاد عليه السلام يقول فيها :

وَلِلصُّورِ رَأْسٌ وَاحِدٌ وَطَرَفَانِ ؛ وَبَيْنَ طَرَفِ كُلِّ رَأْسٍ مِنْهُمَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .[1]

كما عبّر عن الصور بألفاظ أُخرى في بعض آيات القرآن ؛ إذ يعبّر عنه في موضع بتعبير :

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ .[2]

فهم يخرجون من القبور في ذلك اليوم ، ويتّجهون من عالم البرزخ إلى القيامة وذلك هو يوم الحشر .

وللفظ «نداء» مُعنى أصيل ، ولاستماعه حقيقة وواقعيّة ، كما أنّ الحيّ هو الذي يمكنه الاستماع والاستفادة من ذلك السماع ، فالميّت لا يمكنه

١ـ «تفسير القمّيّ» ص ٥٨٠ .

٢ـ الآيتان ٤١ و ٤٢ ، من السورة ٥٠ : ق .

الاستماع إلى شيءٍ ما أو سماعه .

ونعلم ـ من جهة ـ أنّ هذا النداء يوجّه إلى الموتى فيحيون بواسطته ، فنستنتج أنّ النداء نفس كلمة **الإحياء** ، وأنّ إسرافيل ينادي بواسطة اسم **المحيي** ، وأنّ الحياة هي عين الاستماع .

فذلك الصور الذي يُنفخ فيموت الناس يمثّل كلمة **المُميت** ، فيكون ذلك على يد عزرائيل ، وذلك الصور الذي يُنفخ فيحيا الناس ويُبعثون هو كلمة **المحيي** ، ويكون على يد إسرافيل .

هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ.[1]

إرادة الله لإحياء الموجودات هي إحياؤهم وبعثهم ، وإرادة الله على إماتة الموجودات هي إماتتهم .

إلّا أنّ هنا نكتة ينبغي عدم نسيانها هنا ، وهي : لماذا لم يُعبّر عن الموت في آية الصعق المباركة بلفظ الموت ، بل عُبّر عنه بلفظ الصعق :

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ.[2]

فَلِمَ لَمْ يقل يا ترى : **فَمَاتَ** ، أو **فَيَمُوتُ مَن فِي السماواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ** ؟

ذلك لأنّ الموت خروج الروح من البدن ، بينما الموجودات التي في عالم البرزخ لا بدن لها ، كي تخرج الروح منه وتغادره ؛ لذا لم يعبّر عن ذلك بـ **«الموت»** .

أمّا **الفناء والهلاك** فلا اختصاص له بخروج الروح من البدن ، بل يشمل هذا المورد والموارد الأُخرى التي تمثّل الموجودات الحيّة التي

١ـ الآية ٦٨ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٢ـ الآية ٦٨ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

لا بدن لها. وعلى هذا الأساس فإنّ الله سبحانه يقول عن أصحاب الجنّة :

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ.[١]

وهذا الموت هو الذي ذاقوه في الدنيا ، مع أنّ أهل الجنّة يتوجّهون ـ بدورهم ـ من البرزخ إلى القيامة ، إلّا أنّه لا يحصل هنا خلع ولبس للصورة ، بل يحصل خلع فقط ، بَيدَ أنّ هذا الخلع لم يُعبّر عنه بالموت ، وإلّا توجّب أن يكون لأهل الجنّة موتان .

وعلّة ذلك أنّ نفوسهم في عالم البرزخ لم تكن مبتلاة بالصورة والهيئة ، ولا مقيّدة ومحبوسة فيها ليحتاج الخلاص منها والتحرّر منها إلى مشقّة وقلق وفزع وتحمّل للآلام ولمستلزمات هذا الخلع ، فنفوسهم تخرج من الصورة والهيئة تلقائيّاً وتذهب إلى القيامة :

يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ.[٢]

أمّا غير أصحاب الجنّة فلهم موتان وحياتان ، الأوّل : الموت من الدنيا وعالم الطبع والمادّة ، وخلع البدن وارتداء الصورة والورود في عالم البرزخ .

والثاني : الموت من عالم البرزخ والصورة ، وخلع الصورة وارتداء المعنى المجرّد النفسيّ والورود في عالم القيامة .

الأوّل هو الموت الدنيويّ والحياة البرزخيّة ، والثاني الموت البرزخيّ وحياة القيامة .

ثمّ إنّ أهل جهنّم يضجّون ويصطرخون في خضمّها بهذا النداء :

قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ

١ـ الآية ٥٦ ، من السورة ٤٤ : الدخان .

٢ـ الآية ٤٠ ، من السورة ٤٠ : غافر .

خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ .[1]

وهذان الموتان هما الموت الدنيويّ والبرزخيّ ، وهاتان الحياتان هما الحياة البرزخيّة وحياة القيامة . بَيدَ أنّهُ حين يُنفخ في الصور فيُصار إلى إهلاك جميع الأحياء ، فإنّ الأحياء فوق الأرض ممّن يمتلكون بدناً ومادّة لا يموتون وحدهم فحسب ـ حيث لا إشكال في التعبير بشأنهم بالموت ـ بل إنّ جميع الموجودات الحيّة في عالم البرزخ والملائكة المقرّبين والأرواح الطيّبة وسكّان الملأ الأعلى من نفوس الصدّيقين والقدّيسين والمقدّسين والمخلصين والنفوس الشريفة لعباد الله الصالحين ، ممّن لا يمتلكون بدناً أصلاً ، وممّن كانت خلقتهم الأُولى مجرّدة عن المادّة ، أو ممّن كانت لهم أبدان فخلعوها سيكونون المخاطبين بالفناء والهلاك .

لذا لم يعبّر عن ذلك بـ «**الموت**» وجاء التعبير عنه بـ «**الصعق**» الذي لا يختصّ بذوي الأبدان .

روي في «تفسير عليّ بن إبراهيم» ذيل آية الصعق ، بسنده عن أبيه ، عن الحسن بن محبوب ، عن محمّد بن النعمان الأحوال ، عن سلام بن المستنير ، عن ثوير بن أبي فاختة ، عن الإمام السجّاد زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام ، قال :

سُئِلَ [عَلَيهِ السَّلَامُ] عَنِ النَّفْخَتَيْنِ كَمْ بَينهما ؟ قَالَ : مَا شَاءَ اللَّهُ .

فقيل له : فأخبرني يابْنَ رسولِ اللهِ كَيْفَ يُنفَخُ فيه ؟

فقال : أَمَّا النفخة الأُولى فإنَّ اللهَ يَأمرُ إسرافيلَ فيهبطُ إلى الأرضِ ومعه الصُّورُ ، وللصُّورِ رأسٌ وَاحدٌ وطَرَفَانِ وبَينَ طَرفِ كُلِّ رَأْسٍ منهما مَا

١ـ الآية ١١ ، من السورة ٤٠ : غافر .

بَينَ السماءِ والأرض.

قال : فإذا رأت الملائكة إسرافيل وقد هبطَ إلى الدُّنيا ومعهُ الصُّورُ ، قالوا : قَدْ أَذِنَ اللَهُ فِي مَوْتِ أَهْلِ الأَرْضِ .

قَالَ : فينفخُ فيه نفخةً فيخرج الصَّوْتُ من الطرفِ الَّذي يلي أهلَ الأرضِ ، فلا يبقى في الأرض ذُو روحٍ إلّا صعقَ وماتَ . ويخرجُ الصَّوتُ مِن الطرف الذي يلي أهلَ السماواتِ ، فلا يبقى في السماواتِ ذُو روحٍ إلّا صعقَ وماتَ إلّا إسرافيل ، فيمكثونَ في ذلك ماشاء اللهُ .

قال : فيقولُ اللهُ لإسرافيلَ : يا إسرافيلُ مُتْ ! فيموتُ إسرافيلُ فيمكثونَ في ذلك ماشاء اللهُ ، ثمّ يأمُر اللهُ السماواتِ فتمور ، ويأمر الجبالَ فتسير ، وهو قوله :

يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا .[1]

يعني : تُبسط . و[الآية] :

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ .[2]

يعني : بأرضٍ لم تُكْسَب عليها الذنوب بارزةً ليس عليها جبالٌ ولا نباتٌ كما دَحَاها أَوّلَ مرّةٍ ، ويُعيد عَرْشَهُ على الماءِ كما كانَ أَوّلَ مَرّةٍ مُستقلاً بعظمتهِ وقُدرته .

قال : فعند ذلك ينادي الجبّارُ جلَّ جلالُه بصوتٍ من قبله جهوريّ يُسمع أقطار السماواتِ والأرضين : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ؟[3] فلا يُجيبه مُجيبٌ فعند ذلك يقول الجبّار مجيباً لنفسه : لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ، وأنا قهرتُ

١ـ الآيتان ٩ و ١٠ ، من السورة ٥٢ : الطور .

٢ـ الآية ٤٨ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٣ـ الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ : غافر .

الخلايق كلّهم فأَمَتُّهُمْ .

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي لَا شَرِيكَ لِي وَلَا وَزِيرَ لِي ، وَأَنَا خَلَقْتُ الْخَلْقَ بِيَدِي وَأَنَا أُمِيتُهُمْ بِمَشِيَّتِي ، وَأَنَا أُحْيِيهُمْ بِقُدْرَتِي .

قال : فينفخُ الجبّارُ نفخةً في الصُّورِ فيخرجُ الصَّوتُ من أحدِ الطرفينِ الَّذِي يلي السماواتِ فلا يَبْقى في السماوات أحدٌ إلّا حيي وقامَ كما كان ، ويعود حملةُ العرشِ ، وتحضر الجنّةُ والنّارُ ، وتُحشر الخلائقُ للحسابِ .

قال [الرواي ثوير بن فاختة] : فرأيتُ عليَّ بْنَ الحسين عليهما السلام يَبْكي عند ذلك بُكَاءً شَدِيداً .[1]

وروى في «الكافي» عن محمّد بن يحيى ، عن أحمد بن محمّد بن عيسى ، عن الحسين بن سعيد ، عن فضالة بن أيّوب ، عن أبي المعزا ، قال : حدّثني يعقوب الأحمر ، قال : دخلنا على أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام نُعزّيه بإسماعيل ، فترحّم عليه ، ثمّ قال :

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَعَى إِلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ نَفْسَهُ فقال : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ .[2]

وقال : **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ .**[3]

ثُمّ أنشأ يحدّث فقال : إِنَّهُ يموتُ أهلُ الأرضِ حَتَّى لَا يَبقى أحدٌ ، ثُمَّ يموتُ أهلُ السَّماءِ حَتَّى لا يَبْقَى أَحدٌ إِلَّا **مَلَكُ الْمَوْتِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ وَجَبْرَئِيلُ وَمِيكَائِيلُ** عَلَيهِمُ السَّلَامُ .

١ـ «تفسير القمّيّ» ص ٥٨٠ و ٥٨١ الطبعة الحجريّة .

٢ـ الآية ٣٠ ، عن السورة ٣٩ : الزمر .

٣ـ الآية ١٨٥ ، من السورة ٣ : آل عمران ؛ والآية ٣٥ من السورة ٢١ : الأنبياء ؛ والآية ٥٧ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

قال : فيجيء مَلَكُ الموتِ عليه السلام حتّى يقوم بين يدي اللـه عـزّ وجل فيُقال له : مَنْ بقي ـ وهو أعلم ـ ؟ فيقول : : يَا ربِّ لَمْ يَبْقَ إلَّا مَـلَكُ الموتِ وحملةُ العرشِ وجبرئيلُ وميكائيلُ عَلَيهِمُ السَّلَامُ .

فيقال له : قُلْ لجبرئيلَ وميكائيلَ فَلْيَمُوتَا ! فتقول الملائكةُ عند ذلك : يَا رَبِّ رَسُولَيْكَ وَأَمِينَيْكَ .

فيقول : إنِّي قَدْ قَضَيْتُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِيهَا الرُّوحُ الْمَوْتَ .

ثُمّ يَجيءُ مَلَكُ الموتِ حَتّى يقفَ بَينَ يدي اللهِ عزّ وجلَّ فـيُقال له : مَنْ بقي ؟ ـ وهو أعلم ـ

فيقولُ : يَا رَبِّ ، لَمْ يَبْقَ إلَّا **مَلَكُ الْمَوتِ وحملةُ العرشِ** .

فيقول : **قُلْ لِحملةِ العَرْشِ فَلْيَمُوتُوا !**

قال : ثُمَّ يجيء كَئِيباً حَزِيناً لَا يرفع طَرْفَهُ ، فيقال : مَنْ بَقِي ؟

فيقول : **لَمْ يَبْقَ إلَّا مَلَكُ الْمَوْتِ** .

فيُقال له : **مُتْ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ! فَيَمُوتُ** .

ثُمَّ يَأخذُ الأَرْضَ بيمينه والسَّماوات بيمينِهِ ويَقولُ : **أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَدْعُونَ مَعِي شَرِيكاً ؟ أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَجْعَلُونَ مَعِي إلَهاً آخَرَ** [١]

يقولُ أمير المؤمنين عليه السلام :

وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ ، وَتُدَكُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ ؛ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً ، وَمَعْهَدُهَا قَـاعاً سَمْلَقاً ؛ فَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ ، وَلَا حَمِيمٌ يَدْفَعُ ، وَلَا مَعْذِرَةٌ تَنْفَعُ .

نبّهنا الله جميعاً ببركات أمير المؤمنين عليه السلام لنـعي فـي هـذه

---

١ ـ «الكـافي» الطبعة الحـروفيّة ، ج ٣ ، أبـواب الجـنائز ص ٢٥٦ و ٢٥٧ ؛ والطـبعة الحجريّة ، ج ١ ، ص ٧٠ و ٧١ .

الأيّام المعدودة من الدنيا أيّ عواقب تنتظرنا !

ولقد كان عليه السلام يحذّر الناس في خطبه وجلساته سرّاً وعلانية أن : أيّها الناس ! إنّ هذا الدهر الطويل وساعاته ، وهذا الطلوع والغروب المتواليان المتعاقبان ليسا لكم إلّا لحظات عيش معدودة ، إن اغتنمتموها فنِعم ما فعلتم ، وإلّا لحقكم الخُسران المقيم !

ثم يكتب وصيّة في «الحاضِرَيْن» لولده الإمام الحسن عليه السلام حيث تتكشّف حقّاً عن عجائب الحِكم وغرائب النصائح والمواعظ ، بحيث عزّ أن يصدر لها من أعاظم الدهر نظير أو شبيه في نكاتها العميقة والدقيقة ، على امتداد التأريخ وتصرّم الأزمان والأعوام ، ولم يسجّل لها نظير في صفحات الدهر .

يقول عليه السلام في موعظته بعد أن ضُرب :

وَأَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ ، غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ [فأشفى من جرحي هذا] **فَذَاكَ ، وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ** [فأرحل عن هذه الدنيا] **فَإِنَّمَا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ وَمَهَبِّ رِيَاحٍ ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا ، وَعَفَا فِي الْأَرْضِ مَخَطُّهَا .**

وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً لَكُمْ جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً ، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلَاءً ، سَاكِنَةً بَعْدَ حِرَاكٍ ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ ؛ لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي ، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي[1] **وَسُكُونُ أَطْرَافِي ، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ ، وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ .**[2]

١ـ الإطراق : إرخاء العينين والنظر بهما إلى الأرض .

٢ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٤٧ ، ج ١ ، ص ٢٦٨ و ٢٦٩ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر .

ولقد عاد أبناؤه إلى الكوفة بوجوهٍ محزونة بعد أن دفنوا جسده المطهّر في النجف الأشرف ، والغبار يعلوهم ، فجاء الإمام الحسن عليه السلام إلى مسجد الكوفة ورقى المنبر فخطب في الحشد الذي كان يموج في المسجد خطبة مفصّلة ، فاختنق أوّل الخطبة بعبرته ،[1] ثمّ مكث هنيئة فحمد الله وصلّى على جدّه رسول الله وعلى أهل بيته المعصومين عليهم السلام وقال فيها :

... فِي هَذِهِ الليلَةِ قُتِلَ يُوشعُ بْنُ نُون [وصيّ عيسى] ، وفي هَذِهِ الليلةِ مَاتَ أَبِي أميرُ المؤمنينَ عَلَيهِ السَّلَامُ ... وَمَا تَرَكَ صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا سَبْعَمِائَةِ دِرْهَم فَضُلَتْ مِنْ عَطَائِهِ كَانَ يَجْمَعُهَا لِيَشْتَرِيَ بِهَا خَادِماً لأَهْلِهِ.[2]

وأورده الحاكم في «المستدرك» بهذه الكيفيّة :

خَطَبَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ النَّاسَ حِينَ قُتِلَ عَلِيٌّ ، فَحَمِدَ اللَهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : لَقَدْ قُبِضَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ رَجُلٌ لَا يَسْبِقُهُ الْأَوَّلُونَ بِعَمَلٍ ، وَلَا يُدْرِكُهُ الآخِرُونَ .

وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُعْطِيه رَايَتَهُ فَيُقَاتِلُ وَجِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَمِيكَائِيلُ عَنْ يَسَارِهِ ، فَمَا يَرْجِعُ حَتَّى يَفْتَحَ اللَهُ عَلَيْهِ. وَمَا تَرَكَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا سَبْعَمِائَةِ دِرْهَم فَضُلَتْ مِنْ عَطَايَاهُ أَرَادَ أَنْ يَبْتَاعَ بِهَا خَادِماً لِأَهْلِهِ .[3]

ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ! مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا

١ـ «مقاتل الطالبيّين» ص ٥٢ .

٢ـ تلخيص الرواية الواردة في «أمالي الصدوق» ص ١٩٢ .

٣ـ «طبقات ابن سعد» ج ٣ ، ص ٣٨ ؛ و «تاريخ الطبريّ» ج ٥ ، ص ١٥٧ ، دار المعارف ـ مصر .

الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ؛ وَأَنَا ابْنُ النَّبِيِّ ؛ وَأَنَا ابْنُ الْوَصِيِّ ؛ وَأَنَا ابْنُ الْبَشِيرِ ؛ وَأَنَا ابْنُ النَّذِيرِ ؛ وَأَنَا ابْنُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ؛ وَأَنَا ابْنُ السِّرَاجِ الْمُنِيرِ ؛ وَأَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ إِلَيْنَا وَيَصْعَدُ مِنْ عِنْدِنَا ؛ وَأَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِي أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً ؛ وَأَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِي افْتَرَضَ اللَّهُ مَوَدَّتَهُمْ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : «قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا» ؛ فَاقْتِرَافُ الْحَسَنَةِ مَوَدَّتُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ.[1]

وأورد الهيتميّ في «مجمع الزوائد» عن الإمام المجتبى عليه السلام نظير هذا الاستشهاد بمقام الطهارة ،[2] وروي كذلك في «غاية المرام» و «فرائد السمطين» و «ينابيع المودّة» .[3]

ثمّ إنّ الإمام الحسن عليه السلام توجّه لساعته إلى ابن ملجم ، لأنّ أمّ كلثوم كانت قد أقسمت عليه بعد شهادة أبيها واستحلفته بالله خالق الخلق أن لا يترك الملعون حيّاً ساعة واحدة .

فسأله الإمام الحسن عليه السلام عمّا حمله على ما فعل ، فقال :

١ـ «مستدرك الحاكم» باب فضائل الحسن بن عليّ عليهما السلام ، ج ٣ ، ص ١٧٢ ؛ و «مقاتل الطالبيّين» ص ٥٢ .

٢ـ «مجمع الزوائد» باب فضائل أهل البيت ، ج ٩ ، ص ١٧٢ .

٣ـ «غاية المرام» ص ٢٩٥ ، الحديث ١٦ ؛ والحموينيّ في «فرائد السمطين» حسب نقل «غاية المرام» ص ٢٩١ ، الحديث ٣٥ ؛ وورد في «ينابيع المودّة» الباب ٩٠ ، ص ٤٧٩ نقلاً عن الحافظ جمال الدين الزرنديّ في «نظم درر السمطين» . كما ورد أيضاً في «أمالي الصدوق» ص ١٩٢ ؛ و «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٤٥٧ ؛ وأورده الطوسيّ في «التهذيب» حسب نقل «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦٤٩ .

قدعاهدت الله عهداً أن أقتل أباك ، فقد وفيت ، فإن رأيتَ أن تدعني أذهب إلى الشام لأقتل معاوية أيضاً ثمّ أعود إليك فتحكم فيَّ بحكمك ، إن شئتَ اقتصَصْتَ وإن شئتَ عفوتَ .

فقال : لا حتّى أعجّلك إلى النار .

فقدّمه وضرب عنقه [ضربة واحدة بالسيف] ثمّ تناول الناس جثّته فرموها في هوّة عميقة .

هذا وقد قد أورد علماء المسلمين في كتبهم المفصّلة الروايات التي وردت في أنّ العذاب البرزخيّ لابن ملجم من أشدّ أنواع العذاب وأقساها .

وعلينا الآن أن نبحث في أمرين :

الأوّل : لماذا لم يقتل أمير المؤمنين عليه السلام زمن حياته قاتله ابن ملجم ،[1] مع أنّه عليه السلام أخبر مراراً أنّ قاتله هو عبد الرحمن بن ملجم ،

١ـ نقل الصفّار في «بصائر الدرجات» ص ٢٤ ، بسنده المتّصل عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : دخل عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله على أمير المؤمنين عليه السلام في وفد مصر الذي أوفدهم محمّد بن أبي بكر رحمة الله عليه ومعه كتاب الوفد . قال : فلمّا مرّ باسم عبد الرحمن بن ملجم ، قال : أنتَ عبد الرحمن ؟ لعن الله عبد الرحمن ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أما والله يا أمير المؤمنين إنّي لأحبّك .

قال : كذبتَ والله ما تحبّني (ثلاثاً) .

قال : يا أمير المؤمنين ، أحلف ثلاثة أيمان إنّي أحبّك وأنت تحلف ثلاثة أيمان إنّي لا أحبّك !

قال : ويلك ! (أو ويحك) إنّ الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام فأسكنها الهواء ، فما تعارف منها هنالك ائتلف في الدنيا ، وما تناكر منها اختلف في الدنيا ، وإنّ روحي لا تعرف روحك .

قال : فلمّا ولّى ، قال : إذا سرّكم أن تنظروا إلى قاتلي فانظروا إلى هذا !

قال بعضُ القوم : أَوَ لا تقتله ؟ (أو قال : نقتله ؟)

ومع أنّ الكثير من أصحاب الإمام طلبوا منه قتله ، حتّى أنّ عبد الرحـمن نفسه عرض على الإمام أن يقتله .

الجواب : أوّلاً : أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو نفسه مصدر العدالة ومحور القسط والإنصاف ، فكيف يقتل عبد الرحمن وهو بعدُ لم يرتكب جرماً ولم يجترح جناية ؟ أفليس هذا العمل بذاته جرماً وجناية ؟

وكان الإمام سيبدو آنذاك جانياً مكان ابن ملجم ، وكان ابن ملجم سيبدو بدل الإمام بريئاً لا ذنب له ولا جريرة .

وهذا العمل غير صحيح ممّن يُعدّ هو ميزاناً للقسط والعدالة ، بل إنّ القصاص قبل الجريمة هو بذاته جريمة وذنب ، لأنّنا نعلم أنّ القصاص يحصل فقط عند ارتكاب القتل ، وليس عند توفّر نيّة القتل والعزم عليه ، ولا بالرغبة فيه والاشتياق إليه ؛ ولا قصاص عند عدم تحقّق القتل ، بالرغم من تحقّق النيّة والرغبة والعزم عليه .

ثانياً : أنّ القتل لن يقع ما لم تتحقّق علّتة التامّة ، وإحدى علل قتل أمير المؤمنين لابن ملجم ، أن يريد عليه السلام قتله ويعزم عليه ؛ ولأنّ هذا القتل غير مشروع بسبب عدم صدور جناية منه بعدُ ، فإنّ قتل ابن ملجم سيكون أمراً محالاً .

وثالثاً : لو قدّر في علم الله تعالى حقيقةً ، على أساس سلسلة الأسباب والمسبّبات والعلل والمعلولات ، أن يكون ابن ملجم قاتلاً وأن يكون أمير المؤمنين عليه السلام مقتولاً ، فكيف سينعكس الأمر فيصبح أمير المؤمنين قاتلاً وابن ملجم مقتولاً ، وليس هذا إلّا فساد علمه تعالى ، نعوذ بالله .

⇐ فقال : ما أعجب من هذا تأمروني أن أقتل قاتلي ؟!

وخلاصة الأمر أنّ هذا العلم لو كان صحيحاً ، فإنّ ابن ملجم سيكون قاتلاً ولو اجتمع الثقلان على منعه ؛ وإن لم يكن صحيحاً فإنّ قتل ابن ملجم سيكون بلا داعٍ ، وسيكون شخص بريء قد قُتل بلا ذنب .

وقد نُسب نظير هذا الخطأ والزلّة الفادحة إلى فرعون ، فقد أخبره الكهنة أنّه سيولد من بني إسرائيل والأسباط ولد يكون على يديه زوال عرش فرعون ومُلكه وسلطانه ، فبدأ بقتل الأولاد ، وصار يذبح كلّ ولد تلده امرأة من الأسباط ، ولم يكن المسكين ليعلم أنّ أخبار الكهنة لو صحّت وصدقت حقيقةً ، فإنّ ذلك الولد الذي سيسقط التاج والسلطنة سيأتي في النهاية وسينجو من بين هؤلاء الأولاد ، وسيكون أُولئك المقتولون في تلك الحال غيره ، وسيكونون ـ من ثمّ ـ قد قُتلوا وذبحوا بلا جريرة .

أمّا لو كانت أخبار الكهنة خاطئة ، فإنّ جميع أُولئك الأولاد سيكونون أيضاً قد ذبحوا بلا ذنب ولا جريرة .

وعلى هذا الأساس فإنّه كان عليه السلام حين يُخبر عن شهادته على يد ابن ملجم فيقول له أصحابه :

أَوَ لَا تَقْتُلَهُ ؟ أَوَ لَا نَقْتُلَهُ ؟

فيجيب :

مَا أَعْجَب مِنْ هَذَا تَأْمُرُونِّي أَنْ أَقْتُلَ قَاتِلِي ؟ [1]

الثاني : أنّه كان عليه السلام يوصي في عبد الرحمن أن يوسّع عليه في الطعام والشراب ، وأرسل إليه بنفسه وعاء الحليب بعد أن شرب منه

١ـ «بصائر الدرجات» ص ٢٤ ؛ وورد في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦٤٧ ، نقلاً عن «كشف الغمّة» عن «مناقب الخوارزميّ» أنّه قيل له مرّة : «أفلا تقتله ؟ قال : لا ، فمن يقتلني إذاً ؟» .

جرعة وأوصى الإمام الحسن عليه السلام أن لا يُمثّل به ،[1] وأن لا تُفقأ عيناه ، أو تُصْلَم أُذناه أو يجذع أنفه أو يُجَذّ لسانُه أو تُقطع يداه ورجلاه ، وأن لا يحرق حيّاً ، وأوصى أن يُضرب بالسيف ضربةً بضربة ، وإن عُفي عنه لكان خيراً .

ويقول في وصيّته :

إنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي ، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي ، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ ، وَلَكُمْ حَسَنَةٌ ؛ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُم .

فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمْرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً ، أَوْ يُؤَدِّيهِ أَيَّامُهُ إِلَى شَقْوَةٍ ؛ جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا يَقْصُرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ رَغْبَةٌ ، أَوْ يُحِلُّ عَلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نِقْمَةٌ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ لَهُ وَبِهِ .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ؛ ضَرْبَةً مَكَانَ ضَرْبَةٍ ، وَلَا تَأْثِمْ .[2]

١ـ ورد في الرسالة ٤٧ من «نهج البلاغة» ج ٣ ، ص ٧٧ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر أنّه عليه السلام قال في وصاياه : انظروا إذا أنا متّ من ضربته هذه ، فاضربوه ضربةً بضربة ، ولا يُمثَّل بالرجل ، فإنّي سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور . ونقله بهذا اللفظ في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦٦٣ عن «نهج البلاغة» ؛ وفي ص ٦٦٠ عن «مناقب الخوارزميّ» . وأورد في «تاريخ الطبريّ» ج ٥ ، ص ١٤٨ ، تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم : «وقد كان عليّ نهى الحسن عن المثلة وقال : يا بني عبد المطّلب لا ألفينّكم تخوضون في دماء المسلمين تقولون : قُتل أمير المؤمنين ، قُتل أمير المؤمنين . لا يقتلنّ إلّا قاتلي . انظر يا حسن إن أنا متُّ من ضربته هذه فاضربه ضربةً بضربة ولا تمثّل بالرجل فإنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يقول : إيّاكم والمثلة ولو أنّها بالكلب العقور» . وأورد ابن الأثير في «الكامل» ج ٢ ، ص ٣٩١ عين هذا الحديث .

٢ـ أورده في «بحار الأنوار» ج ٤٢ ، ص ٢٠٧ ؛ كما أورده في نفس المجلّد ص ٦٥١ عن «الكافي» ؛ وأورد في ص ٦٦١ عن «من لا يحضره الفقيه» : ثمّ أقبل على ابنه الحسن عليه ⇦

أوّلاً : لماذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يشفق على قاتله ويداريه إلى هذا الحدّ ؟

وثانياً : لماذا لم يعفو الإمام الحسن عليه السلام عن القاتل ، بل اقتصّ منه ؟

بديهيّ أنّ الإجابة واضحة فنحن نعلم أنّ أعمال أمير المؤمنين عليه السلام لا تدور على محور تشفّي الخاطر الشهويّ أو الغضبيّ ، ولا على أساس الحسد والحقد والطمع والبخل ، بل إنّ جميع أفعال الإمام ذي الصدق والاستقامة كانت وفقاً للحقّ والتقوى وطهارة الباطن ، بل إنّها كانت أفضل وأسمى أمثلة الكتاب الإلهيّ ومعلّم البشريّة .

فقد ورد في موضع من القرآن الكريم :

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ .[1]

لذا ، فعمل أمير المؤمنين بهذه الآية المباركة وهو أمير المؤمنين وقدوتهم ، هو النموذج الأوحد والمثال الأبرز الأجلى ، والتدبير الحكيم .[2]

⇐ السلام فقال : يا بنيّ ؛ أنت وليّ الأمر بعدي ووليّ الدم ، فإن عفوت فلك ، وإن قتلت فضربة مكان ضربة ولا تأثم .

١ـ الآية ١٢٦ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢ـ حين يروي ابن عبّاس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال : ما أنزل اللهُ آية فيها «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا» إلّا وعليٌّ رأسُها وأميرُها . أي أنّ أمير المؤمنين له الإمارة والرئاسة على جميع المؤمنين في الخطابات والتكاليف الواردة لهم ، وهذه الرئاسة ليست عنواناً اعتباريّاً ، بل على أساس الملكات الشريفة الموجودة فيه عليه السلام . لذا فإنّ له الرئاسة والإمارة أيضاً في مفاد هذه الآية الشريفة «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» أي أنّه في تحقّقه بهذا المقام أمير العافين والصابرين . ولو لم يُقدّم العفو ويفضّله ، ولو حكم بالقصاص بشكل جازم ، فإنّه إذا وُجد مِن أفراد الأمّة منذ بداية الخليقة إلى يوم القيامة مَن يقدّم العفو ⇐

وأمّا علّة عدم عفو الإمام المجتبى فلعدم تناسبه مع الظروف التي كانت حاكمة في ذلك الوقت ، إذ كان العفو عن عبد الرحمن في تلك البُرهة ، مع مؤامرات معاوية وتمرّد أهل الكوفة على استمرار القتال ، ومع اضطراب دولة وحكومة الإسلام وزعزعتها بمثابة دليل على انكسار وضعف دولة الإمام المجتبى ، ولأجل ذلك فقد قدّم الإمام عليه السلام القصاص وفقاً للمصلحة العامّة للمسلمين .

وهكذا فقد كانت رغبة أمير المؤمنين عليه السلام في العفو قائمة على أساس كرم النفس والعفو الشخصيّ ، وكان قصاص الإمام المجتبى على أساس الصالح العامّ وحفظ دولة الإسلام .

لذا فقد كان عامّة المسلمين في مأتم وحزن لموت أمير المؤمنين عليه السلام وفقده ، فقد خسروا مثل هذا الإمام العادل المتحقّق بالحقّ . ولقد عمّت المصيبة مدينتي مكّة والمدينة وبيوتهما .

وكان الإمام الحسن قد قصّ على أبيه قبل أن يُضرب رؤيا موحشة ومروّعة ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : يَا بُنَيَّ ! رَأَيْتُ كأنَّ جبرئيل عَلَيهِ السَّلَامُ قَد نَزَلَ مِنَ السَّماءِ عَلَى جَبَلِ أَبِي قُبَيْس فتناولَ منه حَجرين ومضى بهما إلى الكعبةِ وتركهما على ظهرِها ، وضربَ أحدَهُما على الآخرِ فصارتْ كالرميم ، ثمّ ذَرَّهُمَا في الريحِ ، فما بَقِيَ بمكّةَ ولا بالمدينةِ بَيْتٌ إلّا ودَخَلَهُ من ذلك الرمادِ .

⇐ في مثل هذا الظرف ، لصار إماماً ـ على وجه التحقيق ـ في العمل بهذه الآية وفي تنفيذ هذا التكليف ، ولصار أمير المؤمنين مأموماً ؛ وليس الأمر كذلك .

وهذه الرواية الواردة عن ابن عبّاس مرويّة في «حلية الأولياء» ج ١ ، ص ٦٢ ؛ و«مطالب السؤول» ص ٢١ عن «الحلية» ؛ وفي «ينابيع المودّة» ص ٢١٢ .

فقال له (الحسن عليه السلام) : يَا أَبَتِ وَمَا تَأْوِيلُهَا ؟

فقال : يا بُنَيَّ إِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَايَ فَإِنَّ أَبَاكَ مَقْتُولٌ ، وَلَا يَبْقَى بِمَكَّةَ حِينَئِذٍ وَلَا بِالمدينةِ بَيْتٌ إِلَّا وَيَدْخُلهُ مِن ذَلِكَ غَمٌّ ومُصِيبَةٌ مِنْ أَجْلِي .[1]

إنّ مكارم أخلاق أمير المؤمنين ومعالي درجاته ومقاماته الروحيّة هي التي جعلته إماماً للبشريّة . فهو وصيّ رسول الله الذي جاء فيه : **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** .[2]

وما أروع ما أنشد الإمام الشافعيّ حسب نقل «ينابيع المودّة» :

قِيلَ لِي قُلْ فِي عَلِيٍّ مَدْحاً ... ذِكْرُهُ يُخْمِدُ نَاراً مُؤصَدَه

قُلْتُ لَا أَقْدِمُ فِي مَدْحِ امْرِئٍ ... ضَلَّ ذُو اللُّبِّ إِلَى أَنْ عَبَدَهْ

وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى قَالَ لَنَا ... لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ لَمَّا صَعَّدَهْ

وَضَعَ اللَّهُ بِظَهْرِي يَدَهُ ... فَأَحَسَّ الْقَلْبُ أَنْ قَدْ بَرَّدَهْ

وَعَلِيٌّ وَاضِعٌ أَقْدَامَهُ ... فِي مَحَلٍّ وَضَعَ اللَّهُ يَدَهْ[3]

١ـ «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦٧٠ .

٢ـ الآية ٤ ، من السورة ٦٨ : القلم .

٣ـ «ينابيع المودّة» الباب ٤٨ ، ص ١٤٠ .

المجلس الثالث والعشرون

المراد بالمبعوثين بنفخ الصور، والأفراد المستثنون



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مطالب أُلقيت في اليوم الثالث والعشرين من شهر رمضان المبارك)

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.[1]

ذكرنا سابقاً أنّ هاتين النفختين في الصور من باب تشبيه المطالب العقليّة الرفيعة والمعاني الكلّيّة المجرّدة بالمطالب المحسوسة الجزئيّة ، فحين يريد الملوك والسلاطين ـ عادةً ـ أن يُسيّروا أفواجهم للقتال فإنّهم يعدّون صوراً وبوقاً فينفخون فيه للنفير والاستعداد ، ثمّ ينفخون فيه أُخرى للحركة صوب الجهة التي يريدون التحرّك إليها .

وهكذا فعلى أثر النفخ الأوّل في الصور يموت جميع الناس ، وهذا

١ـ الآيتان ٦٨ و ٦٩ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

يعني الفناء في ذات الله تعالى ، لأنّ على جميع الموجودات أن تعود ـ دونما استثناء ـ إلى الله تعالى .

وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ .[1]

أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ .[2]

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ .[3]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ .[4]

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ .[5]

وأمثال هذه الآيات الكريمة كثيرة في القرآن الكريم ، ودالّة على أنّ جميع الموجودات يجب أن تفنى في ذات الله تعالى .

ثمّ يُنفخ في الصور ثانية (وهو صور الإحياء) فيحصلون على **البقاء بالله** ، فيتشرّف البشر والنفوس العالية للملائكة السماويّين بمقام البقاء ـ بعد نيلهم للفناء ـ فيبقون ببقاء الذات المقدّسة للحضرة الأحديّة .

وعلينا أن نرى ، مَن هم المعنيّون بتعبير **مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ** ؟ ومَن هم الأفراد الذين يشكّلون مصداق هذا الاستثناء في **إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ** ؟

إنّ المراد بـ **مَن فِى ٱلْأَرْضِ** هم الأفراد الذين رحلوا عن هذه الدنيا ، إلى عالم البرزخ ، لا أُولئك الأحياء على ظهر الأرض حاليّاً ؛ ذلك لأنّ

١ـ الآية ٢٨ من السورة ٣ : آل عمران ؛ والآية ٤٢ ، من السورة ٤٣ : النور ؛ والآية ١٨ من السورة ٣٥ : فاطر .

٢ـ الآية ٥٣ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٣ـ الآية ١٢٣ ، من السورة ١١ : هود .

٤ـ الآية ٦ ، من السورة ٨٤ : الانشقاق .

٥ـ الآية ٤٢ ، من السورة ٥٣ : النجم .

الكائنات الموجودة على الأرض إن هلكت بالصور الأوّل ، ثمّ حضرت في القيامة بالصور الثاني فهذا يعني أنّ لها موت واحد وحياة واحدة لا أكثر وأنّها تخطّت عالم البرزخ ، وهو ممّا يتعارض وصريح الآية القرآنيّة الكريمة التي قرّرت أنّ على جميع أفراد البشر أن يعبروا البرزخ ، طالت مدّته أم قصرت ، فالبرزخ على كلا التقديرين ضروريّ :

وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .[1]

وعلى هذا الأساس ، فإن ماتت موجودات الأرض أيضاً من جرّاء النفخ وأُحضرت في القيامة ، فإنّ برزخها سيُتجاوز ويُفقد ، وهو خلاف مفاد القرآن الكريم الذي قضى على جميع أفراد الإنسان بعبور البرزخ **إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** .

وبناء عليه يجب القول إنّ المراد بـ«**وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ**» أُولئك الذين رحلوا عن الدنيا ، فهم في البرزخ في انتظار حلول عالم القيامة ، لأنّ عالم البرزخ ـ كما ذكر سابقاً ـ من تتمّة الدنيا ، فيُقال له عالم الأرض ، كما يُدعى بعالم القبر وبجنّة الدنيا ، ويسمّونه أيضاً بعالم الدنيا الأخير وبتتمّة الدنيا .

وعلى هذا الأساس ، فقد عُبّر عن عالم البرزخ في هذه الآية الشريفة بالأرض ، وعُبّر عن ساكنيه بـ«**مَن فِى ٱلْأَرْضِ**» .

إذَن فأُولئك الذين رحلوا عن الدنيا وهم في عالم البرزخ في صُوَرٍ مثاليّة ، سيموتون جميعاً إثر النفخ الأوّل في الصُّوْرِ . أي أنّهم سيخلعون الصُّوَرَ المثاليّة والقوالب البرزخيّة ويلقون بها جانباً .

ويبيّن الله عزّ وجلّ قصّة أهل البرزخ في القرآن الكريم فيقول :

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا

١ـ الآية ١٠٠ ، عن السورة ٢٣ : المؤمنون .

يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .[1]

وكما يقول القرآن الكريم في خطاب الله سبحانه لمن خفّت موازينهم يوم الجزاء :

قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .[2]

أمّا من في السماوات ، والمعبّر عنهم بـ«**فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ**» ، فالمراد بهم أرواح السعداء والمقرّبين وأرواح الملائكة وأرواح الموجودات المجرّدة القدسيّة والجواهر المتلألئة للعوالم العلويّة التي لم يكن لها أصلاً عبور من عالم البرزخ ، أو التي عبرت عالم البرزخ ، ووردت عالم النفس لتخطّيها ابتلاءات عالم البرزخ ولعدم تحدّدها بعالم الصورة ، فاستقرّت في السماوات .

وآيات القرآن الكريم دالّة على هذا المعنى :

وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ .[3]

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ .[4]

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ .[5]

إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ[6] **وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُ .**[7]

١ـ الآيتان ٥٥ و ٥٦ ، من السورة ٣٠ : الروم .

٢ـ الآيات ١١٢ إلى ١١٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

٣ـ الآية ٢٢ ، من السورة ٥١ : الذاريات .

٤ـ الآية ٣٠ ، من السورة ٣٤ : سبأ .

٥ـ صدر الآية ٧٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

٦ـ وهوالنفس المجرّدة للإنسان المؤمن .

يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ .[8]

تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ .[9]

والآية الشريفة :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ .[10]

والكثير من الآيات القرآنيّة الأُخرى الدالّة على حياة الأنفس في عالم تجرّد النفس ، وعند الله تعالى .

وأمّا تلك الصعقة التي يُصعق بها الناس ، فيُطوى على إثرها بناء الدنيا فتضمحلّ وتتلاشى ، فلا تُدعى بالنفخ في الصور ، بل عُبّر عنها في بعض الآيات القرآنيّة بالصيحة ، إلّا أنّها ليست بالصيحة البرزخيّة :

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ .[11]

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ .[12]

وعلى هذا ، فالصيحات ثلاث : الأُولى صيحة دنيويّة ؛ ونفختان في الصور : نفخة الإماتة ، ونفخة الإحياء .

أمّا تلك الصيحة الدنيويّة التي يموت على أثرها مَن على ظهر الأرض فقد عبّر عنها في القرآن الكريم بـ «الصاخّة» .[13]

٧ـ مقطع من الآية ١٠ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

٨ـ مقطع من الآية ١١ ، من السورة ٥٨ : المجادلة .

٩ـ صدر الآية ٤ ، من السورة ٧٠ : المعارج .

١٠ـ مقطع من الآية ٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .

١١ـ الآية ٢٩ ، من السورة ٣٦ : يس .

١٢ـ الآيتان ٤٩ و ٥٠ ، من السورة ٣٦ : يس .

١٣ـ الصوت الهائل الذي يصلّ الأسماع .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ .[1]

كما عُبّر عنها بالنَقْر والزَّجْر :

فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * [2] **فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ .**[3]

فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ .[4]

كما جرى الحديث عنها بتعبير نداء المنادي :

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ .[5]

والخلاصة ، فقد كانت هذه المطالب تفسيراً لتعبير **مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ** ، وقد علمنا أنّهم الموجودات البرزخيّة والملائكة والأرواح السماويّة من المؤمنين ؛ وعلمنا كذلك أنّ الصيحة التي يموت أهل الدنيا على إثرها هي غير نفختي الصور .

ويمكن خلاصة النتيجة الحاصلة بأنّ المراد بـ«**مَن فِى ٱلْأَرْضِ**» أهل البرزخ المحبوسون في عالم الصورة ، الذين لم يتمكّنوا من الخروج من عالم البرزخ ، وهم **أصحاب الشمال** .

والمراد بـ «**مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ**» الملائكة وأرواح الشهداء والسعداء الذين تخطّوا البرزخ ، إلّا أنّهم لم يفنوا بعد في الذات الأحديّة ، وهم **أصحاب اليمين** .

١ـ الآيات ٣٣ إلى ٣٦ ، من السورة ٨٠ : عبس .

٢ـ أي : إذا نُفخ في الصور .

٣ـ الآيات ٨ إلى ١٠ ، من السورة ٧٤ : المدّثّر .

٤ـ الآية ١٩ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٥ـ الآية ٤١ ، من السورة ٥٠ : ق .

والآن علينا أن نعرف ما المراد بالاستثناء ؟ ومَن هم المستثنون ؟

فالجميع يموتون إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ؛ فلابدّ ـ إذَن ـ أن يكونوا أفضل وأعلى من الملائكة ومن أرواح أصحاب اليمين والمحسنين ، وأن يكون لهم من القدرة والتحمّل إلى درجة أن لا تؤثّر في قلوبهم وآذانهم أبداً تلك الصيحة الشديدة المنبعثة من الصور التي تهلك أهل البرزخ ؛ وكذلك لا تؤثّر فيهم مطلقاً تلك الصيحة التي تُميت ملك الموت وتُهلك جبرئيل وإسرافيل وميكائيل وجميع الملائكة المقرّبين ، فلا تقتلهم ولا تفزعهم أو تُرعبهم .

وكما قلنا ، فقد ورد هذا الاستثناء في آيتين من القرآن ، أي في سورتي النمل والزمر ، وسنبحث الآن في كلتا الآيتين ونبيّن ـ بحول الله وقوّته ـ هذا الاستثناء من القرائن والأمارات الحافّة به .

أمّا في سورة النمل :

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ .[1]

حيث يستفاد معنى إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ من الآيات اللاحقة ، لأنّه يقول بعد ذكر آية أُخرى :

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .[2]

فهو سبحانه يقول في هذه الآيات إنّ فاعل الحسنة في أمن من الفزع والخوف ؛ ومن ثمّ فإنّ استثناء إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ سيشمل الأفراد الذين جاءوا

١ـ الآية ٨٧ ، من السورة ٢٧ : النمل .

٢ـ الآيتان ٩٠ و ٩١ ، من السورة ٢٧ : النمل .

بالحسنة .

والمراد بالحسنة هنا مُطلق الحسنة ، لا عملاً صالحاً واحداً أو خُلُقاً حميداً معيّناً . وذلك أوّلاً : أنّ المراد بالحسنة لو كان عموم الإحسان ، فلا معنى عندئذٍ للاستثناء في آية الفزع ، ولتوجّب أن يكون الجميع في أمان من الفزع ، إذ ليس هناك أحد من أفراد البشر إلّا وقد صدرت منه حسنة وعمل صالح .

وثانياً : أنّ الحسنة قد جُعلت هنا مقابل السيئة ، وقد أوعد الله سبحانه وتعالى جهنّم جزاء السيّئة . لذا فإنّ من عمل الحسنة والسيّئة معاً ، وخلط عملاً صالحاً بآخر طالح ، فهو من فزع يومئذ غير آمن .

وحتماً لابدّ أن يكون الأمان الذي خصّه الله تعالى لأهل الحسنة مختصّاً بالأفراد الذين عملوا الحسنة بصورة مطلقة ، أي بأصحاب الذوات الطيّبة المطهّرة والسيرة والصفات والأخلاق الطيّبة الحميدة النزيهة كلّيّاً ، فأُولئك هم مورد الاستثناء من الفزع عند نفخ الصور .

ومن جهة أُخرى ، نعلم أنّ الله تعالى عدّ السيّئة من الأعمال الخبيثة وقدّر محلّها في جهنّم :

وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ .[1]

وقال أيضاً :

ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ .[2]

١ـ الآية ٣٧ ، من السورة ٨ : الأنفال .

٢ـ صدر الآية ٢٦ ، من السورة ٢٤ : النور .

كما عدّ كلّ كفر ونفاق وشرك خُبثاً ورجساً ونجاسة :

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَـٰفِرُونَ .[1]

إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ .[2]

كما عدّ بعض درجات الإيمان شركاً :

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ .[3]

وعلى هذا الأساس فلن يكون أكثر المؤمنين مصونين من رجس الشرك الخفيّ ونجاسته .

لذلك فإن الذين أصبحوا خالصين من الشرك بكلّ معنى الكلمة ، هم الذين لم تتوجّه قلوبهم أبداً لغير الله تعالى ، والذين لا سكينة لهم ولا اطمئنان إلّا به سبحانه ، والذين لا يجعلون لذاته المقدّسة الكبريائيّة جلّ وعزّ شأنه أيّ شريك في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهذا هو معنى الولاية !

فالأفراد الذين على هذا النحو ستطيب ذواتهم وأفعالهم ، أي أنّ سرّهم وحقيقتهم قد أصبحت طاهرة ومنزّهة ومصونة من وسوسة الشيطان والنفس الأمّارة ، فهم في حرم الأمن والأمان الإلهيّ فرحون مطمئنّون لا تشوبهم شائبة من اضطراب أو قلق .

والآية الشريفة :

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ

١ـ الآية ١٢٥ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢ـ مقطع من الآية ٢٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

٣ـ الآية ١٠٦ ، من السورة ١٢ : يوسف .

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.[١]

عائدة إليهم، لأنّها جعلت الطيّبين بمعنى طيّبي الذات والمطهّرين المنزّهين، أي أنّهم صاروا طاهرين مطهّرين بالولاية التي هي تسليم جميع الأمور، صغيرها وكبيرها، إلى الله تعالى. وسلام الملائكة عليهم هو معنى الأمن والأمان الذي ورد في آية الفزع.

ويُستنتج ممّا ذكر، أنّ المراد بـ«**مَن شَآءَ ٱللَّهُ**» أُولئك الذين أسلموا جميع أُمورهم وفوّضوها إلى الله سبحانه، ووصلوا إلى مقام التوكّل والتفويض والتسليم وعبروا منه، فصارت ذواتهم فانية في ذات الحضرة الأحديّة، والذين لم يدعوا في زوايا نفوسهم شيئاً من شوائب الاستكبار والفرعونيّة وإظهار الوجود؛ وهذا هو معنى الولاية!

وما ألطف وأجمل ما تُشعر آية الولاية بهذا المعنى:

قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ.[٢]

أي من يُسْلِم نفسه ويُقْبِل بكلّيّته إلى الولاية، فإنّا سنجزيه حسناً على حسنته هذه، فهي تتضاعف وتتزايد باستمرار حتّى يصل إلى حدّ الولاية ويرتوي من مصدر الرحمة ومنبع الفيض.

أورد **عليّ بن إبراهيم القمّيّ** ذيل آية الفزع وتفسير الحسنة والسيّئة، قال: **الْحَسَنَةُ ـ وَٱللَهِ ـ وَلَايَةُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَٱلسَّيِّئَةُ عَدَاوَتُهُ.**[٣]

وولاية أمير المؤمنين هي ولاية الله التي مرّ ذكر آثارها

١ـ الآية ٣٢، من السورة ١٦: النحل.

٢ـ الآية ٢٣، من السورة ٤٢: الشورى.

٣ـ «تفسير القمّيّ» ص ٤٨٠.

وخصائصها .

كما يروي الكلينيّ في «الكافي» بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام ، عن أبيه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام :

قال عليه السلام : **الْحَسَنَةُ مَعْرِفَةُ الْوَلَايَةِ وَحُبُّنَا أَهْلِ الْبَيْتِ ؛ وَالسَّيِّئَةُ إِنْكَارُ الْوَلَايَةِ وَبُغْضُنَا أَهْلِ الْبَيْتِ ، ثُمَّ قَرَأَ الآيَةَ .**[1]

ما سبق بيانه حتّى الآن كان راجعاً إلى الاستثناء في آية الفزع ، أمّا الاستثناء في آية الصعق :

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ .

فينبغي أن نرى ما المراد بـ «مَن شَآءَ ٱللَّهُ» في هذه الآية ؟ ومَن هم الأفراد الذين لا يريد الله أن يشملهم الصعق والهلاك ؟

نحن نعلم أنّ لظاهر الآية دلالة على أنّ الأفراد الذين يشملهم الصعق فيهلكون ، هم أولئك الذين يُبعثون بعدئذٍ فإذا هم قيام للّه تبارك وتعالى ، وهم المحضرون في ساحة الله تعالى حسب مفاد الآية :

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ .[2]

ولأنّ عباد الله المخلَصين ـ من جهة ـ قد استثنوا من المحضرين وأُعفوا من الحضور بمفاد الآية :

فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .[3]

فإنّ المراد بـ «مَن شَآءَ ٱللَّهُ» الذين استثنوا في آية **الصعق** ، هم

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ١٨٥ ، الباب ٦٥ .

٢ـ الآية ٥٣ ، من السورة ٣٦ : يس .

٣ـ الآيتان ١٢٧ و ١٢٨ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

عباد الله المخلَصون .

ومن جهة أُخرى فإنّ الله سبحانه وصف عباده المخلَصين في كتابه العزيز بأنّهم مصونون محفوظون من إغواء إبليس حينما طُرد وأُبعد .

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ .[1]

كما أبان سبحانه في القرآن الكريم عن أنّ إغواء الشيطان لهم يكون بالوعود والأماني الكاذبة التي يُمنّيهم بها فيستجيبون له ، فيحشرون إلى جهنّم ليذوقوا العذاب الأليم الشديد بمقتضى شركهم بالله عزّ وجلّ وشقائهم الذاتيّ الذي هو عين الظلم والعدوان .

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .[2]

ويُستفاد من هذه الآية المباركة أنّ اللوم يرجع مباشرة إليهم لا إلى الشيطان ، وأنّ ذلك الذنب والمعصية التي ارتكبوها ناجمة من الشرك ، وأنّهم قد أشركوا وسلكوا سبيل المعصية والذنب بمقتضى شقائهم الذاتيّ .

أمّا **عباد الله المخلَصُونَ** ، فهم الذين طهرت ذواتهم وخلصت من الشرك بجميع أقسامه وأنواعه ، فهم لا يرون لغير الله تعالى أثراً في أيٍّ من العوالم ، ولا يعدّون لغيره وجوداً استقلاليّاً ، ولا يحسّون لغيره اسماً ولا رسماً ، ولا يرون لأنفسهم ـ بعنوان التملّك ـ نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً

١ـ الآيتان ٨٢ و ٨٣ ، من السورة ٣٨ : ص .

٢ـ الآية ٢٢ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

ولا حياةً ولا نشوراً ولا رجوعاً ؛ أي أنّهم لا يمتلكون أيّ قدرة وحياة وعلم وعين وأثر ، وهذا هو معنى الولاية .

وإجمالاً فإنّ أولياء الله المستثنين في آيتي **الفزع والصعق** فلا موت لهم ولا هلاك هم الذين سلكوا طريق الخلوص في الدنيا ، وجعلوا تمام أفعالهم للمعبود جلّ اسمه ، وتخلّصوا من الشرك فعلاً وصفةً وذاتاً ، ووردوا عالم الخلوص ، وتخطّوا جميع درجات المخلِصين (بكسر اللام) وصاروا عين الخلوص ومحضه . لذلك لم يبقَ لهم أيّ وجود ليحتاجوا إلى قبض الروح ، فلقد صار وجودهم وسرّهم وحقيقتهم مندكّة وفانية في ذات الله تعالى . ولقد تربّعوا باستمرار على درجات المحبّة بنوافلهم وبإتيانهم ما يحبّه ويرتضيه المحبوب الحقّ جلّ وعزّ ، فصارت آذانهم أُذن الله وأعينهم عين الله وأيديهم يد الله تعالى . **رَزَقَنَا اللَّهُ وَكُلَّ مَن أَحَبَّ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ** .

إنّ ولاية أمير المؤمنين وأولاده الطيّبين تعني الوصول إلى مقام الفناء المطلق في ذات الله ، والبقاء بالله بعد الفناء ، فعلى إثر هذا نالوا مقام العبوديّة المطلقة ، وولاية وقيادة عالم الإمكان بإذن الله تعالى ، ومقام العصمة والطهارة والعلوم اللدنّيّة ، والتحلّي بأعلى مقامات التفويض والتسليم ، والتخلّق بجميع الأسماء العليا والصفات الحسنى الإلهيّة وهي بأجمعها من لوازم تلك الولاية وآثارها ، لذا فقد جُعلت معرفة ولايتهم حسنة في الرواية الأخيرة التي سلف ذكرها ،كما جُعل إنكار ولايتهم سيّئة .

وإنّا لسعداء حقّاً بامتلاكنا معرفة ولايتهم (لا أنّنا نمتلك مقام الولاية بأنفسنا) فهذا من عظيم دواعي السرور والابتهاج ، لأنّ المعرفة بالولاية ستؤدّي بالطبع إلى الارتباط الواقعيّ بحقيقة الولاية ، وهذا الارتباط سيؤدّي

إلى اللحوق والاتّحاد والانتماء في نهاية المطاف، فيلزم من ذلك طلوع وظهور آثار المتبوع في التابع. وقد ورد في القرآن الكريم في شأن فرعون أنّه يقدم قومه يوم القيامة فيوردهم النار:

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ.[١]

وهذا اللحوق يحصل إثر المحبّة والمتابعة، حيث توجب الجاذبيّة المغناطيسيّة بين الحبيب والمحبوب الاتّحادَ بينهما.

وهكذا فإنّ كلّ طائفة وجماعة ستلحق بإمامها يوم القيامة، فتدخل الجنّة أو النار؛ وسيلحق الشيعة والتابعون والمحبّون لولاية أمير المؤمنين عليه السلام بإمامهم على إثر المحبّة والمودّة والمتابعة، ويرافقونه إلى الجنّة. وهذا الأمر ذو أهميّة كبيرة، وهو ممّا يُثلج أفئدة أتباع الإمام ويبعث فيهم الأمل، حتّى وإن لم يتمكّنوا في الدنيا وبالرغم من كدحهم وسعيهم أن ينالوا مقام العبوديّة المطلقة والولاية الكلّيّة للإمام إثر الإقرار والاعتراف بولايته الحقيقيّة، وباتّباعهم لنهجه وسيرته، وفي ظلّ ألطافه ورأفته، وتبعاً لمصدر مغناطيسيّة محبّته وجذبة ولايته ومودّته سيرافقونه إلى الجنّة.

لقد طهّر أمير المؤمنين وأولاده الطاهرون وجودهم من لوث الأهواء والأفكار الشهوانيّة، ومن أكدار الهواجس الشيطانيّة، لذا فإنّ الرشحات التي تنضح من ذلك النبع ستكون على الدوام أُموراً طاهرة نقيّة صافية. وليس معقولاً أن ترشح من النفوس القدسيّة أكدار وسيّئات، فكلّ إناءٍ بالذي فيه ينضح.

ولو صببتم ماء الورد في قدح فخاريّ فارغ، لرشحت مساماتُه على

١ـ صدر الآية ٩٨، من السورة ١١: هود.

الدوام ماء الورد لا عصير الخلّ ، لذا نجد بعض الناس يعمدون حين يشترون قدحاً فخاريّاً جديداً إلى ملئه بماء الورد ثمّ يفرغونه ويملأونه بالماء القراح ، فيبقى ذلك القدح يبعث رائحة الورد ، ومهماملئ بالماء فسيبقى دائماً فيه عبير ماء الورد .

إنّ أهل بيت العصمة لهم ذوات وأسرار طاهرة ، وهم من المستثنين في آية الفزع والصعق ، إذ لم يعلق بأثواب وجودهم غبار دنس الوجود مطلقاً ،كما أنّ صُور الجلال وصُور الجمال ونفخ الإماتة والإحياء لا تترك أثراً في صماخ آذانهم ولا على وتين قلوبهم ونياطها ، فلقد تخطّوا هذه المراحل ، فلا حياة لهم ولا موت إلّا ببقاء الربّ الودود ،كما أنّ مشيئة الله تعالى لم تتعلّق بشمولهم بالفزع والصعق . على أنّ محبّتهم واتّباعهم يدلّان على نوعٍ من الاتّحاد ، وإلّا فإنّ المودّة والمحبّة الباطنيّة لا تتعلّق بشيءٍ اعتباطاً وبلا داعٍ .

کند هم جنس با هم جنس پرواز　　　کبوتر با کبوتر باز با باز[1]

وبديهيّ أن يكون هناك نوع من الطهارة والنزاهة في نفوس مَن يقتفون آثار ونهج أهل بيت العصمة ونهجهم ، هذا ممّا لا شكّ فيه أبداً ، فلابدّ أنّهم يشعرون بتلك الرغبة والشوق لسلوك سبل ذلك المنهج القويم والصراط المستقيم . وينبغي أن يكون هناك أثر ـ ولو جزئيّ ـ من ذلك المحبوب والمتبوع في هذا المحبّ والتابع ، وإلّا لزم أن يحبّ كلُّ موجود كلَّ موجود آخر ، ولسادت المحبّة والمودّة بين الجميع ، بينما ليس الأمر كذلك .

١ـ يقول : تحلّق الطيور مع أمثالها ، الحمامة مع الحمامة والباز مع الباز .
(وحسب المثل العربيّ : إنّ الطيور على أشكالها تقع) . (م)

يقول المرحوم الملّا صدرا رحمة الله عليه: **وَقَدْ أَثْبَتَ الْفَلَاسِفَةُ أَنَّهُ مَا يَعْرِفُ شَيْءٌ شَيْئاً إِلَّا بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْهُ**؛ وإنصافاً فقد بيّن مطلباً دقيقاً ولطيفاً.

وينبغي على المرء في هذه الحالة أن يَسعد بهذا القدر الموجود من المحبّة والمتابعة، لأنّ هذا الارتباط له حكم النور، حيثما حلّ أزاح الظلام وبدّده. ومهما كان النور ضعيفاً ضئيلاً، إلّا أنّ له قدرة على تبديد الظلام والحلكة، خلافاً للظلمة التي تعجز عن إزاحة النور وإخراجه، فالنور متّصل في النهاية بمنبع النور، وشعاع الشمس لا ينفصل عنها. فالنور الجزئيّ متّصل بالنور الأشمل والأكبر، والنور الضعيف بالنور الأقوى، والكلّ مرتبط في النهاية بمركز إشعاع النور الكلّيّ.

لقد قتلوا أمير المؤمنين عليه السلام، وانتشر خبر شهادته، فحزن كلّ من كان له ارتباط به عليه السلام، وذرفت العيون الدموع غزاراً، وغمرت الحرقة القلوب في مأتم فقدان ذلك الإمام الصادق الحقيقيّ.

وفي نفس الوقت كان هناك أفراد قد فرحوا وأظهروا سرورهم وجذلهم لهذا الخبر المؤسف، فحين أُخبر معاوية بنبأ شهادة الإمام قال:

إِنَّ الْأَسَدَ الَّذِي كَانَ يَفْتَرِشُ ذِرَاعَيْهِ فِي الْحَرْبِ قَدْ قَضَى نَحْبَهُ.

ثمّ تمثّل قائلاً:

قُلْ لِلْأَرَانِبِ تَرْعَى أَيْنَمَا سَرَحَتْ
وَلِلظِّبَاءِ بِلَا خَوْفٍ وَلَا وَجَلِ[١]

ولقد وصل نبأ رحيل وصيّ رسول الله إلى المدينة، فعمّ الحزن والغمّ جميع بيوتها، ولكن انظروا إلى ما تقوله عائشة!

١ـ «منتهى الآمال» الطبع الرحلي، المكتبة العلمية الاسلامية، ج ١، ص ١٣٤

لَمَّا أَنْ جَاءَ عَائِشَةَ قَتْلُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَجَدَتْ ،[1] ثُمَّ تَمَثَّلَتْ بِهَذَا الشِّعْرِ :

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى ... كَمَا قَرَّ عَيْناً بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ

(كناية عن أنّ أمر عليّ قد انتهى ، وأنّه سيرقد في حفرته فلا نهضة له بعدُ ، وأنّنا قد سررنا وغمرتنا اللذّة بهذه الواقعة كما يقرّ المسافر عيناً بإيابه إلى أهله .)

ثُمَّ قَالَتْ : مَنْ قَتَلَهُ ؟

فَقِيلَ : رَجُلٌ مِنْ مُراد .

فَقَالَتْ :

فَإِنْ يَكُ نَائِياً فَلَقَدْ نَعَاهُ ... غُلَامٌ لَيْسَ فِي فِيهِ التُّرَابُ

(تريد القول إنّه كان الأجدر أن يُقتل عليّ على يد رجل من قريش ومن العرب المعروفين ليكون الفخر بذلك من نصيبهم ، لا أن يقوم به رجلٌ مجهول من طائفة عربيّة نائية غير معروفة ؛ إلّا أنّنا سُعداء بأنّ نبأ موته قد أتانا به غُلامٌ لا كان في فيه التراب حين يموت ويُقبر) .

فَقَالَتْ لَهَا زَيْنَبُ بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ : أَلِعَلِيٍّ تَقُولِينَ هَذَا ؟!

فَقَالَتْ : إِنِّي أَنْسَى ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي .[2]

وَكَانَ الَّذِي جَاءَهَا بِنَعْيِهِ سُفْيَانُ بْنُ أَبِي أُمَيَّة بْنُ عَبد شمس بن أبي وقّاص .[3]

١ـ «مقاتل الطالبيين» طبع دار المعرفة ـ بيروت ، ص ٤٣

٢ـ «مقاتل الطالبيّين» ص ٤٢ ؛ و «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ، طبعة بيروت ، سنة ١٣٨٥ هـ ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ ؛ و «تاريخ الطبريّ» تحقيق : محمّد أبوالفضل إبراهيم ، ج ٥ ، ص ١٥٠ ؛ و «الطبقات» لابن سعد ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

٣ـ «مقاتل الطالبيّين» ص ٤٣ .

يقول أبو الفرج الإصبهانيّ في «مقاتل الطالبيّين» :

ثُمَّ تَمَثَّلَتْ (عائشةُ ، بعد هذا الكلام) :

مَا زَالَ إِهْدَاءُ الْقَصَائِدِ بَيْنَنَا بِاسْمِ الصَّدِيقِ وَكَثْرَةِ الْأَلْقَابِ

حَتَّى تَرَكْتُ وَكَانَ قَوْلُكَ فِيهِمْ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ طَنِينَ ذُبَابِ[1]

ولقد قالت عائشة لابن عبّاس ، وكان مأموراً من قِبل أمير المؤمنين عليه السلام بالتحدّث معها بعد حرب الجمل : **إِنَّ أَبْغَضَ الْبُلْدَانِ إِلَيَّ بَلَدٌ أَنْتُمْ فِيهِ .**[2]

وقال عبد الله ابن الزبير (ابن أُخت عائشة ، وكانت تودّه وتحبّه إلى درجة يمكن تسميتها بحدّ العشق) لابن عبّاس يوماً :

إِنِّي لَأَكْتُمُ بُغْضَكُمْ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً .[3]

بينما بكت الأحجار دماً في شهادة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد وردت الأخبار بأمثال ذلك في كتب العامّة ـ فضلاً عن مصنّفات الشيعة ـ إلى الحدّ الذي يطول المقام لاستقصائها جميعاً .

يروي الحاكم (النيسابوريّ) في «المستدرك» ، عن ابن شهاب الزهريّ أنّه قال : قدمتُ دمشقَ وأنا أُريد الغزوَ ، فأتيتُ عبدَ المَلَك (ابن مروان) لأسلّم عليه ، فوجدتُه في قبّةٍ على فرش بقرب القائم وتحته سِماطان ، فسلّمتُ ثمّ جلستُ . فقالَ لي : يا ابنَ شهاب ! أتعلمُ ما كانَ في بيتِ المقدسِ صَباحَ قتل عليّ بن أبي طالب ؟

١ـ «مقاتل الطالبيين» ص ٤٣

٢ـ «أحاديث أُمّ المؤمنين عائشة» ج ١ ، ص ١٩٥ ، عن المسعوديّ و «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد .

٣ـ المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

فقلتُ : نعم !

فقال : هَلُمَّ ! فَقُمْتُ من وراءِ الناسِ حتّى أتيتُ خلفَ القبّةِ ، فحوّل إليَّ وجهَهُ فأحنا عَلَيّ فقال : مَاكانَ ؟

فقلتُ : لَمْ يُرْفَعْ حَجَرٌ مِنْ بَيْتِ المقدسِ إلَّا وُجِدَ تَحْتَهُ دَمٌ .

فَقَالَ : لَمْ يَبْقَ أحدٌ يعلم هَذَا غيري وغيرُك . لَا يَسْمَعَنّ مِنْكَ أَحدٌ ! فما حَدَّثْتُ به حَتّى تُوفّي .[1]

كما يروي الحاكم بسنده عن الزهريّ :

إنَّ أَسْمَاءَ الْأنصاريّة قالتْ : مَا رُفِعَ حَجَرٌ بإيلياءَ لَيْلَةَ قُتِلَ عَلِيٌّ إلَّا وُجِدَ تَحْتَهُ دَمٌ عَبِيطٌ .[2]

ويروي الشيخ الطوسيّ في «الاستبصار» بسنده عن الصدوق ، وهو بسنده المتّصل عن أبي بصير ، عن الإمام أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال : سألَ **هشامُ بنُ عبد الملك** أبي عليه السلامُ فقالَ : أَخْبِرني عن الليلة التي قُتل فيها عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام ، بما استدلَّ النائي عن المصر الذي قُتل فيه عليٌّ ؟ وماكانت العلامةُ فيه للناسِ ؟ وأخبرني هَلْ كانتْ لغيره في قتله عبرة ؟

فقال له أبي : إنّه لمّاكانت الليلةُ التي قُتِلَ فيها عليٌّ صلوات الله عليه لَمْ يُرْفَعْ عَنْ وجهِ الْأرْضِ حَجَرٌ إلَّا وُجِدَ تَحْتَهُ دَمٌ عَبِيطٌ حَتّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، وَكَذلِكَ كانت الليةُ التي فُقِدَ فيها هارونُ أخو موسى صلوات الله عليهما ، وكذلك كانت الليلة التي قُتِلَ فيها يُوشَعُ بنُ نون ، وكذلك كانت الليلةُ التي رُفع عيسى ابن مريم صلوات الله عليه ، وكذلك الليلةُ التي قُتِلَ فيها الحسينُ

١ـ «مستدرك الحاكم» ج ٣ ، ص ١١٣ .

٢ـ «مستدرك الحاكم» ج ٣ ، ص ١٤٤ .

صلواتُ اللهِ عليه .[١]

وورد في «مناقب ابن شهرآشوب» عن ابن عبّاس، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: إنَّ السماءَ والأرضَ لَتبكي على المؤمنِ إذا ماتَ أربعين صباحاً، وإنّها لَتبكي على العالِمِ، إذا ماتَ أربعينَ شَهْراً، وإنّ السماء والأرضَ لَيبكيان على الرسولِ أربعينَ سنةً، وإنّ السماء والأرضَ ليبكيان عليكَ يا عليُّ إذا قُتِلْتَ أَربعينَ سنةً .[٢]

قال ابن عبّاس: لقد قُتِلَ أمير المؤمنين عليه السلام على الأرض بالكوفةِ، فأمطرت السماءُ ثلاثَة أيّامٍ دَماً .

وروى أبو حمزة عن الصادق عليه السلام، وهو مرويّ أيضاً عن سعيد بن المسيّب أنّه لَمّا قُبِضَ أميرُ المؤمنين عليه السلام **لَمْ يُرْفَعْ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ حَجَرٌ إلَّا وُجِدَ تَحْتَهُ دَمٌ عَبِيطٌ .**

وأورد الخطيب (البغداديّ) في «تاريخ بغداد»، والنسويّ في تأريخه أنّ عبدُ الملك بن مروان سأل الزهريَّ: مَاكَانتْ عَلامة يَوْمَ قُتِلَ عَليّ عليه السلام ؟

قال: مَا رُفِعَ حَصَاةٌ مِن بَيْتِ المقدسِ إلّاكَانَ تَحتَها دَمٌ عبيطٌ .[٣]

ونقل المرحوم المجلسيّ عن الصادق عليه السلام أنّه قال: واللهِ لقد بكت السماء والطير والحيوانات ووحوش الفلوات والملائكة على جدّي الحسين . واللهِ لقدكانت الشمس تطلع لمّا قبض جدّي الحسين لشهرين

١ـ «بحار الأنوار» ج ٩، ص ٦٧٧؛ والطبعة الحروفيّة ج ٤٢، ص ٣٠٢.

٢ـ أورد المحدّث العظيم الشأن السيّد هاشم البحرانيّ هذه الرواية في «مدينة المعاجز» ص ١٧٩، إلّا أنّه ذكر في شأن البكاء على أمير المؤمنين لفظ «أربعين خريفاً» بدل «أربعين سنة» .

٣ـ «بحار الأنوار» ج ٩، ص ٦٧٧؛ والطبعة الحروفيّة: ج ٤٣، ص ٣٠٩.

على الجدران ، فكأنّما لُطخت الجدران دما .

هذه هي روح الولاية التي تؤثّر في الجمادات ، أمّا هذا الإنسان الأقسى من الحجر فيسجد (فرحاً) لقتل عليّ .

أفلم تنزل آية سورة التحريم في عائشة وحفصة ؟ ألم يشبّه الله سبحانه تلك المرأتين بامرأتي نوح ولوط حين خانتاهما وعصتاهما !

أورد الزمخشريّ في «الكشّاف» :

«إِن تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ» خِطَابٌ لِحَفْصَةَ وَعَائِشَةَ عَلَى طَرِيقَةِ الالْتِفَاتِ ، لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي مُعَاتَبَتِهِمَا .

وعن ابن عبّاس : **لَمْ أَزَلْ حَرِيصاً عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنْهُمَا حَتَّى حَجَّ وَحَجَجْتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالإِدَاوَةِ ، فَسَكَبْتُ الْمَاءَ عَلَى يَدِهِ فَتَوَضَّأَ . فَقُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟**

فَقَالَ : عَجَباً يَا ابْنَ عَبَّاس ! كَأَنَّهُ كَرِهَ مَا سَأَلْتُهُ عَنْهُ . ثُمَّ قَالَ : هُمَا حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ .[1]

عائشة التي كانت تُعرض عن قُرّتي عين رسول الله وتحتجب عنهما وتأبى أن تراهما أو يرياها . وكان ابن عبّاس يقول إنّ دخول الحسنين عليهما السلام عليها بلا حجاب حلال .

يقول ابن سعد في «الطبقات» بعد ذكر هذا الأمر :

[إنّ زوجة الأب وزوجة الجدّ للأُمّ والجدّ للأب بالنسبة لهما من

---

١ ـ «تفسير الكشّاف» المجلّد الثاني ، ص ١٥٠١ ، طبعة كلكتا سنة ١٢٧٦ ه‍ ، مطبعة «ليسى» وهي أقدم طبعة للكشّاف ؛ وفي الطبعة الأُولى لمطبعة الشرفيّة سنة ١٣٠٧ ه‍ ، ص ٤٧١ ؛ وفي طبعة دار الكتاب العربيّ ـ بيروت لبنان ، سنة ١٣٦٦ ه‍ ، ص ٥٦٦ . وقال ابن حجر العسقلانيّ في كتاب «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشّاف» المطبوع في هامش «الكشّاف» : هذا حديث متّفق عليه .

المحارم] وقد قال أبو حنيفة ومالك بن أنس : الرجلُ يتزوّج المرأة فلا تحلّ لولده ولا لولد ولده من الذكور أن يتزوّجها أبداً ، لا هُمْ ولا أولادُهم ولا أولادُ بناتهم ، وهذا مُجمعٌ عليه [ولم يكن هذا الأمر خافياً على عائشة ، اللهمّ إلّا أن يكون احتجابها منهما لشيءٍ آخر].[1]

ولقد بكت السماواتُ في مأتم سيّد الشهداء ، ولقد انصرفوا عنه وتركوا بدنه الأنور ملقىً على الأرض بلا غُسل ولا كفن .

يقول الإمام السجّاد عليه السلام : [لم يكونوا ليدعوننا نقترب من تلك الأبدان شبراً واحداً ، فمن تقدّم كان جزاؤه الضرب بالسياط ثمّ يُبعدونه عن البدن قهراً] .

وقد ورد في الأثر أنّ الوحوش كانت تأتي فتحيط بذلك البدن وهي منتصبة على قوائمها رافعة أيديها تذرف الدموع ، وأنّ طيور السماء كانت تتحلّق بتلك الأبدان الطيّبة الزكيّة وتبسط أجنحتها فوق البدن المطهّر لسيّد الشهداء عليه السلام فتظلّله من الشمس .

چون صبا دید به صحرا بدن بی کفنش
خاک می‌ریخت به جای کفنش بر بدنش

چون که از مرکب خود شاه به گودال افتاد
عهد یزدان به لبش بود وشفاعت سخنش

آخرین بار که شه جانب میدان می‌رفت
خواهرش داد به او کهنه ترین پیرهنش

تا که دشمن نکند خواهش تن پوش حسین
کهنه پیراهن او بود به جای کفنش

١ـ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ، ج ٨ ، ص ٧٣ . ولم نعثر فيه على العبارات بين المعقوفتين .

گشت آغشته بـه خـونِ دل او پیكر او

از سـم اسب سـواران بـه بـدن تـاختنش[1]

وما أروع وأبدع ما أنشد المرحوم نيّر التبريزيّ في هذا المجال :

شهيد عشق كه تنگست پوست بر بدنش

تو خصم بين كه به غارت برند پـيرهنش

زرِهْ به غارت اگر خصم خيره برد چه غم

كه بود جوشن تن زلف‌هـای پـرشكنش

شهی كه سندس فردوس بـود پـوشش او

روا نـديد بـه تـن خـصم جـامهٔ كـهنش[2]

وقال الشافعيّ في هذا الباب :

تَـــزَلْزَلَتِ الدُّنْـــيَا لِآلِ مُـــحَمَّدٍ

وَكَادَتْ لَهُمْ صُـمُّ الْجِبَالِ تَـذُوبُ

١ـ يقول : حين رأت الصَّبا بدنه الملقى في الصحرا دون كفن ، فقد سفّت عليه الرمالَ كفناً .

وحين هوى الملك من جواده إلى حفرة مقتله ، فقد كان عهد الله بين شفتيه ، والشفاعة حديثه .

ولقد أعطته أُخته ، حين توجّه إلى ساحة القتال للمرّة الأخيرة أرثّ ثيابه وأخلقها .

ولئلّا يستوهب العدوّ من الحسين الثوب الذي يرتديه ، فقد كان أرثّ ثيابه كفناً له .

ولقد تضمّخ بدنه بدماء قلبه ، من حوافر خيول الفوارس الذين هاجموه .

٢ـ يقول : لقد ضاق بشهيد العشق جلد بدنه ، فـانظر إلى الخـصم الذي يـنهب مـنه ثوبه !!

ولا ضَيْر إن سلب العدوّ الضالّ منه درعه ، فدرع بدنه خصلات ذؤابته المؤّاجة .

إنّ الملك الذي مِن سُندس الفردوس رداؤه ، لم يجد لائقاً أن يرتدي الخصم قميصه الخَلِق .

وَغَارَتْ نُجُومٌ وَاقْشَعَرَّتْ كَـوَاكِبٌ
وَهُـتِّكَ أَسْـتَارٌ وَشُـقَّ جُـيُوبُ[1]

١ـ وبداية هذه الأشعار:

تَأَوَّهَ قَـلْبِي وَالْـفُؤَادُ كَـئِيبُ وَأَرَّقَ نَـوْمِي فَـالْمِهَادُ عَـجِيبُ
فَـمَنْ مُـبْلِغٌ عَـنِّي الْـحُسَيْنَ رِسَـالَةً وَإِنْ كَـرِهَتْهَا أَنْـفُسٌ وَقُـلُوبُ
ذَبِـيحٌ بِـلَا جُـرْمٍ كَأَنَّ قَـمِيصَهُ صَـبِيغٌ بِـمَاءِ الْأُرْجُـوَانِ خَـضِيبُ
فَـلِلسَّيْفِ إِعْـوَالٌ وَلِـلرُّمحِ رَنَّـةٌ وَلِلْخَيْلِ مِنْ بَـعْدِ الصَّـهِيلِ نَـحِيبُ

ثمّ يقول بعدها: تزلزلت الدنيا ... البيت ؛ ثمّ يقول بعد البيتين:

يُصَلَّى عَلَى الْمَبْعُوثِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ وَيُـغْزَى بَـنُوهُ إِنَّ ذَا لَـعَجِيبُ
لَـئِنْ كَـانَ ذَنْـبِي حُبُّ آلِ مُـحَمَّدٍ فَـذَا لِكَ ذَنْبٌ لَسْتُ مِنْهُ أَتُـوبُ
هُمُ شُفَعَائِي يَوْمَ حَشْـرِي وَمَـوْقِفِي إِذَا مَـا بَـدَتْ لِلنَّاظِرِينَ خُـطُوبُ

وقد وردت هذه الأبيات في «مناقب ابن شهرآشوب» ج ٢، ص ٢٣٢ و ٢٣٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجلس الرابع والعشرون

المخلصون هم الذين لا يموتون بنفخ الصور



بِسْـمِ اللَّهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ

(مطالب أُلقيت في اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان المبارك)

الحمد للّٰه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ .[1]

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ .[2]

يتضمّن مجمل مفاد هاتين الآيتين أنّ جميع موجودات السماوات والأرض سوف تموت عند نفخ الصور إلّا من شاء اللـه . فتكون النتيجة الحاصلة أوّلاً : أنّ الموت حتميّ لجميع المخلوقات . وثانياً : أنّ هناك أفراداً تعلّقت بهم مشيئة الله فلا يشملهم الفزع والصعق ، ولا يؤثّران في ماهيّتهم ، فلا يرتدون رداء الموت .

١ـ صدر الآية ٦٨ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٢ـ الآية ٨٧ ، من السورة ٢٧ : النمل .

وينبغي أن نرى : مَن هم هؤلاء الأفراد ؟ وأيّ مزية وخصوصيّة يمتلكون بحيث لا تتبدّل حياتهم موتاً ؟ وبحيث يبقون أحياء مخلّدين ؟

مع أنّنا نعلم أنّ جميع موجودات السماء ، من الملائكة والملائكة المقرّبين ، وأرواح المقدّسين ، والحور ، وأرواح الصلحاء والشهداء التي اجتازت عالم البرزخ والتحقت بالسماوات ، وكذلك جميع الموجودات البرزخيّة من المؤمنين والكافرين ينبغي أن يموتوا بلا استثناء إثر الصعقة ، فيكرعون كأس الموت ويفنون .

إذاً فمن المسلّم أنّ الأفراد المستثنين لهم هويّة خاصّة وشاكلة متفرّدة ، بحيث إنّهم أُعفوا من هذا الحكم الإلهيّ العامّ ، وبحيث إنّ هذه الوقائع والحوادث المدمّرة القاصمة والساحقة التي تطبق أرجاء عالم الأحياء من المُلك والملكوت لا تؤثّر فيهم شيئاً .

تلك إذَن سمة إلهيّة وصبغة رحمانيّة رفيعة ومتسامية فيهم ميّزتهم عن جميع الأحياء .

ومن جهة أُخرى فقد جاء في القرآن الكريم :

لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .[1]

هنا نستنتج أنّ المصون عن الهلاك هو وجه الله تعالى .

كما جاء في القرآن الكريم :

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ .[2]

حيث استثني هنا أيضاً وجه الربّ الذي هو وجه الله ، وجُعلت له صفتا الجلال والإكرام .

١ـ مقطع من الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٢ـ الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

وفي الحقيقة فإنّ وجه الله له صفتا **الجلال والجمال**، لأنّ مرجع الإكرام إلى الإحسان والإنعام وهما من صفات الجمال، كما أنّ الجلال والعظمة والأُبّهة تُذكر مقابل الجمال.

وقد جُعلت صفتا الجلال والإكرام في هذه الآية المباركة صفةً للوجه لا للربّ، أي أنّ وجه ربّك هو ذو الجلال والإكرام. وتريد الآية القول إنّ لربّك هاتين الصفتين، وذلك لأنّ «**ذو الجلال**» مرفوع ونعت للوجه، وإلّا لوجب أن تقول: «**ذِي الجلال**» ليكون نعتاً للربّ.

وفي ضوء ذلك، وبالإضافة إلى ما يُستفاد من هذه الآية من أنّ **وجه الربّ** باقٍ وخالد، فإنّه يُستنتج أنّ وجه الله يمتلك صفة الجلال والإكرام؛ ونعلم أيضاً أنّ صفتي الجلال والإكرام ليستا نعتاً لاسم الله، بل نعتاً للّه تعالى نفسه.

تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ.[1]

فيستفاد من ضمّ هاتين الآيتين الأخيرتين أنّ **وجه الله** أعلى وأرفع من اسم الله، لأنّ (ذي الجلال والإكرام) لم تقع نعتاً للاسم، بل جاءت نعتاً للربّ. ولأنّ وجه كلّ شيء هو المُظهر لنفس ذلك الشيء، فإنّ **وجه الله ووجه الربّ** هو الربّ نفسه، حيث نُعت الوجه بنفسه بهاتين الصفتين تارةً، بينما نُعت الربّ بهما تارة أُخرى.

وإذا ما لاحظنا الآن آيات نفخ الصور ـ وقد اتّضح لدينا هذا المطلب ـ وتأمّلنا في مورد الاستثناء وفي هذه الآيات، وقارنّا بينها، لظهر أنّ المراد بـ «مَن شَآءَ ٱللَّهُ» ـ وهم الذين لم يشأ الله موتهم ـ هو وجه الله تعالى.

١ـ الآية ٧٨، من السورة ٥٥: الرحمن.

ذلك لأنّ المقارنة بين آيات نفخ الصور الدالّة على موت جميع الموجودات إلّا من شاء الله ، وبين آيات سورة الرحمن الدالّة على فناء وهلاك كلّ شيء إلّا وجهه ، وإلّا **وجه ربّك** ، ستجعل استنتاج أنّ «مَن شَآءَ ٱللَّهُ» هو **وجه الله** أمراً لا يحتاج إلى تأمّل .

وباعتبار علمنا من الآية الشريفة :

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ .[1]

أنّ القيام والحضور عند الله تعالى مختصّ بمن يموتون في نفخ الصور الأوّل ويُبعثون بنفخ الصور الثاني (نفخ الإحياء) ، فيحضرون أمام الله تعالى .كما نعلم من الآية الشريفة :

فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .[2]

أنّ العباد المخلَصين لا حضور لهم ولا حشر .

لذا فإنّ «مَن شَآءَ ٱللَّهُ» الذين لا يموتون ، هم الذين لا قيام لهم ولا حضور ، وأنّهم عباد الله المخلَصُون .

وبقياس ومقارنة هذه الآيات مع الآيات التي ذكرت في سورة الرحمن ، والتي بشّرت جميع الموجودات بالموت ، واعتبرت أنّ الباقي هو وجه الله سبحانه ، فإنّه يستفاد أنّ وجه الله الباقي الذي لا يطرأ عليه البوار والهلاك هو عباد الله المخلَصون .

إنّ عباد الله المخلَصين حين يرحلون عن الدنيا ، فإنّهم لا يتوقّفون عند البرزخ ، وليس لهم حشر ولا حضور عند القيامة ، ولا تؤثّر شيئاً في

١ـ الآية ٦٨ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٢ـ عجز الآية ١٢٧ ، والآية ١٢٨ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

أيّ منهم الصيحة البرزخيّة الأُولى (صور الإماتة) ولا الصيحة الثانية (صور الإحياء)، لأنّهم عبروا هذه المراتب والدرجات، ووردوا في عالم أعلى من عالم البرزخ وعالم الحشر والنشور والحساب والكتاب والعرض والسؤال، وتحقّق وجودهم وسرّهم بحقيقة وجه الله، حيث لا سبيل هناك للموت والبوار والفناء والعدم.

وبطبيعة الحال فإنّ هذه المقامات والدرجات خاصّة بالمخلَصين (بفتح اللام على اسم المفعول) لا المخلِصين (بكسر اللام على اسم الفاعل) لأنّ المخلِصين (بالكسر) هم الذين خطوا خطواتهم سالكين في مقام مجاهدة النفس الأمّارة في طيّ طريق القرب والخلوص والفناء، إلّا أنّ وجودهم وسرّهم ـ مع ذلك ـ لم يتمحّض ويخلُص تماماً، ومجاهدتهم لم تنتهِ بعدُ، فهم لا يزالون في جدال ونزاع ومجاهدة مع النفس الأمّارة والشخصيّة والأنانيّة وفي صفوف ومراحل مختلفة من وادي السير والسلوك هذا.

أمّا المخلَصين (بالفتح) فقد انتهت مراحل مجاهدتهم ونالوا مقام الطهارة والنزاهة، سواء الطهارة في مقام الفعل أو في مقام الأخلاق والملكات والصفات، أو في مقام السرّ والذات. فقد اجتازوا جميع هذه المراحل، ووردوا في حرم الله طاهرين مطهّرين، ووصلوا إلى مقام الفناء في ذات الحضرة الأحديّة. **وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفعاً وَلَا ضَرّاً وَلَا مَوْتاً وَلَا حَياةً وَلَا نُشُوراً**.

فلا وجود لهم بعدُ ليُصيبه صعق الموت وفزعه، ولم يبق فيهم أيّ شيء من الإنّيّة ليحتاجوا إلى حساب وكتاب، فلقد أنهوا حسابهم وكتابهم في الدنيا حين سلكوا بخطوات صادقة، ثابتة طريق لقاء المعبود، ثمّ خطوا بعد الموت الطبيعيّ الدنيويّ في جنّة الخُلد وجنّة الذات، منعّمين بنعم لقاء

وشهود جمال وجلال الحضرة الأحديّة .

فَأُولَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ .[1]

نعم ، إنّ أحوال ومقامات المخلَصين لا تتّسع لها صدور غيرهم من أفراد البشر ، لأنّ ثواب ونتائج أعمالهم لا تخطر على بال بشر ، ويقصر عنها شأن صقر العقل البعيد التحليق ، ولا تدركها ولا ترقى إليها أفكار العقلاء والعلماء ،كما أنّ عُقبان الفكر والفطنة والدراية ، بأجنحتها القويّة المتينة ، لو رامت استنشاق نسمة من تلك الحالات والمقامات لحبطت وعجزت .

وحين لا يكون لهم من جزاء إلّا الذات المقدّسة للمعبود جلّ وعلا ، فكيف ستكون درجاتهم ـ والحال هذه ـ في مستوى فهم وعلم البشر وفي وسع الفكر والعقل ؟

نُقل عن «التفسير الصغير» للفضل بن الحسن الطبرسيّ أنّه قال : جاء في حديث :

يقول الله تعالى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ؛ فَلَهُ مَا أَطْلَعْتُكُمْ عَلَيْهِ . اقْرَأُوا إنْ شِئْتُمْ : «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ» .[2 و 3]

وعن «أسرار الصلاة» للشهيد الثاني عليّ بن أحمد العامليّ ، عن الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال :

قَالَ اللَّهُ : لَا أَطَّلِعُ عَلَى قَلْبِ عَبْدٍ ، فَأَعْلَمُ فِيهِ حُبَّ الإخْلَاصِ

١ـ عجز الآية ٤٠ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٢ـ «كلمة الله» ص ١٣٤ .

٣ـ وهذه الآية هي الآية ١٧ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

لِطَاعَتِي ، وَابْتِغَاءِ وَجْهِي إِلَّا تَوَلَّيْتُ تَقْوِيمَهُ وَسِيَاسَتَهُ .[1]

بلى ، إنّ المخلَصين يمتلكون ـ بنصّ آيات القرآن الكريم وصريحها ـ آثاراً وخصائصَ لا نَصيب للآخرين فيها .

الأُولى : أنّه بأيّ وجه من الوجوه لا سبيل للشيطان ولا تسلّط ولا قدرة له عليهم ؟ وذلك بنصّ الآية القرآنيّة الكريمة :

فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ .[2]

وبديهيّ أنّ هذا الاستثناء ليس تشريعيّاً ، بل إنّ الشيطان لا قدرة له على المخلَصين بعدُ ، وذلك بسبب اقتدارهم الذاتيّ في مقام التوحيد ، فلا يمكنه ـ لضعفه وعجزه ـ الوصول إليهم في هذه المرحلة .

بلى ، لقد محض المخلَصون أنفسهم وأخلصوها للّه تعالى ، لذا فأينما نظروا يرون الله سبحانه تعالى في كلّ الأشياء ، وأينما ظهر لهم الشيطان وبأيّ كيفيّة كانت أو صورة فإنّهم ينظرون إلى ذلك الشيء بالنظر الإلهيّ لتكون لهم منه عبرة إلهيّة .

لهذا فقد أقرّ الشيطان منذ الوهلة الأُولى واعترف بعجزه ومسكنته أمام هذه الطائفة وتدرّع دونهم ؛ وإلّا فإنّ ذات الشيطان لإغواء بني آدم ، وليس بالذي يرحم أحداً أو يُعرض عن إغواء وإضلال أحد .

الثاني : أنّ هذه الطائفة قد أُعفيت وفرغت من محاسبة الحشر الآفاقيّ ومن الحضور في تلك الساحة والعرصة .

وقد ورد في القرآن الكريم : **وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ .**

---

١ ـ «كلمة الله» ص ١٣٨ .

٢ ـ معظم الآية ٨٢ والآية ٨٣ ، من السورة ٣٨ : ص .

وذلك لأن هذه الآية ـ كما قلنا سابقاً ـ حين تُضمّ إلى الآية الشريفة : **فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .**

سيتّضح أنّ هذه الطائفة الآمنة من صعقة القيامة هم عباد الله المخلَصون . وذلك لأنّهم قتلوا في جهاد الأنفس من خلال المراقبة والرياضة الشرعيّة والتحقوا بالحياة الأبديّة ، وعبروا القيامة العظمى الأنفسيّة ، وحوسبوا في مرحلة المجاهدة ، وها هم قد ارتدوا خلعة الحياة الأبديّة عند ربّهم إثر القتل في سبيل الله ، فهم منعّمون بالرزق الخاصّ النازل من الخزانة الأبديّة ، قال عزّ من قائل :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .[1]

إضافةً إلى ذلك فإنّنا نعلم أنّ الإحضار فرع على عدم الحضور ؛ فعباد الله المخلَصون كانوا حاضرين في كلّ مكان قبل ظهور طليعة القيامة ، وكانوا مطّلعين على جميع الأحوال . لأنّه يقول : **عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .**

الثالث : أنّ ما يلحق كلّ امرئ من الأجر والثواب يوم القيامة إنّما هو مقابل عمله ، اللهم إلّا هذا الصنف من العباد ، فالكرامة الإلهيّة لهم فوق أجر العمل وثوابه :

وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .[2]

فإن قيل إنّ مفاد هذه الآية هو أنّ طائفة المعذّبين يُجزون وفق أعمالهم ، إلّا عباد الله المحسنين فجزاؤهم ليس مقابل العمل ، بل يجزيهم

١ـ الآية ١٦٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ الآيتان ٣٩ و ٤٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

الله بمنّه وفضله وكرمه .

فإنّنا نقول في الإجابة : إنّ مفاد الآية مُطلق ، ولا اختصاص في فخاطبتها بطائفة المعذّبين .

ناهيك عن أنّ مجازاة العباد بالفضل والكرم لا تتنافى مع الجزاء في مقابل العمل ، لأنّ معنى الفضل أن يمنّ الله المنّان بجزاء كبير مقابل عمل صغير ، فهو في الحقيقة يعدّ العمل الصغير كبيراً ، إلّا أنّ الجزاء ـ مع هذا كلّه ـ قد وقع مقابل العمل ، بينما مفاد الآية الشريفة غير هذا . إذ تتضمّن أنّ العباد المخلَصين لله لا يُجزون مقابل أعمالهم .

كما يقول في آية أُخرى :

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ .[1]

فيتضّح أنّ هناك من الكرامات الإلهيّة ما سيُعطى فوق إرادتهم ومشيئتهم ، وأعلى من مستوى فكرهم ، وأرفع ممّا يرقى إليه ويُحلّق فيه طائر اختيارهم وإرادتهم ، وهي نكتة جديرة بالملاحظة والتأمّل .

الرابع : أنّهم يمتلكون مقاماً منيعاً ومنصباً رفيعاً ومرتبة عظيمة ، بحيث يمكنهم الثناء على الله وحمد ذاته الأبديّة كما هو حقّه وأهله ، وكما تستحقّ ذاته القدسيّة .

قال عزّ وجلّ :

سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .[2]

وهو غاية ومنتهى كمال المخلوق ، وذروة منصب الممكن .

وقد ذكرنا هذه الميزات الأربع في رسالتنا الموسومة بـ «لبّ اللباب

١ـ الآية ٣٥ ، من السورة ٥٠ : ق .

٢ـ الآيتان ١٥٩ و ١٦٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

در سير وسلوك أُولى الألباب»[1] من تقريرات الدروس العرفانيّة لسماحة العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه ، وأوردناها هنا للمناسبة .

وقد ورد في الأخبار الواردة عن المعصومين صلوات الله عليهم في شأن مقامات المخلَصين ودرجاتهم تفاصيل عجيبة تُذهل الألباب . إذ يروي أحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ في كتاب «المحاسن» عن عبد الرحمن بن حماد ، عن حنان بن سدير ، عن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله ، قال :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : مَا تَحَبَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ؛ وإِنَّهُ لَيَتَحَبَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، إِذَا دَعَانِي أَجَبْتُهُ ، وَإِذَا سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي فِي مَوْتِ مُؤْمِنٍ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ .[2]

وقد أورد المجلسيّ هذه الرواية في «بحار الأنوار» المجلّد الخامس عشر ، الجزء الثاني ، باب حبّ الله تعالى ، ص ٢٩ .

ويقول ابن فهد الحلّيّ في «عدّة الداعي» : **وَفي الحديث القدسيّ : يَابْنَ آدَمَ أَنَا غَنِيٌّ لَا أَفْتَقِرُ ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ ، أَجْعَلْكَ غَنِيّاً لَا تَفْتَقِرُ . يَابْنَ آدَمَ أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ ، أَجْعَلْكَ حَيّاً لَا تَمُوتُ . يَابْنَ آدَمَ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ ، أَجْعَلْكَ تَقُولُ**

١ـ فارسيّ ، ومعرّبه : «رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب . (م)

٢ـ «المحاسن» ج ١ ، كتاب مصابيح الظلم ، الباب ٤٧ المحبوبات ، ص ٢٩١ .

لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ.[1]

ويقول الحافظ رجب البرسيّ في «مشارق أنوار اليقين» : **ورد في الحديث القدسيّ : إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً أَطَاعُوهُ فِيمَا أَرَادَ ، فَأَطَاعَهُمْ فِيمَا أَرَادُوا ؛ يَقُولُونَ لِلشَّيْءِ : كُنْ فَيَكُونُ**.[2]

بلى ، لقد خطى هؤلاء بقدم صادقة سبُل مجاهدة النفس الأمّارة ، وتخطّوا الإنّيّة ، ووصلوا إلى مقام معرفة النفس ، وبالنتيجة إلى ما يلازم ذلك تبعاً للأخبار الواردة ، فقد وصلوا إلى مقام معرفة الله تبارك وتعالى ، وأصبحت كلّ ذرّة في وجودهم طاهرة مطهّرة من لوث ودنس الكدورات الشيطانيّة ، وتخلّصوا تماماً من الرذائل الأخلاقيّة والوجوديّة ، فلا قصد ولا مقصود لهم إلّا ذات الحضرة الأحديّة ورضاها ؛ أُولئك الذين نصبوا خيامهم وسرادقاتهم خارج الدنيا وما فيها ، وخارج الآخرة وما فيها ، أي خارج جميع لذائذ العالمين ، فلم يطووا طريقاً وسبيلاً إلّا سبيل تحصيل مقام القرب المعنويّ والخُلوص . لذا لم يعد لهم إرادة لهم ولا رغبة إلّا إرادة الله سبحانه واختياره .

أُولئك الذين عاينوا ظهورات وتجلّيات الحقّ المتعال في جميع العوالم ، ومسّوا ولامسوا في مقام شهود إرادة الله واختياره إلّا **وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ**.[3]

فأصبح وجودهم مرآة تجلّيات الله سبحانه وتعالى ، وحيث دَفنوا في مقبرة النسيان جميع مراتب إظهار الوجود . لا أن يكون قد صار لهم

١ـ «عُدّة الداعي» ص ٢٣٣ .

٢ـ «كلمة الله» ص ١٤٣ .

٣ـ الآية ٣٠ ، من السورة ٧٦ : الإنسان .

ـ والعياذ بالله ـ وجود في مقابل وجود الله تعالى ، أو صارت لهم قدرة وعلم وحياة منفصلة عنه تعالى ، فتلك هي الفرعونيّة .

بل إنّ قدرتهم وعلمهم وحياتهم قد أصبحت كلّها مندكّة وفانية في قدرة الله وعلمه وحياته ، فهم لا يرون لأنفسهم ـ بأيّ وجه من الوجوه ـ حياةً ولا علماً ولا قدرة ، بل يرون أنّ الله جلّ وعزّ هو المصدر الأوحد للحياة والعلم والقدرة ، فلملموا ـ من ثمّ ـ موائدهم ومتاعهم جمعاء أمام ذاته اللا متناهية الأزليّة الأبديّة السرمديّة ، وواجهوا نسبة هذه الصفات إليهم بالتوبة والاعتذار والخجل والحياء ، وتخطّوا ذواتهم خارجاً إلى أجلٍ غير مسمّى ، والتحقوا بالحقّ .

وما أجمل ما أفصح شاعرنا الحكيم الفارسيّ سعدي الشيرازيّ عن هذا المعنى بقوله :

ره عقل جز پيچ در پيچ نيست
بر عارفان جز خدا هيچ نيست

توان گفت اين نكته با حق شناس
ولى خرده گيرند أهل قياس

كه پس آسمان و زمين چيستند
بنى آدم و ديو و دَد كيستند

همه هر چه هستند از آن كمترند
كه با هستيش نام هستى برند

عظيم است پيش تو دريا به موج
بلند است خورشيد تابان به اوج

ولى أهل صورت كجا پى برند
كه ارباب معنى به مُلكى درند

كـه گـر آفـتابست يک ذرّه نـيست
وگر هفت درياست يكقطره نـيست
چـو سـلطان عـزّت عَـلَم در كشـد
جهان سر به جـيب عـدم در كشـد[1]

أُولئك هم الذين لا يعدّون عالم الاعتبارات إلّا سراباً ، ولا يعتقدون بوجود أصيل غير أصالة الحقّ في جميع عوالم الوجود .

ولقد أجاد الشاعر العربيّ في وصفهم حين قال :

أَلَا إِنَّ الْـوُجُودَ بِـلَا مَـحَالٍ خَـيَالٌ فِـي خَـيَالٍ فِـي خَـيَالِ
وَلَا يَـقْظَانَ إِلَّا أَهْـلُ حَـقٍّ مَعَ الرَّحْمَنِ هُمْ فِي كُلِّ حَالِ
وَهُـمْ مَـتَفَاوِتُونَ بِـلَا خِـلَافٍ فَيَقْظَتُهُمْ عَـلَى قَـدْرِ الْكَـمَالِ
هُمُ النَّاسُ الْمُشَارُ إِلَى عُلَاهُمْ لَهُمْ دُونَ الْوَرَى كُـلُّ التَّـعَالِي
حَظُوا بِالذَّاتِ وَالأَوصَافِ طُرّاً تَعَاظَمَ شَأْنُهُمْ فِي ذِي الْجَلَالِ
فَطَوْراً بِـالْجَلَالِ عَـلَى الْـتِذَاذٍ وَطَـوْراً بِـالتَّلَذُّذِ بِـالْجَمَالِ

١ـ «بوستان سعدى» ص ١١٣ ، طبعة محمد علي فروغي ، ضمن الكلّيّات .
يقول : ليس سبيل العقل إلّا متاهات ، وليس عند العارفين من موجود إلّا الله .
وهذه النكتة يمكن قولها لمن يعرف الحقّ ، أمّا أهل القياس فسيعترضون عليها .
(ويقولون) إذن ما هذه السماوات والأرض ؟ وما البشر والجنّ والوحوش ؟
لكنّ هؤلاء مهما كانوا فهم أصغر ـ مع وجوده هو ـ مِن أن يُطلق عليهم اسم الوجود .
عظيمٌ عندك البحر بأمواجه ، ومتعاليةٌ لديك الشمس الساطعة في أوج السماء .
ولكن أنّى لأهل الصورة أن يدركوا أنّ أصحاب المعنى مزّقوا المُلك وكشفوه .
فليست ـ وإن كانت شمساً ـ ذرّة واحدة ، وليست ـ وإن كـانت أبـحراً سـبعاً ـ قـطرة واحدة .
وحين يلوّح سلطان العزّة بالراية عالياً ، فإنّ العالَم سيتوارى في جيب العدم .

سَرَتْ لَذّاتُ وَصْفِ اللهِ فِيهِمْ لَهُمْ فِي الذّاتِ لَذّاتٌ عَوالِي[1]

وأنّ درجات ومقامات أمثال هؤلاء الأفراد، وقَدْرهم وجلالهم عند الله المتعال إلى الحدّ الذي يرفع الله ـ ببركة وجودهم ـ العذاب عن الأرض، ذلك العذاب الذي ينزل على العُصاة والمتمرّدين.

يروي الكلينيّ في «الكافي» بسنده المتّصل عن أبي حمزة الثماليّ، عن الإمام باقر العلوم عليه السلام، قال:

مَكْتُوبٌ في التوراةِ الّتِي لَمْ تُغيَّر أَنَّ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ:

يَا رَبِّ! أَقَرِيبٌ أَنْتَ مِنّي فَأُنَاجِيكَ؟ أَمْ بَعِيدٌ فَأُنَادِيك؟

فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: يَا مُوسَى أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي.

فَقَالَ مُوسَى: فَمَنْ فِي سِتْرِكَ يَوْمَ لَا سِتْرَ إِلَّا سَتْرُكَ؟

قَالَ: الَّذِينَ يَذْكُرُونَنِي فَأَذْكُرُهُمْ، وَيَتَحَابُّونَ فِيَّ فَأُحِبُّهُمْ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُصِيبَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِسُوءٍ ذَكَرْتُهُم، فَدَفَعْتُ عَنْهُمْ بِهِمْ.[2]

كما يروي في «عدّة الداعي» عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله قال:

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى عَبْدِي الاشْتِغَالُ بِي نَقَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي مَسْأَلَتِي وَمُنَاجَاتِي؛ فَإِذَا كَانَ عَبْدِي كَذَلِكَ فَأَرَادَ أَنْ يَسْهُو حُلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَسْهُو.

١ـ «الإنسان الكامل» عبد الكريم الجيليّ، ج ٢، ص ٢٦.

٢ـ «أُصول الكافي» ج ٢، ص ٤٩٦؛ كما أورد هذه الرواية في «عدّة الداعي» الطبعة الحجريّة، ص ١٨٤.

أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقّاً ؛ أُوْلَئِكَ الْأَبْطَالُ حَقّاً ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُهْلِكَ أَهْلَ الْأَرْضِ عُقُوبَةً ، زَوَيْتُهَا عَنْهُمْ مِنْ أَجْلِ أُولَئِكَ الْأَبْطَالِ. [١ و ٢]

كما ورد في «عدّة الداعي» أنّه جاء في بعض الأحاديث القدسيّة أنّ الله تعالى يقول :

أَيُّمَا عَبْدٍ اطَّلَعْتُ عَلَى قَلْبِهِ فَرَأَيْتُ الْغَالِبَ عَلَيْهِ التَّمَسُّكَ بِذِكْرِي ، تَوَلَّيْتُ سِيَاسَتَهُ وَكُنْتُ جَلِيسَهُ وَمُحَادِثَهُ وَأَنِيسَهُ. [٣]

وكذلك يذكر في «عدّة الداعي» عن الحسن بن أبي الحسن الديلميّ في كتابه ، عن وهب بن منبّه حديثاً في خطاب الله عزّ وجلّ لداود عليه السلام ، من جملة فقراته :

يَا دَاوُدُ ! ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ؛ وَجَنَّتِي لِلْمُطِيعِينَ ؛ وَحُبِّي لِلْمُشْتَاقِينَ ؛ وَأَنَا خَاصَّةً لِلْمُحِبِّينَ. [٤]

وقد استبان ، بذكر هذه المطالب التي كانت شرحاً موجزاً عن حالات المخلَصين ، أنّ الله تعالى كفيل المخلَصين ووكيلهم ووليّهم في جميع أُمورهم ، وأنّهم تخطّوا جميع الدرجات والمقامات واللذائذ الشهويّة والغضبيّة وحبّ الجاه والمال والرياسة ، فصارت أعمالهم خالصة صرفاً ومحضاً للمعبود الأزليّ الأبديّ .

١ـ أورد السهرورديّ هذا الحديث الشريف في «عوارف المعارف» بهذا اللفظ : قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : يقول الله تعالى : إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي ، جعلتُ همّته ولذّته في ذكري ، عشقني وعشقته ، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه لا يسهو إذا سها الناس ، أُولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أُولئك الأبطال حقّاً ، أُولئك الذين إذا أردتُ بأهل الأرض عقوبةً أو عذاباً ، ذكرتهم فيها فصرفته عنهم .

٢ و ٣ـ «عدّة الداعي» ص ١٨٤ .

٤ـ «عدّة الداعي» ص ١٨٦ .

فهم ـ لأجل ذلك ـ أحياء بحياة الله عزّ وجل، وباقون ببقاء تلك الذات المتعالية. إذ لا يؤثّر فيهم نفخ الصور، لا النفخة الأُولى (وهي نفخة الإماتة) حيث جاءت عبارة «إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ» فذكرت استثناءهم صراحةً؛ ولا النفخة الثانية (وهي نفخة الإحياء)؛ لأنّهم لم يموتوا ليبُعثوا ويُنشروا من جديد.

وآنذاك تطوى السماوات، ويعود العالم من الشكل والترتيب إلى هيئة خلقته الأُولى:

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ.[1]

وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ.[2]

والشيء الباقي هو وجه الله تعالى والمخلَصون من عباده، لذا فلا بوار ولا هلاك لهم.

على أنّ وجه الله في كلّ مكان، فجميع عوالم الخلقة هي وجه الله من وجهة الارتباط بالله تعالى، فلقد أحاط وجه الله جميع عالم المُلك والملكوت، فلا نجد أيّ ذرّة إلّا وكان الوجود المقدّس للّه له المعيّة معها:

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ.

ومع أنّ بدن أولياء الله له هذه الكميّة والكيفيّة المشهودة، لكنّ حقيقتهم ـ وهي وجه الله ـ قد أحاطت كلّ مكان، وهيمنت على المُلك والملكوت. فهم مع الكلّ، وفي كلّ مكان، ولا يستتر عنهم شيء، لأنّهم قد تخطّوا الجزئيّة والتحقوا بالكلّيّة. قد اخترق امتداد إشعاعاتهم الفكريّة

١ـ صدر الآية ١٠٤، من السورة ٢١: الأنبياء.

٢ـ مقطع من الآية ٦٧، من السورة ٣٩: الزمر.

وبصيرتهم الحقيقيّة الزمان والمكان ، فهم ينظرون إلى العالم من أُفق أوسع وأرحبُ بنظرة أكثر عمقاً ونفوذاً .

ومعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء والأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين هي بأكملها من هذا القبيل ، حيث إنّهم قادرون إثر اتّساع نطاقهم الوجوديّ على أعمال وأفعال خارجة عن أُفق البشر المحدود المقيّد في سجن عالم الطبيعة ، وخارجة عن تعقّل وفكر مفكّري العالم . فهم ينظرون إلى صور عالم الطبيعة من العالم العلويّ ، مستقرّين في صدر القضاء والقدر والأحكام الكلّيّة الإلهيّة ، ترتوي أرواحهم من منهل معدن المشيئة ، ويردون البحر الخضمّ اللا متناهي للمعارف والحقائق الإلهيّة ويصدرون عنه مِلاءً رواءً .

فأنّى ـ والحال هذه ـ للعقول الاعتياديّة التي لم تتحرّر من قبضة عالم الطبع والمادّة وتصرّفه ، أن تطّلع على أسرارهم أو تدرك كُنههم ؟

ونحن نعلم أنّ علم الله وقدرته وحياته وسائر الأسماء والصفات المتشعبة عنها كلّيّة وواسعة وشاملة ، غير محدودة ولا مقيّدة .

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا .[1]

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ .[2]

فأولياء الله والمخلَصين الممحّضين من هوى النفس ، الذين تحقّقوا في مقام الصفات والأسماء بصفات الله وأسمائه ، فصاروا يحكون جمال الله وجلاله بلاكدر وغشّ ،كما تحكي المرآة الصافية ، عالمين بما شاء لهم

١ـ الآية ١١١ ، من السورة ٢٠ : طه .

٢ـ مقطع من الآية ٢٥٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

الله علمه ، وقادرين على فعل ما شاء لهم الله فعله . لا تحجبهم المادّة ولا يصدّهم عالم الطبع والزمان والمادّة .

قال أمير المؤمنين عليه السلام ضمن خطبة موجزة بعد إصابته :

وَإِنَّمَا كُنتُ جَاراً لَكُمْ جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً .[1]

أي أنّ ما أحسستموه منّي قد كان هذا البدن ، بَيدَ أنّ حقيقتي ونفسي خارجتان عن إدراككم ، فلا سبيل لكم للوصول إليهما ، إذ لم يكونا في عالمكم ولم ينتميا إليه أبداً .

ومن هنا فإنّ ما نُسب في بعض الخطب والروايات المأثورة عن أمير المؤمنين عليه السلام من الكرامات والإخبار بالمغيّبات ، وشفاء الأمراض ، وإحياء الموتى ، والتصرّف في موادّ الكائنات ، ينبغي ألّا يُثير العجب أو يبعث على الإنكار .

فهذه الأُمور مسائل تتّفق معها وتُثبت إمكانها وتحقّقها المسائلُ الفلسفيّة ، والعرفانيّة ؛كما تؤيّدها وتتّفق معها الروايات والسنن الشرعيّة .

وعلى الإنسان المنصف الذي لا خبرة له ولا اختصاص في أمر ما ، أن يكل علمه إلى أهله ، وأن يحترز عن العجلة والاستنتاج والحكم نفياً أو إثباتاً .

پشّه کی داند که این باغ از کِی است

در بهاران زاد و مرگش در دِی است[2]

إنّ اهتمام أولياء الله من الأنبياء والأئمّة بالتكاليف والواجبات

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٤٧ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

٢ـ أنّى لهذه البعوضة أن تعلم متى خُلقت هذه الروضة ، فلقد وُلدت في الربيع ، وستموت في الشتاء .

الشرعيّة أمرٌ له موضوعيّته ، لأنّ هذه الأُمور وسيلة للتقرّب إلى الله ولحصول ملكة التقوى وصفاء الباطن ، والاتّصاف بالأسماء والصفات الإلهيّة .

لذلك فقد كان لأُولئك العظماء كلّ تلك المثابرة والإصرار من أجل التزكية وتهذيب النفس والتخلّق بالأخلاق الحميدة والتحلّي بالعبوديّة التامّة ، وعلى الإنسان أن لا يأتي بعمل بلا محتوى معنويّ ولا إخلاص ، فيُبهج نفسه بمحض فعله له . ومن ثمّ فإنّ العمل ضروريّ مع الإخلاص .

فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا .[1]

ولقد أوصى أمير المؤمنين عليه السلام ، إضافة إلى دعوته الدائبة إلى الإخلاص في العمل ، في خطبه ومواعظه ، سرّاً وعلناً ؛ عدّة وصايا بعد إصابته ، تدلّ جميعها على ذروة الاهتمام بالعمل الصالح .

فله عليه السلام وصيّة معروفة مشهورة نقلها المرحوم الكلينيّ وابن شعبة الحرّانيّ والمجلسيّ وغيرهم ،كما ذكرها الطبريّ في تأريخه .[2]

وهي إنصافاً وصيّةٌ جامعة وشاملة لجميع الأُوامر والمواعظ ، حيث يوصي عليه السلام فيها بالتكاليف الشرعيّة واحداً فواحداً ، مؤكّداً كلامه بـ «**اللهَ اللهَ**» ومحرّضاً على تنفيذه بالتذكير بمراقبة الله تعالى في هذا الأمر .

كقوله عليه السلام :

١ـ النصف الثاني من الآية ١١٠ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ـ «فروع الكافي» ج ٥ ، ص ٥١ ، باب الوصايا ؛ و «تحف العقول» ص ١٩٧ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦٦١ ؛ و «تاريخ الطبريّ» تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف ـ مصر ، ج ٥ ، ص ١٤٧ و ١٤٨ .

اَللَهَ اللَهَ فِي ذُرِيَّةِ نَبِيِّكُمْ فَلَا يُظْلَمَنَّ بِحَضْرَتِكُمْ ، وَبَيْنَ ظَهْرَانِيكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَقْدِرُونَ عَلَى الدَّفْعِ عَنْهُمْ .

كما جاء في آخر وصيّته المفصّلة :

حَفَظَكُمُ اللَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ وَحَفِظَ فِيكُمْ نَبِيَّكُمْ ؛ أَسْتَوْدِعُكُمُ اللَهَ ؛ وَأَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامَ وَرَحْمَةُ اللَهِ .

كما أنّ له وصيّة أُخرى أوصى بها الإمام الحسن عليه السلام ، وهي الأُخرى وصيّة جامعة لمحاسن الحِكَم والآداب ، يكفي العمل بها لصون الإنسان من جميع المخاطر الدنيويّة والمهالك الأُخرويّة .

وقد روى الشيخ المفيد في «المجالس» والشيخ الطوسيّ في «الأمالي» والمجلسيّ في «بحار الأنوار» هذه الوصيّة عن ذينك الإمامين الجليلين دون اختلاف في فقراتها وجملاتها .

فيروي الشيخ المفيد **محمّدُ بن محمّد بن النعمان** هذه الرواية سنة أربعمائة وتسعة للهجرة ، في شهر رمضان المبارك ، بسنده المتّصل عن أبي بكر بن عيّاش ، عن الفجيع العقيليّ ، قال : حدّثني الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ، قال : لمّا حضرت أبي الوفاة أقبل يوصي فقال :

هَذَا ما أَوصَى بِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَخُو مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وآلِهِ وَابْنُ عَمِّهِ وَصَاحِبُهُ .

أوّلُ وصيّتي أنّي أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ ، وأنَّ مُحمّداً رسولُهُ وخيرتُهُ ، اختارَهُ بعلمِهِ وارتضاهُ لخيرته ، وأنَّ اللهَ باعث مَن في القبورِ ، وَسَائِلُ الناس عَنْ أعمالِهِم عالم بِما في الصُدورِ .

ثُمَّ إنّي أُوصيك ـ يَا حسن ـ وكَفَى بكَ وَصِيّاً ، بما أوصاني به رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وآله ، فإذاكانَ ذَلَكَ يا بُنَيَّ الزمْ بيتَك ، وابكِ عَلى خطيئَتِكَ ، ولا تكن الدنيا أكبر هَمِّكَ ، وأُوصيك يا بُنَيَّ بالصلاةِ عندَ

وقتِهَا ، والزكاة في أَهْلِها عندَ مَحالّها ، والصمت عند الشُّبهةِ ، والاقتصاد ، والعدل في الرضا والغضبِ ، وحسن الجِوار ، وإكرام الضيف ، ورحمة المجهود وأصحاب البلاء ، وصلة الرَّحِم ، وحبّ المساكين ومجالستهم ، والتواضع فإنّه من أفضل العبادةِ ، وقصر الأملِ ، واذكر الموتَ ، وازهد في الدُّنيا فإنّكَ رهينُ موتٍ ، وغَرَضُ بلاءٍ ، وصريعُ سقمٍ .

وأُوصيك بخشية اللهِ في سرِّ أمرك وعلانيّتك ، وأنهاكَ عن التسرّع بالقولِ والفعلِ ، وإذا عرضَ شيءٌ من أمرِ الآخرةِ فابدأ به ، وإذا عرضَ شيءٌ من أمر الدنيا فتأنّه حتّى تصيب رشدَك فيه ، وإيّاكَ ومواطنَ التُّهمَةِ والمجلسَ المظنون به السُّوء ، فإنّ قرينَ السوءِ يغرّ جليسَهُ . وكن للّهِ يا بُنَيَّ عاملاً ، وعن الخَنَا زَجُوراً ، وبالمعروفِ آمراً ، وعن المنكرِ نَاهِياً ، وواخِ الإخوَانَ في اللهِ ، وأَحبَّ الصالحَ لصلاحه ، ودارِ الفاسقَ عن دينِك ، وابغضه بقلبِك ، وزايله بأعمالك ،كي لا تكونَ مثلَه ، وإيّاكَ والجلوسَ في الطُّرقات ، ودع المماراةَ ، ومجاراةَ مَن لا عقلَ له ولا علم .

واقتصد ، يا بُنَيَّ في معيشتك ، واقتصد في عِبادتك ، وعليكَ فيها بالأمرِ الدائمِ الذي تطيقه ، والزم الصمتَ تسلم ، وقدّمْ لنفسك تَغنَم ، وتعلّم الخيرَ تَعْلم ، وكُن للّهِ ذَاكراً على كلِّ حالٍ ، وارحمْ من أهلك الصغيرَ ، ووقّرْ منهم الكبيرَ ، ولا تأكلنَّ طعاماً حتّى تتصدّق منه قبل أكلِهِ ، وعليك بالصومِ فإنّه زَكاةُ البدنِ وجُنّةٌ لأهله ، وجاهد نفسَكَ ، واحذر جليسَكَ ، واجتنب عدوَّكَ ، وعليك بمجالسِ الذكرِ ، وأكثرْ من الدُعاءِ فإنّي لم آلك يا بُنَيَّ نُصحاً ، وهذا فِراقُ بيني وبينك .

وأُوصيك بأخيكَ محمّد خَيراً ، فإنّه شقيقك وابنُ أبيك ، وقد تعلم حُبّي له ، فأمّا أخوك الحسينُ فهو ابنُ أُمّك ، ولا أزيد الوصاة بذلك ، واللهُ الخليفة عليكم ، وإيّاهُ أسألُ أن يُصلحكم ، وأن يكفَّ الطُّغاةَ البُغاةَ عنكم ،

والصبرَ الصبرَ حتّى ينزل اللهُ الأمرَ ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليّ العظيم .[١]

ولقد قال ابن أبي الحديد (المعتزليّ) في قصيدته الرائيّة ، وهي من علويّاته السبعة :

وَوَارِثُ عِلْمِ الْمُصْطَفَى وَشَقِيقُهُ
أَخاً وَنَظِيراً فِي الْعُلَى والْأَواصِرِ[٢]

هُوَ الْآيَةُ الْعُظْمَى وَمُسْتَنْبِطُ الْهُدَى
وَحَيَاةُ أَرْبَابِ النُّهَى وَالْبَصَائِرِ

تَعَالَيْتَ عَنْ مَدْحٍ فَأَبْلَغُ خَاطِبٍ
بِمَدْحِكَ بَيْنَ النَّاسِ أَقْصَرُ قَاصِرِ[٣]

١ـ «مجالس المفيد» المجلس ٢٥ ، ص ١١٨ ؛ و «أمالي الطوسيّ» المجلس الأوّل ، الطبعة الحجريّة ، ص ٤ و ٥ ؛ وفي طبعة النجف ص ٦ و ٧ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦٤٩ طبعة القطع الرحليّ .

٢ـ الآصرة : الرابطة والعلاقة التي تنشأ بين إنسان وآخر إثر قرابة أو عمل حسن ، والجمع الأواصر .

٣ـ «ديوان المعلّقات السبعة» حيث طبعت ضمنه قصائد ابن أبي الحديد ، و هذه القصيدة تدعى بالرائيّة و مطلعها :

لِمَنْ ظُعُنٌ بين الغميمِ و حاجرِ بَرَزْنَ شُموساً فِي ظَلَامِ الدَيَاجرِ

المجلس الخامس والعشرون

الأنبياء والأئمة متحققون بأسماء الله الحسنى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مطالب أُلقيت في اليوم العشرين من شهر رمضان المبارك)

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ .[1]

انتهى بنا البحث إلى أنّ موجودات السماوات والأرض تموت بأجمعها إثر نفخ الصور عدا العباد المقرّبين للّه تعالى الذين عُدّوا من الطاهرين والمطهّرين وبتعبير القرآن الكريم **إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ** الذين لا موت لهم .

وقد قسّم العباد في القرآن الكريم إلى طوائف ومجموعات ثلاث هم :

أصحاب اليمين ، أصحاب الشمال ، والمقرّبون .

أصحاب الشمال هم المنحرفون والمعتدون كالكفّار والمشركين والمنافقين ؛ وأصحاب اليمين هم المؤمنون الذين عملوا عملاً صالحاً ؛ أمّا

١ـ الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

المقرّبون الذين يُدعون أيضاً بالأبرار والسابقين ، فهم الذين عبروا مقامات ودرجات أصحاب اليمين وتخطّوها ، فصاروا طاهرين مطهّرين في ذاتهم وسرّهم ، ويسمعون ويقولون ويرون بلسان القلب وأُذنه وعينه . والذين قد سلّموا جميع شؤون وجودهم لله سبحانه ، فإرادته واختياره في وجودهم بدل إرادتهم واختيارهم . أي أنّ نفس إرادتهم واختيارهم عين إرادة الله واختياره .

إنّ المقرّبين لساحة ذي الجلال هم الذين عُدّوا من عباد الله المخلَصين ، واستُثنوا في آية نفخ الصور المباركة ، وهذا الاستثناء في ظاهر تركيب العبارة ، إلّا أنّ الحقيقة هي أن لا استثناء في الأمر ، وأنّ الجميع يموتون . أي أنّ كلّ ذي نفس مآله إلى الموت ، بَيدَ أنّهم ليسوا بأصحاب أنفس . الذي يموت هو كلّ من له نفس مختصّة به ومتعلّقة به ، أمّا هم فقد أدركوا شهوداً وعياناً أنّ أنفسهم غير متعلّقة بهم ، بل متعلّقة بالله تعالى .

ثمّ إنّ تجلّيات أسماء الربّ وصفاته التي تنشأ وتظهر من صقع نفوسهم تجلّيات شاملة وعامّة ، فلقد غادروا وجود وحضور عالم الطبع وعالم الصورة وعالم النفس ، فليسوا بعدُ أرضيّين ولا سماويّين ، بل فوق السماء والأرض . أي أنّهم يعيشون في دائرة قدرة الخالق دونما حجاب للطبع والصورة والنفس ، مندكّين في أسماء الباري تعالى شأنه وصفاته وذاته . وليس لهم موت ، لأنّهم وجه الله سبحانه :

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ؛[1] ووجه الله حيّ لا يموت .

على أنّ جميع أسماء الذات المقدّسة الإلهيّة وصفاته هي في مرحلة التعيّن ، وفي مرحلة الاسم الواحديّة ، أمّا اسم أحديّته فمبرّأ من كلّ تعيّن

١ـ الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

ولو كان تعيّن الأسماء والصفات ، إذ ليس هناك أيّ اسم ورسم .

عــنقا شكـار كس نشـود دام بـاز گـير
كانجا هميشه باد به دست است دام را[1]

وعلى هذا فإنّ صفات الجلال والإكرام في هذه الآيـة المباركة قـد نُسبت لوجه الله تعالى : **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ** .

وينبغي العـلم بأنّ جـميع الصـفات الجـماليّة والجـلاليّة ، مـن العـلم اللا متناهي ، والحياة اللا متناهية ، والقدرة اللا متناهيّة ، لها ظهور وتـجلٍّ في هذه الأسماء الحسنى .

روى الكلينيّ في «الكافي» بإسناده عن معاوية بن عمّار ، عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجـلّ : **وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْـحُسْنَىٰ فَٱدْعُـوهُ بِهَا** .[2]

قال : **نَحْنُ ـ وَاللَهِ ـ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الَّتِي لَا يَقْبَلُ اللَهُ مِنَ الْعِبَادِ إلَّا بِمَعْرِفَتِنَا** .[3]

وروى الصفّار في «بصائر الدرجات» بسنده عن الإمام البـاقر عـليه السلام ، قال :

إنَّ اسمَ اللَهِ الْأَعْظَم عَلَى ثَلَاثَةٍ وَسَبْعِينَ حَرْفاً ؛ وَإنَّمَا عِـنْدَ آصِـفَ مِنْهَا حَرْفٌ وَاحِدٌ فَتَكَلَّمَ بِهِ فَخَسَفَ بِالْأَرْضِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَرِيرِ بِلْقَيْس ؛ ثُمَّ تَنَاوَلَ السَّرِيرَ بِيَدِهِ ؛ ثُمَّ عَادَتِ الْأَرْضُ كَمَا كَانَتْ أَسْرَعَ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ

١ـ يقول : لم يتسنَّ لأحد اصطياد العنقاء ، فلملم شراكك ، فهناك لا تصطاد غيرَ الهواء الشراكُ .

٢ـ صدر الآية ١٨٠ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٣ـ «تفسير الميزان» ج ٨ ، ص ٣٨٤ ، عن «الكافي» .

وَعِنْدَنَا نَحْنُ مِنَ الاسْمِ اثْنَان وَسَبْعُونَ حَرْفاً ، وَحَرْفٌ عِندَ اللَهِ اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِندَهُ ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .[1]

ومعنى هذه الروايات مع طائفة عظيمة من الروايات الأُخرى التي نُقلت غالباً في «أُصول الكافي» باب الحجّة ، أنّنا إذا شئنا معرفة حقيقة اسم **القادر** ، واسم **العالم** ، واسم **القيّوم** ، واسم **الرحيم** ، واسم **الرؤوف** ، وسائر أسماء الربّ ، فإنّ علينا أن نجدها فيهم .

ذلك لأنّ وجودهم صار مندكّاً في الذات ، ولأنّ تلك الأسماء تجلّت فيهم عليهم السلام ، فأينما نظرنا وتأمّلنا في عالم الوجود فإنّه هم ، لأنّهم وجه الله تعالى : **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ آللَهِ** .

وعلّة هذه الحقيقة هي أنّ أيّ موجود في أيّ من عوالم الملك والملكوت لا يرتدي لباس الوجود إلّا توجّب أن يُفاض عليه من جانب **وجه الله** ، وأنّ ارتباط أيّ موجود بخالقه وربّه إنّما هو بواسطة هذا الجانب (وجه الله) ، ولولا هذا الوجه لانعدمت جميع الموجودات .

وعلى هذا الأساس فإنّ لدينا روايات تدلّ على أنّه : **لَوْلَا الْحُجَّةُ لَسَاخَتِ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا** .

وينقل المرحوم الكلينيّ في «الكافي» في هذا الشأن ثلاث عشرة رواية بإسناده المتّصل عن الأئمّة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ،[2] مفادها أنّ العالم سيفنى ويُعدم لولا الإمام .

ولولا الإمام ، لما عُدم الإنسان لوحده ، بل لعُدم كذلك الحيوان والجانّ والملائكة والأرض والزمان ، ولصاروا ـ فضلاً عن الرماد ـ عدماً محضاً ،

١ـ «تفسير الميزان» ج ٨ ، ص ٣٨٢ ، عن «بصائر الدرجات» .

٢ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ١٧٨ و ١٧٩ .

لأنّ الرماد ـ بدوره ـ موجود قائم بوجه الله .

والعلّة في أنّ الله تعالى لم يقضِ بالهلاك على وجه الله ، وفي استثنائه إيّاه الذي بيّنه في آية نفخ الصور ، لا تمثّل عنواناً اعتبارياً وشكلياً ، بل هي على أساس حقيقة عالية رفيعة ، فكلمات القرآن الكريم متينه قاطعة وثابتة وليست مزاحاً ولا هزلاً .

إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ .[1]

وسنذكر إن شاء الله تعالى في بحث الأعراف ، أنّ الله سبحانه بعد أن يبيّن مفصّلاً أحوال أهل الجنّة ومحادثتهم لأهل جهنّم ، وبعد بيانه عذاب أهل جهنّم ، ومحادثتهم مع أهل الجنّة ، فإنّه يقول إنّ هناك حجاباً بين هاتين الطائفتين يقف عليه رجال :

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ[2] **وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ .**[3]

وهناك عيون من ماء الجنّة تتدفّق من تحت هذا الجبل (جبل الأعراف) ، عيون الماء القراح المعين ، وعيون اللبن والعسل المصفّى والخمر اللذيذ ؛ وهذه العيون الأربعة هي غير عيون التسنيم الأربعة . فعين التسنيم جارية من تحت أقدام أمير المؤمنين والمعصومين الآخرين الواقفين على قمّة ذلك الجبل .

وهؤلاء الأفراد المتمكّنون في الأعراف بمثابة الحَكَم بين أهل الجنّة والنار ، أي الحاكم على الجنّة والنار ، والمهيمن والمسيطر على العالمين .

ولدينا في الروايات أنّ الذين يقفون على الأعراف أربعة عشر :

١ـ الآيتان ١٣ و ١٤ ، من السورة ٨٦ : الطارق .

٢ـ وفي الروايات أنّه جبل ، وهو نفسه الأعراف .

٣ـ الآية ٤٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

النبيّ محمّد بن عبد الله ، فاطمة الزهراء ، أمير المؤمنين وأولاده الأحد عشر إلى بقيّة الله الأعظم محمّد بن الحسن عليهم صلوات الله ومقاماتهم فوق الجنّة .

وممّا يستدعي العجب هنا ، التعبير في آية الأعراف المباركة هذه عن فاطمة الزهراء سلام الله عليها بعنوان **رجل** ،كما عُبِّر عنها أيضاً بعنوان رجل في آية النور المباركة :

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ .[1]

وسيتّضح إن شاء الله تعالى في بحث الأعراف أنّ ذلك العالم عالمٌ لا معنى فيه للرجل والمرأة ، فليس في ذلك العالم ، عالم الفعليّة المحضة من انفعال ولا ذكورة أو أُنوثة .كما أنّه ليس هناك في عوالم الربوبيّة والجبروت أيّاً من عنواني الذكورة والأُنوثة ، فهذه العناوين متعلّقة بعالم الطبع والبرزخ والنفس ، أي بعالم الدنيا والمثال والقيامة .

ومن جملة الذين وصلوا إلى مقام **وجه الله** وتحقّقوا بحقيقة ملكوت السماوات والأرض : إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام ، فذلك النبيّ الجليل الذي وضع الحجر الأساس لتوحيد الإسلام ، وجاء بالدين الحنيف ، له مقام ومزايا على جميع الأنبياء ـ عدا نبيّ الإسلام ـ رفعت منزلته ودرجته أعلى من سائر أُولئك الأنبياء .

وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ .[2]

ولقد كان الله تبارك وتعالى يُحيي الموتى على يد إبراهيم عليه

١ـ صدر الآية ٣٧ ، من السورة ٢٤ : النور .

٢ـ الآية ٧٥ ، من السورة ٦ : الأنعام .

السلام ، وذلك بواسطة جانب وجه الله الموجود فيه ، وبواسطة تحقّقه عليه السلام باسم الله عزّ وجلّ **المُحيي** .

فكلّما تجلّى اسم من أسماء الله تعالى في شخصٍ ما ، صار بإمكانه بذلك الاسم ـ بأمر الله وإذنه ـ تحقيق مفاد ومصداق ذلك الاسم خارجاً .

والآيات الشريفة القرآنيّة صريحة في أنّ عيسى ابن مريم قال :

وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ .[1]

وقد طلب إبراهيم عليه السلام من ربّه معرفة كيفيّة إحياء الموتى على يد الله تعالى ، فجعله الله يحيي الموتى بيده من خلال إفاضة اسم **المُحيي** عليه ؛ خلافاً للنبيّ إرميا الذي طلب من الله ـ تسكيناً لخواطره ـ أن يريه إحياء الموتى ، فأماته الله ثمّ أحياه وهو ينظر بأُمّ عينيه . وشتّان بين هذين الطلبين ، وهاتين المنزلتين .

أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ .[2]

ومن أجل أن يتّضح سموّ منزلة إبراهيم عليه السلام ، فإنّ الله سبحانه يذكر في القرآن قصّة النبيّ إرميا على نبيّنا وآله وعليه السلام ، ثمّ يذكر بعدها قصّة النبيّ إبراهيم .

لقد كان إرميا من الأنبياء ، ومع أنّ جميع الأنبياء يدعون إلى التوحيد ، ومع امتلاكهم لدرجة العصمة ، إلّا أنّهم يقفون في درجات ومنازل متفاوتة ومتباينة .

١ـ مقطع من الآية ٤٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ مقطع من الآية ٢٥٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

وهكذا فبعد أن دمّر بخت نصّر [1] بيت المقدس وقتل فيه سبعين ألف نفراً وهيمن على جميع نواحيه ، وبعد أن سوّى القرى والمدن بالأرض ، وبعد أن انهارت سقوف بيوت القرية ، وصار الموتى فيها عظاماً متناثرة مبدّدة مرّ إرميا على تلك القرية (وما جاء في بعض الروايات التي تنسب هذه القصّة إلى عُزير ليس صحيحاً ، فتلك الروايات لا سند لها كما أنّها من روايات الآحاد ، ومن المسلّم به أنّ هذه القصّة تتعلّق بإرميا) .

كان إرميا يسير ، فمر في طريقه في الصحراء على قرية فشاهد سقوفها منهارة ومدمّرة ، ورأى أهليها موتى قد سقطوا على الأرض وتبدّدت عظامهم وتلاشت .

قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِـۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟

لقد قال لمّا هاله الأمر وأثار دهشته : أنّى يبعث الله هؤلاء الأفراد الكثيرين الذين استحالوا بعد موتهم بهذه الصورة ، فيمنحهم حياة جديدة ؟! لم يُنكر إرميا البعث والإحياء ، فقد كان نبيّاً . لكنّ الأمر كان من الأهميّة بحيث كان يحيّر الإنسان . ولقد كان أمر البعث والنشور محيّراً لإرميا لجهتين : إحداهما : أنّ تلك العظام كانت مبدّدة متباعدة عن بعضها ، وعلى وشك أن تكون رميماً متلاشياً ، فكيف يجمع الله هذه الذرّات المختلفة ويؤلّفها وينفخ فيها روح الحياة ؟

والأُخرى : لبُعد العهد بالأمر ، فحتّى تحين القيامة فيشاء الله إحياء هؤلاء الموتى ، فإنّ كلّ ذرّة منهم كانت ستسقط في زاوية من الدنيا ، وستعصف بها الريح فتجعلها هباءً منثوراً .

١ـ ذكرنا سابقاً في المجلس الحادي والعشرين الوجه في ضبط لفظ «بُخْتُ نُصَّر» والسبب في تسميته بهذا الاسم .

ولقد أثارت هاتان الجهتان تعجّب إرميا وتساؤله ، فكان السؤال هو الخُطور الذي مرّ على قلبه ، والحديث الذي تمتم به مع نفسه .

فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ .

ما إن عجب للأمر حتّى قال له اللهُ : مُتْ ! فمات مائة عام . وكان حماره إلى جانبه فمات هو الآخر ، وسقط بدن إرميا وبدن حماره على الأرض وإلى جانبهما شيء من التين أو العنب ومن عصير العنب كان قد جاء بها من مدينته في سفره ، وكان التين أو العنب والعصير زاده في سفره .

ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .

لقد أحياه الله بعد مائة عام وخاطبه :كم لبثت ؟

فنظر إرميا يمنة ويسرة وقال : يوماً أو بعض يوم .

كان الوقت صباحاً حين أماته الله ، أمّا الآن ـ وبعد أن أحياه الله بعد مائة عام ـ فالوقت عصر ، فخُيّل لإرميا أنّه كان متعباً فنام هنا ليلة ، فكان لبثه هنا يوماً واحداً .

وخاطبه الله تعالى : **بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ** .مائة عام كاملة .

فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ .

مع أنّ أوّل ما يفسد ويتسنّه ويتغيّر ريحه هو التين وعصير العنب اللطيف الذي لا يقاوم الحرارة والتغيّرات الجويّة .

وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ .

فانظر إلى حمارك واعلم أنّنا جعلنا منك آية إلهيّة للناس . جعلناك آية ودلالة على قدرتنا وعظمتنا وجلالنا .

وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا .

انظر إلى العظام وتأمّل كيف نرفعها عن الأرض ونصلها ببعضها ثمّ

نكسوها اللحم . وانظر إلى الحمار ! انظر وتطلّع كيف نرفعه عن الأرض ونجمع في لحظة واحدة جميع تلك الذرّات ونصلها ببعضها ، وكيف اجتمعت ذرّات العظام المبدّدة هنا وهناك ، ثمّ كساها اللحم والجلد ، فنهض الحمار واقفاً . وانظر كيف بعثناك وجمعنا عظامك ثمّ كسوناها لحماً فجعلناك خلقا سويّاً ، بحيث صارت عيناك كغرقئ البيض [1] لامعتين برّاقتين ؛ والظاهر أنّ عيني إرميا كانتا أوّل ما خُلق منه .

أفليس مُثيراً للعجب أن يفعل الله ذلك في طرفة عين ، فيجمع عظام إرميا البالية المبدّدة المسحوقة وعظام حماره المبدّدة المفتّتة المتلاشية ، فيجعلهما ـ وهو ينظر بأُمّ عينيه ـ حيّيْن سويّيْن صحيحيْن ؟

لقد أُجيب على الاستبعادين اللذين طرحهما إرميا . فأُجيب على طول المدّة والعهد بالسنوات المائة التي تصرّمت وانقضت ، وعلى تشتّت أجزاء الموتى وتفرّقها بجمع الله الأوصال والأجزاء المبدّدة ومنحه إيّاها الحياة أمام أعين إرميا ، ثمّ يصرّح سبحانه بأنّنا ـ إضافةً إلى هاتين الجهتين ـ فعلنا ذلك ليكون آية للناس .

لقد كانت عبارة **فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ** لرفع استبعاد طول العهد والمدّة ، فالعنب والعصير لم يفسدا ، والحمار المتهرّئ قد بُعث حيّاً . **وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ** لعبرتهم ومشاهدتهم وللتأريخ ، في أنّ مائة سنة قد مرّت وحلّ جيلٍ جديد محلّ آخر ، وأنّ إرميا الذي كان يوماً ما حيّاً يسير على الأرض ذا أثر ، ثمّ استحال خبراً احتلّ مكانه في صفحات التأريخ ، قد استحال من جديد أثراً ، وانسلّ من بين صفحات الكتب

١ـ الغِرْقِئ : القشرة الملتزمة ببياض البيض ، وهي قشرة لطيفة رقيقة تلي قشر البيضة الصلب .

والأوراق ليتحرّك فوق الأرض أمام أعين الناس .

وجملة **فَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا** لرفع استبعاد تفرّق وتشتّت أعضاء الموتى وأوصالهم ، حيث إنّ هذه الأمور لا تشكّل صعوبة أو مشقّة لله القدير العليم .

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .[1]

ولم يقل : قد علمتُ الآن . ذلك لأنّ إرميا كان نبيّاً ، وكان يعلم منذ البداية أنّ الله قادر ، لكنّ هذا العلم السابق قد أوجب ـ إثر الوضوح والتبيّن الفعليّ ـ سكون خاطره .

هذه هي قصّة إرميا ، أمّا إبراهيم فلم يتلقّ جواباً على سؤاله بهذا النحو من إحياء الموتى ، فقد أراد أن يعلم كيفيّة إعمال قدرة الله الفاعلة في إحياء الموتى .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .[2]

لم يسأل إبراهيم كما سأل إرميا عن إحياء الموتى ، بل سأل عن كيفيّة قوّة الله الفاعلة وتأثيرها على الموتى . فقد كان إبراهيم مَن أراه الله ملكوت السماوات والأرض ، ومن الموقنين .

لقد أرى الله تعالى الملكوتَ لإبراهيم ، أي أنّه جعله في مركز الملكوت ، وجعل قلبه حاوياً لأسرار الملكوت .

١ـ مقطع من الآية ٢٥٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ٢٦٠ ، من السورة ٢ : البقرة .

فهو يسأل : **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ** ؛ ولا يقول **كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَى** ؟ وكما سبق أن ذكرنا ، فشتّان بين السؤالين !

افرضوا أنّ أحداً لم يسبق له رؤية الجِبن سألكم : ما هو الجبن ؟

فستقولون له : اشترِ شيئاً من الجِبن وهاته ! فيفعل ويرى ـ من ثمّ ـ مادّة بيضاء دسمة من مشتقّات اللبن قد صنعت في قالب معيّن . وسيعلم حين يرى شكل الجبن وهيئته ماهيّة الجبن .

إلّا أنّه لو أراد أن يفهم كيف يُصنع الجبن ، فإنّكم ستقولون له : سخّن الحليب إلى درجة حرارة معيّنة ، ثمّ أضف إليه محلول تخمير الجبن بقدر معيّن ، واصبر عليه مدّة فإنّه سيتصلّب ويبرد . ثمّ اسكبه في كيس لينفصل عنه الماء الخارج من الحليب . فهذه كيفيّة صناعة الجبن .

وهذان الأمران مختلفان عن بعضهما ، فقد كان الأوّل إراءة الجبن لمن لا يعلم ماهيّته ، وكان الثاني صنع الجبن والاطّلاع على كيفيّة ونحو إيجاده . يقول الله سبحانه في جواب إبراهيم : **أَوَ لَمْ تُؤْمِن ؟**

قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى .

أريد أن يسكن بحر قلبي ، فلا يُشاهد فيه أيّ موج وأيّ اضطراب .

إنّ الأفراد الذين لا يمتلكون السكينة والاطمئنان ـ حتّى وإن كانوا موحّدين ـ في اضطراب وحركة وتأرجح قلبيّ يسبّب لهم الأذى ، فالخطرات تبعث الاضطراب في قلوبهم حتّى وإن كانوا غائصين في غمار بحر التوحيد .

ولو قلتم لأحد : اذهب الليلة إلى المقبرة ، فهناك قبر مفتوح من المقرّر تغطيته غداً ، قد وضع فيه ميّت في أكفانه ، وعليك أن تأتي بالخاتم الذي في يده . وعليك أن تذهب إلى المقبرة بمفردك . لوجدتم أغلب الناس يفزعون من هذا العمل ، مع أنّهم يعلمون يقيناً أن ليس هناك من شيء في

المقبرة ، وأنّ الميّت لا شأن له بأحد . فإذا دخل أحياناً أحدهم المقبرة ، فإنّ نبضات قلبه ستتضاعف وتزداد كلّما دنا أكثر ، ثمّ تبدأ الأيدي والأرجل بالارتجاف ، فإن تقدّم أكثر فلربّما توقّف عن الحركة وسقط على الأرض وهو لمّا يصل القبر المعهود بعدُ ، ولربّما مات رعباً وخوفاً . وهكذا فإنّ هذا العمل شاقّ وعسير لمن لا عهد له به ، مع وجود اليقين والعلم .

إنّ إبراهيم الخليل عليه السلام يُخاطب الله تعالى : أعلم أنك تُحيي باسم **المُحيي** وباسم **القدير** ، لكنّي أريد أن ألمس هذه الحقيقة بشكل لا يبقى معه اضطراب ، وبحيث يحلّ سكون الخاطر في قلبي . أي أنّي أريد أن ألمس ذلك الاسم لينكشف هذا الأمر لي بعد علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين .

فيصل الخطاب :

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .[1]

خُذ أربعةَ طيور واجعلهنّ في بيتك ليأنسن بك ، ثمّ اذبحهنّ وقطّعهنّ إرباً إرباً ، ثمّ اطرق أوصالهن في هاون بحيث تتداخل أجزاؤهن وذرّاتهنّ في بعضها ، ثمّ اجعل على قمّة كلّ من هذه الجبال جزءاً منهنّ ، ثمّ ادعهنّ واحداً بعد الآخر ، فستراهنّ يأتينك مسرعات ، واعلم أنّ الله عزيز حكيم .

وكانت هذه الطيور وفق رواية عليّ بن إبراهيم القمّي هي الطاووس والديك والحمامة والغراب .

ومن ثمّ فقد ذبح إبراهيم الطيور بأمر الله وإذنه ، ومزجهنّ معاً ، ووضع عُشراً من مخلوطهنّ على قمّة كلّ جبل ، ثمّ أخذ منقار الطاووس في

١ـ الآية ٢٦٠ ، من السورة ٢ : البقرة .

يده وناداه : أيّها الطاووس تعال !

ولم يكن حال إبراهيم آنذاك حالاً عاديّاً ، بل كان فانياً في ذات الله وأسمائه الحسنى ، فانياً في اسم العزيز والحكيم والقدير والمُحيي .

فلم يكن إبراهيم في الحقيقة هو القائل : أيّها الطاووس تعال ! بل كان الله تعالى ؛ والله هو الذي قال : أيّها الطاووس تعال !

ولقد شاهد إبراهيم ذرّات كثيرة تتحرّك إليه بسرعة من فوق قمم الجبال العشرة ، ثمّ جاءت وجاءت حتّى لصقت بمنقار الطاووس الذي كان في يده ، فاستوى بدن الطاووس وجناحاه ورجلاه ، وتشكّل هيكل بدنه وكانت هذه الذرّات هي ذرّات العظام التي شكّلت أصل هيكل الطاووس أولاً . ثمّ جاءت بعدها ذرّات اللحم وذرّات العين واللسان ، وتتابعت هكذا سائر الأعضاء والأمعاء والأحشاء ، مشكّلة في سرعة ودونما توقّف أجزاءَ الطاووس .

ثمّ وصلت النوبة إلى الريش ، فجاءت ذرّات الريش بلا انحراف ولا زيغ مسرعة من قمم الجبال ، فاستوت أجنحة الطاووس وريشه ، وآنذاك تحرّك الطاووس وانتفض أمام إبراهيم ، طاووس جميل حيّ .

وبنفس الطريقة فقد أمسك إبراهيم عليه السلام منقار الديك والحمامة والغراب في يده ، ودعى كلّاً منها ، فأسرعت إليه ذرّات كلّ منها من قمم الجبال واتّصلت بالمنقار ، فبُعثت تلك الطيور واقفة أمام إبراهيم .

ولقد أُنجزت هذه الأعمال على يد إبراهيم عليه السلام بإذن الله تعالى ، وكان نداء «تعالَ» من إبراهيم عليه السلام بأمر الله تعالى بقوله «ثُمَّ آدْعُهُنَّ» ، وكان إنشاءً للحياة وإعمالاً للقوّة الفاعلة للإحياء . ومن هنا فحين قام إبراهيم بهذا العمل ، فقد جاءه الخطاب :

وَآعْلَمْ أَنَّ آللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

واعلم أنّ الله قيّوم الموجودات ، وأنّ مقام عزّته مقتضٍ للفاعليّة ، وأنّه في مقام الحكمة ، أي لا فتور ولا تراخٍ ولا انفعال فيه ؛ وأنّ أعماله ثابتة وراسخة على أساس من الاستحكام والمتانة .

لكنّه عزّ وجل يقول في شأن إرميا :

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ آللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وإذا ما سمعتم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أحيا ميتاً ، فلا عجب في الأمر ، لأنّ أمير المؤمنين يمتلك الاسم ، ومتحقّق بالاسم .

كار پاكان را قياس از خود مگير	گر چه باشد در نوشتن شير شير[1]

فالأسد المكتوب على الورق هو أسد ، لكنّه أُلعوبة في يد الأطفال والصبيان ، يمزّقونه بأيديهم ، أمّا الأسد النائم في الأجمة فأسدٌ لو مرّ قربه أحد وسمع صوت تنفّسه لذاب كبده خوفاً وهلعاً !

وأنّى للطفل الرضيع الذي لا قدرة له على طرد ذبابة عن أنفه ، أن يدرك أنّ هناك بطلاً في العالم يرفع أثقالاً تبلغ أربعمائة كيلو غراماً ؟!

ولقد سطّرت الكتب المعتبرة أمر إشارة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى أسد مرسوم على الستار ، وبَعْث الأسد حيّاً ، والتهامه الرجل الهازئ والساخر في مجلس هارون ؛ وإشارة الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام إلى أسدين مصوّرين على مسند المأمون ، وأمر بعثهما والتهامهما حاجب المأمون الذي كان مأموراً بالحطّ من قدر الرضا عليه السلام في مجلس المأمون .[2]

١ـ يقول : لا تقس فعلك مع أفعال المطهّرين الصالحين ، فلو كان الأمر كذلك لكان الأسد المكتوب (على الورق) أسداً حقيقيّاً .

٢ـ نقل ابن شهرآشوب في كتابه «المناقب» قصّة إحياء الأسد بإشارة من الإمام ⇐

هذا وقد سمع الحقير بنفسه هذه القصّة من المرحوم آية الحقّ وسند العلم آية الله الحاج الميرزا محمّد جواد الأنصاريّ الهَمَدانيّ رضوان الله عليه ، حيث يقول :

نقل لي أحد أعلام هَمَدان ممّن ربطتني به المودّة والمعرفة منذ القِدَم ؛ فقال : تردّدت على التكيّات وأماكن الذكر منذ أكثر من عشرين سنة من أجل كشف الحقيقة وفتح باب المعنويّات ، وتردّدت على الأقطاب والدراويش فأخذت منهم تعليمات عملتُ بها ، إلّا أنّها لم تثمر شيئاً ، ولم تنفتح أمامي أيّ نافذة للكمال والمعارف ، ولم تشرع في وجهي أيّ باب ، حتّى تصوّرت ـ من يأسي وحيرتي وضياعي ـ أن ليس هناك من شيء أصلاً ، بل إنّ ما نُقل عن الأئمّة عليهم السلام ربّما كان مبالغة . فلربّما كانت هناك مطالب وأُمور يسيرة نُقلت عن الأنبياء والأئمّة ، فتضخّمت بمرور الوقت على أيدي أتباعهم ومريديهم ، فصار الناس يذكرونها لهم الآن كمعجزات وكرامات وخوارق العادات . قال : وكنتُ قد تشرّفت بالذهاب إلى العتبات المقدّسة ، فزرتُ كربلاء ، ثمّ تشرّفت بالذهاب إلى النجف الأشرف حيث وفّقتُ للزيارة . وذهبتُ يوماً إلى الكوفة فقمت بالأعمال الواردة لمسجد الكوفة ، ثمّ خرجت من المسجد قبل غروب الشمس بساعة ، ووقفت أمام المسجد أنتظر قدوم العربة لأرجع إلى النجف .

⇐ موسى بن جعفر عليهما السلام ، ضمن حالات الإمام ؛ وذلك نقلاً عن عليّ بن يقطين . (ج ٢ ، ص ٣٦٤ و ٣٦٥ من الطبعة الحجريّة) .

وأورد قصّة إحياء الأسد على يد الإمام الرضا عليه السلام كلّ من كتاب «عيون أخبار الرضا» الباب ٤٠ ، ص ٣٥٤ من الطبعة الحجريّة ؛ وكتاب «إثبات الهداة» ج ٦ ، ص ٥٥ . كما أوردنا هذه القصّة في الجزء الأوّل من هذا الكتاب .

وكان هنالك في ذلك الوقت عربة تجرّها الخيول تتحرّك بين النجف والكوفة (وبينهما فرسخان) ، وكان الناس يدعونها بـ «الريل» .

وطال انتظاري دونما جدوى ، إلى أن رأيتُ رجلاً يتّجه نحوي من الناحية الأُخرى ، وكان متوجّهاً هو الآخر إلى النجف . وكان رجلاً عاديّاً يحمل على ظهره جراباً ، فسلّم وقال : لماذا تقف هنا ؟

أجبت : أنتظر العربة ، فأنا أريد الذهاب إلى النجف !

قال : تعالى نتمشّى سويّاً على رسلنا ، حتّى نرى عاقبة الأمر لنتحدّث سويّاً ونسير حتّى نرى عاقبة الأمر !

وهكذا فقد سرنا سويّاً ونحن نتحدّث ، فقال لي في الطريق دون مقدّمة : أيّها العزيز ، إنّ أحاديثك التي تتحدّث بها من أن ليس هناك من شيء ، وأن ليس هناك من أساس للكرامات والمعجزات ، أحاديث خاطئة وغير صائبة .

قلتُ : لقد كلّت عيناي وأُذناي ومُلئتا من هذه الكلمات ، فقد سمعت كثيراً ولم أر أثراً ، فلا تتحدّث معي بهذه الكلمات ، إذ لا أعتقد بهذه الأُمور . فلم يجب ، ثمّ سرنا قليلاً فعاد يتحدّث وقال :

على الإنسان أن يلتفت إلى بعض الأُمور ، فهذا العالم له ملكوت ، وله روح . أفليس لك روح ؟كيف يسير بدنك الآن ؟ إنّما ذلك بإرادتك وروحك . وهذا العالم له روح هو الآخر ، له روح كلّيّة ، والروح الكلّيّة للعالم هي الإمام ، وهو قادر على فعل كلّ شيء .

وإذا ماكان هناك أشخاص قد تاجروا بالأمر ودعوا الناس إلى الباطل ، فليس هذا دليلاً على أنّه لا وجود للحقائق المسلّم بها في هذا العالم .

فعلى الإنسان أن لا يتراجع عن عقائده أو أن ينحرف عن المسلّمات .

قلتُ : لقد سمعتُ الكثير من هذا الكلام ، ولقد كلّت أُذناي وثقلتا بذلك ، وأنا الآن مُتعب مُنهك ، فتعال نتحدّث في موضوعات أُخرى ؛ ثمّ ما شأنك أنت وهذه الأُمور ؟!

قال : لا يمكن ذلك ! لا يمكن ذلك يا عزيزي .

قلت : لقد كنتُ في التكيّات وأماكن الذكر طوال عشرين سنة والتقيت بالمرشدين والأقطاب ، لم أنتفع شيئاً !

قال : ليس هذا دليلاً على أنّ الإمام ليس لديه شيء هو الآخر ؛ ما الذي تريده لتصدّق بالأمر ؟!

وكنّا آنذاك قد وصلنا إلى خندق الكوفة (وكانوا قد حفروا في السابق خندقاً بين النجف والكوفة لا تزال آثاره واضحة حتّى الآن) .

فقلت : إن أحيا أحدٌ ميتاً لقبلتُ كلامه ، ولقبلت واقتنعتُ بكلّ ما يتحدّث به عن الإمام والنبيّ وعن معجزاتهم وكراماتهم .

فتوقّف وقال : ما الذي هناك ؟

فنظرتُ ورأيتُ حمامةً متيبّسة ساقطة في الخندق .

ثمّ قال : اذهب فهاتها!

فذهبتُ وأتيتُ بالحمامة الميّتة المتيبّسة .

قال : تمعّن فيها أهي ميّتة ؟

قلت : ميّتة ومتصلّبة وقد تناثر بعض ريشها .

قال : أفتصدّق إن أنا أحييتُها ؟

أجبت : لن أصدّق بهذا وحده ، بل إنّني سأصدّق جميع ما ستقوله ، وبجميع معجزات الأئمّة وكراماتهم .

فأمسك الحمامة بيده وتأمّل قليلاً ، ثمّ دعا بدعاء وقال للحمامة : **طيري بإذن الله** .

فما إن قال ذلك حتّى حلّقت الحمامة طائرة وذهبت ! وكنت غارقاً في عالم من الحيرة ، مذهولاً مبهوتاً .

ثمّ قال لي : تعال ! أرأيتَ ؟ أصدّقت ؟

ثمّ تحرّكنا إلى النجف إلّا أنّي لم أكن في حالة طبيعيّة ، وكان التعجب والحيرة يلفّان وجودي .

ثمّ قال : أيّها العزيز ! إنّ هذا الذي شاهدتني أفعله بإذن الله هو من أعمال صِبية طلّاب مذهب الحقيقة !

هكذا كان نصّ كلامه : **هو من أعمال صِبية طلّاب مذهب الحقيقة .**

فما الذي كنت تقوله يا تُرى ؟ كنت تقول : إن لم أُشاهد بعيني شيئاً فإنّني لن أؤمن ! أفجاء النبيّ والإمام ليبسطوا لي ولك كلّ يوم مائدة فيصبّوا من هذه الكرامات في أفواه الناس ؟! لقد كانت لهم جميع أنواع القدرة ، وكانوا يستخدمونها بإذن الله كلّما اقتضت الحكمة ذلك ، ومن المحال أن يصدر منهم عمل دون إذن الله تعالى .

لقد كان هذا عمل صِبية طلّاب مذهب الحقيقة ، ولا زال هناك طريق طويل حتّى المنزل المقصود .

كنّا نتحدّث معاً باستمرار ، وكنت استفسر منه فيجيبني على كلّ أسئلتي ، حتّى وصلنا النجف الأشرف .

(وكان القادمون من الكوفة إلى النجف سابقاً يصلون أوّل ما يصلون إلى المقبرة المعروفة بوادي السلام ، ثمّ يدخلون النجف) .

وعندما وصلنا وادي السلام أراد أن يودّعني لينصرف ، فقلت له : لقد وصلتُ اليوم إلى هذه النتيجة بعد عشرين سنة من المشقّة والألم ولستُ بتاركك ! إنّك تريد أن تدعني وتنصرف ، لكنّي سأُلازمك بعد الآن .

قال : تعال غداً عند بزوغ الشمس ، فنلتقي هنا .

ولم تغمض لي عين تلك الليلة حتّى الصباح من فرط شوقي للقائه ، وكان اشتياقي يتصاعد كلّ ساعة ، بل وكلّ دقيقة للذهاب صباح الغد لرؤيته . وكنت في وادي السلام أوّل طلوع الصبح ، فشاهدتُ جنازة يرافقها عدّة أشخاص ، وحين أرادوا دفنها اتّضح أنّها كانت جنازة ذلك الرجل !

وليست هذه بالقصّة والحكاية ، ولم تُنتزع من بطون الكتب القديمة ، بل هي من صُلب هذا الزمان وراويها سلمان الزمان : المرحوم الأنصاريّ رحمة الله عليه الذي مضى على رحيلة سبع عشرة سنة .[1]

تو على را به تارى ديده‌اى
زين سبب غيرى بر او بگزيده‌اى[2]

* * *

حقّ را چو به خلق شد جلوه گرى
پوشيد علىّ را به لباس بشرى
از عالم لا مكان به امكان آورد
تا بى خبران را دهد از خود خبرى[3]

١ـ رحلة ذلك المرحوم في الثاني من ذي القعدة لسنة ١٣٧٩ هجريّة ، حيث انقضى عليها إلى زمن هذه الأبحاث (أي شهر رمضان لسنة ١٣٦٩ هـ) سبع عشرة سنة إلّا أنّه قد انقضى على ذلك إلى زمن طبع هذا المجلّد من دورة «معرفة المعاد» (ربيع الأوّل ١٤٠٣ هـ) أربعة وعشرون سنة تقريباً .

٢ـ يقول : لقد رأيتَ عليّاً عليه السلام في الظلام والحلكة ، فلا جرم أن قدّمتَ عليه غيرَه !

٣ـ يقول : حين تجلّى الحقّ إلى الخلق ، فقد ألبس عليّاً رداء البشر !

والعجيب هو أنّ أحداً في زمن عليّ عليه السلام لم يفهم ما الذي كان يقوله ، لقد كان نفسه يقول :

إِنَّمَا كُنْتُ جَاراً لَكُمْ جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً .

ولقد سطّرت خطب أمير المؤمنين عليه السلام في الكتب ، وتناقلتها الأيدي ، وقُرئت للناس ، فمن الذي أدرك على مدى العصور ما الذي يقوله عليّ ؟

لقد أورد أُستاذنا سماحة العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه عدّة خطب من «نهج البلاغة» في التوحيد ، وذلك في المجلّد السادس من تفسير «الميزان» ص ٩٦ إلى ١٠٨ ، وهي جديرة بالتأمّل والاهتمام .

الأُولى : الخطبة الأُولى : **اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ** ـ الخطبة .

الثانية : الخطبة الثالثة والستّون : **اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً** ـ الخطبة .

الثالثة : الخطبة الخمسون بعد المائة : **اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ** ـ الخطبة .

الرابعة : الخطبة الحادية والستّون بعد المائة : **اَلْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ وَسَاطِحِ الْمِهَادِ** ـ الخطبة .

والخامسة : الخطبة الرابعة والثمانون بعد المائة : **مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ** ـ الخطبة .

ثمّ يقول سماحة الأُستاذ :

إنّ المطالب التي أبان عنها أمير المؤمنين عليه السلام في هذه

وجاء به من عالم اللا مكان إلى المكان ، ليُنبئ الغافلين عن نفسه خبراً !

الخطب في توحيد ذات الحقّ تعالى بالصرافة لم يدركها أحد من العلماء إلى ما بعد الألف الهجريّ ، حتّى أنّ ابن سينا لم يُدرك ـ بدوره ـ هذا المعنى ، فكان يقول بتوحيد الحقّ بالوحدة العدديّة .[1]

ثمّ جاء العلّامة بمطالب نفيسة في هامش ص ١١٠ جديرة بالتأمّل والملاحظة .

أقول : الظاهر أنّ مراد الأُستاذ من العلماء بعد الألف الهجريّ : المرحوم صدر المتألّهين القائل بالتوحيد بالصرافة .

بلى ؛ نحن نذهب إلى النجف الأشرف للزيارة والتوسّل احتراماً لبدنه عليه السلام ، واحتراماً لتعلّق النفس بذلك البدن ، وإلّا فإنّ روحه ونفسه عليه السلام قد طبقت الآفاق : **لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ** .

فهي في كلّ مكان ، وموجودة مع كلّ شيء ، وهو الوليّ الأعظم لمركز الفعل الربوبيّ جلّ وعزّ . وهو الذي توسّل به آدم أبو البشر للنجاة وبلوغ المقصود ، وتوسّل به نوح وموسى وعيسى وسائر الأنبياء ، على نبيّنا وآله وعليهم الصلاة والسلام .

ولقد أوردنا في بعض بياناتنا مفصّلاً أنّ إبراهيم عليه السلام مع أنّه كان أفضل وأشرف من جميع الأنبياء عدا نبيّ الإسلام ، ومع أنّه كان من المخلَصين ، إلّا أنّه سأل ربّه الوصول إلى مقام الصلوح ، فوعده الله تعالى بنيله في الآخرة :

وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .[2]

١ـ النصّ المنقول ليس نصّ كلام العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه ، بل تلخيص لما قاله . (م)

٢ـ عجز الآية ١٣٠ ، من السورة ٢ : البقرة .

وسأل يوسف عليه السلام ربّه هذا المقام، فلم يرد في القرآن الكريم أنّه سيُعطاه في الدنيا أو في الآخرة، فقد ذُكر دعاؤه وسؤاله فقط:

أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ.[1]

أمّا بالنسبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقد ورد التعبير عنه في القرآن الكريم بـ«صالح المؤمنين».

إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰـهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ.[2]

ولقد استدعت رحابة روح أمير المؤمنين وعظمته وعلوّه في مقام التوحيد الذاتيّ والفناء والبقاء بالله في ذات الحضرة الأحديّة على أساس من التلمذة على يد رسول الله صلّى الله عليه وآله، استدعت قيام جميع الأنبياء بالتوسّل به وبالأنوار الخمسة الطاهرة، ورغبتهم ـ ببركة أُولئكم ـ في ترميم وإكمال نقص كمالهم.

كي رفته‌اي ز دل كه تمنّا كنم ترا
كي بوده‌اي نهفته كه پيدا كنم ترا

غائب نگشته‌اي كه شوم طالب حضور
پنهان گشته‌اي كه هويدا كنم ترا

با صد هزار جلوه برون آمدي كه من
با صد هزار ديده تماشا كنم ترا

مستانه كاش بر حرم و دير بگذري
تا قبله گاه مؤمن و ترسا كنم ترا

١ـ النصف الثاني من الآية ١٠١، من السورة ١٢: يوسف.

٢ـ الآية ٤، من السورة ٦٦: التحريم.

طوبى و سِدره گر به قيامت به من دهند
يكـجا فـداى قـامت رعـنا كـنم تـرا[1]

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن له تجلٍّ واحد ، بل كان له في كلّ آن الآلاف المؤلّفة من التجلّيات . فأنّى للانسان أن يتطلّع إلى تجلّياته بهذه الأعين الرمداء ! إنّ مائة ألف عين تلزم المرء ليرى بها تجلّياته عليه السلام ، وينبغي ـ إذَن ـ أن يُنظر إلى عليّ بعين عليّ نفسه .

ديده‌اى وام كنم از تو بـه رويت بـنگرم
چونكه شايستهٔ ديدار تو نـبود بَـصَرم[2]

عسى الله تعالى أن يجعل أُمورنا في جميع العوالم مع أمير المؤمنين عليه السلام ، فيُحيينا بنداء واحد كما نادى إبراهيم الطيور فأحياها ؛ وأن ينظر إلينا أمير المؤمنين بنظره الملكوتيّ ، فيقلب نُحاس وجودنا ـ كفعل الكيمياء ـ ذهباً ، ويرفعنا من حضيض عوالم البهيميّة إلى أوج الإنسانيّة وذروتها ، ويجعل هذا الإنسان الظلمانيّ الحبيس في سجن الهوى والهوس ملكوتيّاً ، ويهديه إلى التوحيد المحض .

به ذرّه گر نظر لطف بو تراب كند　　به آسمان رود و كار آفتاب كند[3]

وقد ورد في باب زيارته عليه السلام ، عن رسول الله صلّى الله عليه

١ـ يقول : متى غادرتَ قلبي لأتمنّاك ؟! ومتى كنت مستتراً لأعثر عليك ؟!
لم تَغِبْ كي أروم حضورك ، ولم تَخْفَ لأُظهرك للعيان !
لقد تجلّيت للعيان بمائة ألف تجلٍّ ، فأنا أتطلّع إليك بمائة ألف بصر .
ولَيْتك تمرّ ثملاً على الحرم والدير ، لأجعلك قبلة للمؤمن والمسيحيّ .
ولو منحوني يوم القيامة طوبى والسِدرة ، لفديتُهما جميعاً لقامتك الفاتنة !

٢ـ يقول : سأستعير منك بَصَراً لأنظر به إلى طلعتك ، إذ ليس بصري جديراً بلقياك !

٣ـ يقول : لو تطلّع أبو تراب بلطفه إلى ذرّةٍ ما ، لَرَقَتْ إلى السماء فكانت شمساً !

وآله قال : مَنْ زَارَ عَلِيّاً بَعْدَ وَفَاتِهِ فَلَهُ الْجَنَّةُ .[1]

وجاء عن الصادق عليه السلام :

مَن تَرَكَ زِيَارَةَ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ . أَلَا تَزُورُونَ مَنْ تَزُورُهُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ ؟![2]

كما روي عنه عليه السلام أنّه قال :

إِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَتُفْتَحُ عِنْدَ دُعَاءِ الزَّائِرِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَا تَكُنْ عِنْدَ الْخَيْرِ نَوَّاماً .[3]

ويروي المجلسيّ رضوان الله عليه عن كتاب «أخبار الطالبيّين» قال :

إنّ الروم أسروا قوماً من المسلمين ، فأُتي بهم إلى الملك ، فعرض عليهم الكفر فأبوا ، فأمر بإلقائهم في الزيت المغليّ وأطلق منهم رجلاً يُخبر بحالهم . فبينما هو يسير إذ سمع وقع حوافر الخيول ، فوقف فنظر إلى أصحابه الذين أُلقوا في الزيت ! فقال لهم في ذلك ، فقالوا : قدكان ذلك ، فنادى منادٍ في السماء في شهداء البرّ والبحر : إنّ عليّ بن أبي طالب قد استشهد في تلك الليلة فصلّوا عليه ! فصلّينا عليه ونحن راجعون إلى مصارعنا .[4]

وينبغي العلم أنّ هذه القصّة وقعت في عالم البرزخ ، وأنّها اتّضحت لهذا الرجل على هيئة مكاشفة .

يروى عن صفوان الجمّال ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال : سألتُه في طريقِ المدينةِ ونحنُ نريد مكّةَ ، فقلتُ : يابنَ رسولِ اللهِ ! ما

---

١ إلى ٤ـ «مناقب ابن شهرآشوب» الطبعة الحجريّة ، ج ٢ ، ص ٨٤.

٤ـ «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦٧٩ ؛ والطبعة الحروفيّة ج ٤٢ ، ص ٣٠٩ .

لي أراك كئيباً حَزيناً مُنكسراً ؟

فقال : لَو تسمعُ ما أسمعُ لَشَغَلَكَ عَنْ مسألتي .

فقلتُ : وما الَّذي تسمعُ ؟

قال : ابتهال الملائكة إلى اللهِ عزّ وجلَّ على قتلةِ أمير المؤمنين وقتلة الحسينِ عليهما السلام ، ونوح الجنِّ وبكاء الملائكة الَّذين حولَهُ وشدّة جزعهم ، فمن يتهنّأ مع هَذا بِطَعامٍ أو شَرابٍ أو نَوْمٍ ؟ [1]

ويروي ابن قولويه القمّيّ عن أبيه ، عن سعد بن عبد الله ، عن بعض أصحابه ، عن أحمد بن قتيبة الهمدانيّ ، عن إسحاق بن عمّار ، قال :

قلتُ لأبي عبد الله (الصادق) عليه السلام : إنّي كنتُ بالحائر ليلةَ عرفة ، وكنتُ أُصلّي وثَمّ نحو من خمسين ألفاً من الناس جميلة وجوههم طيّبة روائحهم ، وأقبلوا يصلّون الليلة (الليل خ ل) أجمع ، فلمّا طلع الفجر سجدتُ ثمّ رفعت رأسي فلم أر منهم أحداً .

فقال لي أبو عبد الله عليه السلام : إنّه مرّ بالحسين عليه السلام خمسون ألف مَلَك وهو يُقتل ، فعرجوا إلى السماء فأوحى الله إليهم : مررتم بابن حبيبي وهو يُقتل فلم تنصروه ، فاهبطوا إلى الأرض فاسكنوا عند قبره شعثاً غبراً إلى يوم تقوم الساعة .[2]

١ـ «نفس المهموم» ص ٣١٣ ، عن ابن قولويه .

٢ـ «كامل الزيارات» الباب ٣٩ ، ص ١١٥ .

المجلس السادس والعشرون

في معنى وجه الله ووجه المخلوقات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مطالب أُلقيت في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان المبارك)

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ .[1]

لعالم الخلقة ظاهر وباطن ، فظاهره هذه الموجودات المتكثّرة المادّيّة والطبيعيّة التي يمتلك كلّ منها تشخّصاً وإنّيّة ، وينعم بما تتّسع له ماهيّته بنعمة الوجود والعلم والقدرة . وهذه الماهيّات المختلفة والهويّات المتغايرة المتباينة تجعل من نفسها ميزاناً للقيم والحياة ، وتدعو إلى نفسها ، وتدافع عن وجودها وشخصيّتها . وحين تلحظ أنّها في معرض النقص ، فإنّها تستفيد من الموجودات الأُخرى لترميم وجودها ، وتسخّرها لسدّ نقصها ، ولا تتورّع عن أيّ سعي وجهد استجلاباً للنفع والفائدة ، ودفعاً للضرر والأذى . فإن شاهدت أساس حياتها في معرض الخطر ، تصدّت لدفع ذلك الخطر بكلّ ما تملك من قوّة . بل إنّها قد تشرف على الموت

١ـ الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

والفناء في دفاعها عن حياتها .

وتمتلك هذه الموجودات نفوساً وشخصيّات متفاوتة ، فكلّ منها قد رفع عقيرته بنداء الاستقلال ، ورفع على منكبه علم وجوده الخاصّ .

أمّا باطن عالم الخلقة هذا فهو الارتباط المحض لهذه الموجودات مع العوالم المجرّدة اللاهوتيّة والجبروتيّة ، والارتباط الخالص مع الباري تعالى شأنه العزيز ، الذي يُفيض عليهم الوجود والعلم والقدرة والحياة من عالم الربوبيّة وصقع الجبروتيّة ، بحيث يحفظ أوراد روضة هذه الماهيّات يانعة طريّة غضّة على الدوام ، وبحيث إنّ ذلك الارتباط لو انفصم للحظة واحدة ، لصار جميع هذا العالم ـ مع سعته العجيبة وامتداده وترامیه المحيّر للعقول ـ العدم المحض بحدِّ ذاته ، ولَدُمغ على جبينه بخاتم البُطلان ، أي العدم المطلق من الحياة والوجود وآثارهما ولوازمهما . ويُدعى هذا العالم الظاهر : وجه الخِلقة ، بينما يُدعى عالم الباطن باسم : وجه الله .

والوجه بمعنى المُشير والمُظهر لذات الموجود ، **فوجه الإنسان مثلاً** هو أفضل وأرقى عضو فيه ، وهو المظهر له ، حيث يُعبّر عنه أيضاً بالسيماء . ووجه العمارة هو مظهر واجهة البناية الذي يمتاز بمشخّصات وخصائص معيّنة عن سائر البنايات . ووجه المراكب والسيّارات وسائر الأشياء هو أفضل عضو من الأعضاء المظهرة لتلك المراكب والسيّارات .

وهكذا تختلف وجوه هذه الموجودات ، من الإنسان والحيوان فيما بينها ، إذ خُلقت على أساسٍ من الاختلاف . ومن ثمّ فإنّ معيار الاختلاف وميزانه مشهود أيضاً في وجودها .

على أنّ وجه الله الذي أوجد هذه الموجودات وخلع عليها لباس الوجود واحد ، لأنّ الله تعالى واحد ، والحياة والعلم والقدرة التي يُفيضها واحدة ، ولأنّ كيفيّة ارتباط هذه الموجودات مع عالم الباطن واحد .

ومع أنّ مقدار الحياة والعلم والقدرة في الموجودات مختلف، إلّا أنّ إعمال القدرة والعلم والحياة في الذات الإلهيّة لإيجاد الموجودات المختلفة ليس متفاوتاً. فالله سُبحانه لم يُعْمِل في خلق الشمس قدرةً أكثر من تلك التي استخدمها لخلق قطعة من الكُرات والكواكب الأصغر منها بكثير.

ولم يستخدم في خلق جبل «الوند» علماً أو قوّة أكثر من تلك التي استخدمها لخلق قطعة حجر. والأمر كذلك في خلق الفيل والبعوضة، وفي خلق أوّل الموجودات الإمكانيّة وأسماها: النبيّ محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وفي خلق أضعف فرد من صنف الإنسان أو أنواع الحيوان.[1] فالقدرة والعلم وسائر الصفات والأسماء الإلهيّة واحد غير متعدّد فهي تتعلّق بالموجودات وفق نهج خاصّ وطريق واحد متميّز، وليس هناك من جهة الحضرة الربوبيّة شدّة أو ضعف، ولا زيادة ونقصان، ولا كمّ وكيف، ولا زمان ومكان.

وَمَآ أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ.[2]

وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ.[3]

لكنّه يختلف ضعفاً وشدّة، وزيادةً ونقصاناً من جهة موجودات هذا العالم وظرفيّاتها المخلتفة وماهيّاتها المتكثّرة، فيظهر وينشأ مقيّداً بالزمان

١ـ ينقل في «الأسفار الأربعة» الطبعة الحجريّة ج ١، ص ٢٦، والطبعة الحروفيّة ج ١، ص ١١٤، عن فيلسوف العرب يعقوب بن إسحاق الكنديّ قال: إذاكانت العلّة الأولى متّصلة بنا مفيضة علينا، وكنّا غير متّصلين به إلّا من جهة، فقد يمكن فينا ملاحظته على قدر ما يمكن للمفاض عليه أن يُلاحظ المفيض، فيجب أن لا يُنسب قدر إحاطته بنا إلى قدر ملاحظتنا له، لأنّها أغزر و أوفر و أشدّ استغراقاً.

٢ـ الآية ٥٠، من السورة ٥٤: القمر.

٣ـ مقطع من الآية ٧٧، من السورة ١٦: النحل.

والمكان وسائر الأعراض .

ويُقال لتلك الجهة الإلهيّة وجه الله، ولهذه الجهة الخَلقيّة وَجه الخلق .

كما يُدعى الأوّل بعالم الملكوت أو الباطن والغيب ، والثاني بعالم المُلك والشهادة .

وكذلك فإنّ الأوّل يدعى بعالم الأمر ، والثاني بعالم الخَلق ، وذلك استنباطاً من الآيات القرآنيّة ، مثل :

أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ .[1]

فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .[2]

قُلْ مَن بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .[3]

عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ .[4]

وَمَا الْوَجْهُ إِلَّا وَاحِدٌ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا أَنْتَ عَدَّدْتَ الْمَرَايَا تَعَدَّدَا

بلى ، إنّ اختلاف الوجوه وتعدّدها في هذا العالم مرهون بأنّ الموجودات التي يمثّل كلٌّ منها آية ومرآة للجمال الإلهيّ متكثّرة ، وهي متكثّرة من ناحية وجودها ، إلّا أنّها واحدة من جهة إراءة ذي الآية ، أي ذات الباري تعالى شأنه العزيز .

تماماً كمثل شخص يقف في غرفة وُضعت فيها مرايا مختلفة تواجهه بزوايا مختلفة ، فمن الواضح أنّ هناك شكلاً خاصّاً سيظهر في كلّ مرآة وأنّ كلّ مرآة ستحكي وضعاً خاصّاً منه ، إلّا أنّ صاحب هذه الصور

١ـ المقطع الثاني من الآية ٥٤ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ الآية ٨٣ ، من السورة ٣٦ : يس .

٣ـ صدر الآية ٨٨ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

٤ـ ورد هذا التعبير في عشر مواضع من القرآن ، من بينها في الآية ٧٣ ، من السورة ٦ : الأنعام .

في الوقت نفسه واحد ، بل إنّ نفس وجهه وصورته واحدة لا غير .

وهكذا فإنّ عالم الأمر ، أي عالم وجه الله والوجهة الإلهيّة والوجهة الربوبيّة للموجودات واحد لا أكثر ، وهذا التكثّر والغوغاء العجيبة للاختلاف في هذا العالم إنّما هو مرايا لا تعدّ ولا تُحصى بعدد آحاد موجودات عالم الخلقة ، وقد أتى بها عالم الخلقة .

إنّ الزوال والعدم ، والموت والهلاك تتعلّق بالوجهة الخلقيّة للموجودات الكائنة في عالم المادّة والطبع ، أي عالم الكَون والفساد ، لأنّ أصل معدن هذا العالم ومادّته الأوّليّة قد صُنعا من التغيّر والتبدّل والتحوّل ، ولأنّ العدم والتجدّد والحدوث قد صبّا في أوّل قالب من الموادّ الخام لموجودات هذا العالم .

أمّا الوجهة الإلهيّة لهذا العالم ، فلا فناء فيها ولا عدم ، وهي وجود محض ، لأنّها ليست مادّيّة ولا طَبع لها ، ولا كَوْن ولا فساد ، ولا زمان ولا مكان . كما أنّها ليست مكيّفة بالكيفيّة ولا مكمّمة بالكميّة ولا معرّضة لسائر الأعراض . هي بسيطة مجرّدة ، وهي العلاقة والارتباط المحض ونفس التعلّق وعينه .

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .[1]

وجليّ أنّ الوجه الإلهيّ لكلّ شيء ثابت غير متغيّر ، مجرّد لا مادّيّ وربط محض لا ارتباط .

وبناء على ما ذكر فإنّ معنى الآية الكريمة :

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ .[2]

١ـ مقطع من الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٢ـ مقطع من الآية ١١٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

سيتّضح جيّداً ، لأنّ وجه الله جهة ربط الله بكلّ موجود . وجليّ أنّ الله تعالى موجود مع كلّ موجود ، وأنّ له المعيّة مع كلّ موجود . فالواحد والبسيط والمجرّد ـ إذَن ـ هو وجه الله ، فهو موجود مع كلّ واحد من هذه الموجودات . أي : **فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ** .

ولقد أبدع العارف الفارسيّ الجليل بابا طاهر العريان في إنشاده :

به صحرا بنگرُم صحرا تَه وينُم
بـه دريـا بـنگَرُم دريا تَه وينُم
به هر جا بنگَرُم كوه و در و دشت
نشـان از روى زيـباى تـه وينُم[1]

ويقول الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام في مناجاته في ساحة ربّ العزّة سبحانه :

أُنَاجِيكَ يَا مَوْجُودُ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَعَلَّكَ تَسْمَعُ نِدَائِي .[2]

وجليّ أنّ المكان ليس ظرفاً لوجود الله تعالى ، فالمراد هو وجه الله الموجود في كلّ مكان ، والذي له المعيّة مع كلّ موجود ، والذي هو حقيقة كلّ موجود وباطنه .

وبناء على ما ذكرنا سابقاً في آيات نفخ الصور :

فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ .[3]

١ـ يقول : أنظر في الصحراء فأراك صحراءً ، وأتطلّع في البحر فأراك بحراً !
وحيثما نظرت في الجبل والوادي والصحراء ، رأيتُ آيةً من طلعتك الحسناء !

٢ـ هذه الفقرة هي صدر دعاء الحزين الذي أورده الشيخ (الطوسيّ) في «مصباح المتهجّد» ص ١١٦ ضمن أدعية بعد صلاة الوتر .

٣ـ صدر الآية ٦٨ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ .[1]

وبمقارنتها مع هذه الآيات التي استثنت وجه الله ، أي ملكوت كلّ شيء ووجهه الباطنيّ ، فسيتّضح أنّ المراد بـ«مَن شَآءَ ٱللَّهُ» هو **وجه الله**. فوجه الله لا موت ولا بوار له ، وكلّ من يصل إلى مقام وجه الله ، أي من يخرج من ذاته (التي هي وجهته الخَلقيّة ودعوته إلى نفسه) ويتخلّص من أنانيّته واستكباره ، فيفنى في ذات الله وصفاته ؛ فإنّه سيتحقّق بـ«**وجه الله**» فلا هلاك له بعدُ ولا موت .

إنّ أحد الألقاب المباركة لبقيّة الله تعالى : محمّد بن الحسن العسكريّ عجّل الله تعالى فرجه هو **وجه الله** ، حيث نقرأ في زيارته عليه السلام :

السَّلَامُ عَلَى وَجْهِ اللهِ الْمُتَلَقِّبِ بَيْنَ أَظْهُرِ عِبَادِهِ .[2]

ونقرأ فيدعاء الندبة :[3]

أَيْنَ وَجْهُ اللهِ الَّذي يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْأَوْلِيَاءُ ؟[4]

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله :

مَن زَعَمَ أَنَّ لِلَّهِ وَجْهاً كَالْوُجُوهِ فَقَدْ أَشْرَكَ . وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ لِلَّهِ جَوَارِحَ كَجَوَارِحِ الْمَخْلُوقِينَ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ ، فَلَا تَقْبَلُوا شَهَادَتَهُ وَلَا تَأْكُلُوا ذَبِيحَتَهُ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ ، فَوَجْهُ اللهِ أَنْبِيَاؤُهُ

١ـ مقطع من الآية ٨٧ ، من السورة ٢٧ : النمل .

٢ـ «النجم الثاقب» اللقب ١٧٥ ، ص ٤٦ .

٣ـ «مصباح الزائر» للسيّد ابن طاووس .

٤ـ أورد المرحوم السيّد ابن طاووس في «مصباح الزائر» دعاء الندبة بعد أن نقل ستّ زيارات لصاحب الزمان عليه السلام في السرداب المطهّر .

وَأَوْلِيَاؤُهُ.[١]

إنّ الأفراد الذين يتحقّقون بوجه الله هم مع الله دائماً، لا يحجبهم ولا يمنعهم عن الحضور أيّ موجود.

تَجَلَّى لِيَ الْمَحْبُوبُ فِي كُلِّ وِجْهَةٍ
فَشَاهَدْتُهُ فِي كُلِّ مَعْنىً وَصُورَةٍ[٢]

به هر چه می‌نگرم صورت تو می‌بینم
از آنکه در نظرم جملگی تو می‌آئی[٣]

جَلَتْ فِي تَجَلِّيهَا الْوُجُودُ لِنَاظِرِي
فَفِي كُلِّ مَرْئِيٍّ أَرَاهَا بِرُؤْيَةِ[٤]

گفت نوح ای سرکشان من من نیم
من ز جان مُردم به جانان می زیم

چون ز جان مردم به جانان زنده‌ام
نیست مرگم تا أبد پاینده‌ام

چون بمُردم از حواس بو البشر
حقّ مرا شد سمع و ادراک و بصر

چون که من من نیستم ایندم زهوست
پیش ایندم هر که دم زد کافر اوست

١ـ «سفينة البحار» ج ٢، ص ٦٣٥.
٢ـ «طبقات الأخيار» للشعرانيّ، ص ١٨٢، ج ١؛ وهذا الشعر للشيخ إبراهيم الدسوقيّ.
٣ـ يقول: مهما نظرتُ إلى شيء رأيتُ وجهك، لأنّك تأتي في نظري أجمع.
٤ـ «ديوان ابن الفارض» من التائيّة الكبرى، ص ٦٦.

گــر نــبودى نــوح را از حـقّ يَـدى

پس جهانى را چسـان بـر هـم زدى[1]

وقد ورد عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله أنّه قال :

لَوْ دُلِّيتُمْ بِالْأَرْضِ السُّفْلَى لَهَبَطْتُمْ عَلَى اللَهِ تَعَالَى .[2]

ويقول المعلّق في تعليقة «الأسفار» :

وورد في نسخة أُخرى :

لَوْ أُدْلِيتُمْ بِحَبْلٍ إلى الْأَرْضِ السُّفْلَى لَهَبَطْتُمْ عَلَى اللَهِ تَعَالَى .

وبطبيعة الحال فإنّ مضمون هذا الحديث نفس مضمون دعاء الحزين الذي يقول فيه الإمام السجّاد عليه السلام :

أُنَاجِيكَ يَا مَوْجُودُ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

أي أنّ وجه الله موجود مع جميع الموجودات ، ولو في أدنى نـقاط الأرض ، وأنّ الله تبارك وتعالى له المعيّة مع كلّ موجود بدون استثناء .

ويُقال لجهة موجوديّة الموجود وجه الخلق ، ولجهة معيّة الله تبارك وتعالى لتلك الجهة : وجه الله .

وعلى كلّ حال ، وكما سبق بيانه ، فإنّ العباد المقرّبين والمخلَصين لله

١ـ يقول : قال نوح لقومه : أيّها المتمرّدون ! اعلموا أنّي لستُ أنا ، فقد متّ من نفسي فأنا حيّ بالحبيب .

ولأنّي متّ عن نفسي وحييت بالحبيب ، فلا موت لي بعدُ ، وأنا خالد دوماً .

ولأنّي فنيتُ عن حواسّ البشر ، فقد صار الله عيني وأُذني وإدراكي .

ولأنّي لستُ أنا ، فإنّ النَّفَس الذي أنشقه منه هو ، ومن تنفّس قبل هذا النفس (وأظهر وجوده) صار كافراً .

ولو لم ترافق يدُ الحقّ نوحاً ، فكيف كان سيسوط العالم بالطوفان (سوطَ القدر) ؟

٢ـ «الأسفار» الطبعة الحجريّة ، ج ١ ، ص ٢٦ ؛ والطبعة الحروفيّة ج ١ ، ص ١١٤ .

لا موت لهم ، ولا حياة بعد الموت ، فقد أُبعد عنهم جميع عقبات الطرق ومنعطفاتها التي لابدّ لغيرهم من طيّها ، من الفزع ، والخوف ، وسماع الصيحة الدنيويّة ، والقلق عند سكرات الموت ، وأنواع العذاب ، وسؤال القبر ، والصيحة التي يُنادي بها في القبر فيرتدون إثرها اللباس البرزخيّ والمثاليّ (وتُدعى بنفخ صور الإماتة) ، والآيات التي تقع بعد تلك الصيحة حتّى نفخ الصور الثاني (ويُدعى بنفخ صور الإحياء) . وتدعى هذه المجموعة بالآيات الواقعة بين النفختين .

ولقد أُبعدت جميعها عنهم ، أي أنّهم قد طووا هذه الصعوبات والعقبات في الدنيا بقدم المجاهدة للنفس الأمّارة ، فوردوا الجنّة طاهرين مطهّرين ، فهم هناك منعّمون مع الصالحين بالنعم الإلهيّة التي لا تزول ولا تفنى . وذلك لأنّه ليس هناك مناص من طيّ هذه الطرق وتجاوزها ، إذ إنّ صعود الإنسان ورقيّة إلى مقام النفس ، وطلوع القيامة الأنفسيّة من الضروريّات ، وهذا الرقيّ والصعود لا يحصل دون طيّ الدرجات والمراتب الواقعة أدنى من الصورة ، وإلّا استلزم الطفرة التي هي من المحالات .

وإذا ما طُويت هذه الطرق واجتيزت ـ كما قد فعل المقرّبون والمخَلصونَ والسابقون ـ بهمّة إنسانيّة عالية ، وبخطوات التوفيق الإلهيّ والاصطبار ومجاهدة النفس ـ أي الجهاد الأكبر ـ **فبها المطلوب** ، وإلّا فإنّ الإنسان سوف يُساق مُجبراً بعد الموت ، بل وقبل الموت أيضاً ، للعبور من هذه العقبات . وأنّ هذا الإنسان المستكبر المغرور ذا العين الرمداء التي لا تُبصر الله ولا تعرفه ، يجب أن يرد مقام الإقرار والاعتراف في مقام عبوديّة الحقّ تعالى شأنه .

إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ

أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا .[1]

وسيُنادى بأهل الدنيا بالصيحة :

وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ .[2]

يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنْفُوشِ .[3]

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ .[4]

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا .[5]

إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ .[6]

إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ .[7]

١ـ الآيات ٩٣ إلى ٩٥، من السورة ١٩ : مريم .
٢ـ الآية ١٥ ، من السورة ٣٨ : ص .
٣ـ الآيتان ٤ و ٥ ، من السورة ١٠١ : القارعة .
٤ـ الآيات ٦ إلى ١٤ ، من السورة ٧٩ : النازعات .
٥ـ الآية ١٤ ، من السورة ٧٣ : المزّمّل .
٦ـ الآيات ١ إلى ٦ ، من السورة ٨٤ ، الانشقاق .
٧ـ الآيات ١ إلى ٧ ، من السورة ٨٢ : الانفطار .

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ .[1]

ثمّ يقول :

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ .[2]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ .[3]

فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ .[4]

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ .[5]

وأولياء الله ، أي المقرّبون والأبرار والمخلَصون ، فارغون من جميع

١ـ الآيات ١ تا ١٤ ، من السورة ٨١ : التكوير .

٢ـ الآيات ١٥ إلى ١٩ ، من نفس السورة .

٣ـ الآيتان ١ و ٢ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

٤ـ الآيات ٧ إلى ١٥ ، من السورة ٧٥ : القيامة .

٥ـ الآيات ١٣ إلى ١٥ ، من السورة ٦٩ : الحاقّة .

هذه المنازل ، لأنّهم طووها واجتازوها بأجمعها ؛ فلقد طووا الصيحة الدنيويّة ، وتكوير الشمس ، وخسف القمر واندكاكهما معاً ، وانكدار النجوم ، وتسيير الجبال ، وتعطيل العشار ، وتسجير البحار ، ونشر الصحف وتسعير الجحيم ، وإزلاف الجنّة ، والعلم بما قدّموا وأخّروا ، و... واجتازوها وتخطّوها بأجمعها .

وعلينا الآن أن نرى كيف عبر هؤلاء ؟ مع أنّ هذه المنازل والمراحل تعقب هذا العالم وتأتي بعده ، ومع أنّ الجميع يترقّبونها وينتظرونها ؟

فكيف ـ ترى ـ طُويت هذه المراتب والمراحل من قبل هؤلاء الأفراد خاصّة خلافاً للآخرين ؟

ينبغي ذكر مقدّمة لإيضاح الأمر :

إنّ لنا ـ نحن أفراد البشر ـ بدناً هو هذا الجسد الطبيعيّ والمادّيّ الذي يعيش في عالم يماثله في الآثار والخواصّ الطبيعيّة والمادّيّة ، ولنا ذهن هو محلّ خواطرنا وأفكارنا . فهما ـ أي بدننا وجسمنا ـ يشتغلان بالتصوّرات الذهنيّة ويفعلان ما يشاءان فعله . فإذا شئنا أن نفعل شيئاً ـ مثلاً ـ فإنّ ذهننا سيرسم في داخله صورة متخيّلة لذلك العمل ، ثمّ يقيّم منافع ومضارّ ذلك العمل ، فإذا شخّص مصلحة في ذلك العمل ، وُجدت الرغبة في فعله ، فيأمر الذهنُ البدنَ بفعله ، وآنذاك ينهمك البدن (وهو المسخّر للذهن) في ذلك العمل .

وهكذا فإنّ بدننا حين ينجز أيّ حركة أو سكنة ، كأن ينام أو يصحو أو يصلّي أو يُذنب أو يعمل صالحاً ، فإنّ ذلك كلّه يجري وفق تخطيط وتدبير ذهنيّ مُسبق .

كما أنّ لدينا ذاتاً هي نفسنا ؛ فذهننا ذاك ليس داخل بدننا ، كما أنّه ليس بالخارج عنّا ، وليس قبلنا ولا بعدنا ، وليس إلى جانبنا ، بل هو محيط

بنا .كما أنّ نفسنا محيطة بذلك الذهن ومحيطة ببدننا أيضاً .

ويمكننا القول إنّها بأجمعها شيء واحد ،كما يمكننا أن نقول إنّها منفصلة عن أحدها الآخر ، لكنّ بعضها محيط بالبعض الآخر ؛ النفس محيطة بالذهن ، والذهن محيط بالبدن ، ومثلها ليس كمثل جماعة اجتمعوا معاً ، إذ ليست نفسنا إلى جانب مثالنا ، وليس مثالنا مجاوراً لبدننا .

ونلحظ أنّ نفسنا محيطة ببدننا ، وأنّ النفس حين تريد ، فإنّها تحرّك البدن معها ، وأنّ عالم مثالنا وذهننا محيط بدوره ببدننا ، فحين يأمر البدن بالحركة ، فإنّ البدن سيبدو كمثل آلة مسيّرة في يده يحرّكها كيف يشاء .

وأنّهما (أي النفس والذهن) ليسا خارجينِ عن البدن ، بل هما محيطان به ، خلافاً للبدن الذي لا يُحيط بهما ، إذ ليس البدن محيطاً بذهننا . وليس ذهننا محيطاً بنفسنا ، وبالنتيجة فإنّ الذهن والبدن ليسا محيطين بالنفس . ولذلك فإنّ عالم المثال والقيامة يُنسب إلى عالم الدنيا بهذا الاعتبار والمناسبة .

ولدينا دنيا هي عالم الطبع هذا ، بَيدَ أنّ عالم المثال والبرزخ ليسا في هذه الدنيا ،كما أنّهما ليسا خارجها ، وليسا في امتداد هذا العالم بحيث يوجدان بعد مرور خمسين ألف سنة ، أو بعد مائة ألف سنة .

عالم البرزخ وعالم القيامة موجودان حاليّاً ، ومحيطان بهذا العالم . كما أنّ عالم القيامة موجودٌ ومحيط بعالم البرزخ وعالم الطبع .

ومن هنا فإنّ هذا العالم منضوٍ ومنطوٍ داخل عالم البرزخ ، وعالم البرزخ منضوٍ بدوره داخل عالم القيامة ، لكنّه انضمام وانضواء لا يُماثل تراكب طبقات لباب البصل وقشوره التي تغطّيها . فتلك جميعاً متجانسة ومن سنخ واحد ، وهي بأجمعها مادّيّة . بل هو كمثل إحاطة التجرّد من الصورة والمادّة بالصورة والمادّة ، وإحاطة التجرّد من الصورة بالمادّة ،

وليس أيٌّ منها بالعَرْضي .

وإذا ما تحرّكنا هنا في طول الزمن وامتداده ، فإنّ الأمر ليس بحيث إنّنا سنصل إلى عالم البرزخ بعد مائة سنة مثلاً ، ثمّ نصل بعد تقدّم مائة سنة أُخرى مثلاً إلى عالم القيامة . فمثل هذا السير يُدعى بالسير العَرْضيّ ، والأمر ليس على هذا النحو ، بل هو سير طوليّ لا عرضيّ .

أي أنّ علينا الحركة في درجات العوالم ومراتبه ، من الأسفل إلى الأعلى ، ومن الأدنى إلى الأرقى ، ومن غير المجرّد إلى المجرّد ، وهذه الحركة ليست عرضيّة بل طوليّة . وهي لا تحتاج إلى طيّ زمان ومكان ، بل إلى السير في أطوار النفس وآثارها .

والآيات القرآنيّة الكريمة التي أُشير إليها ، من أنّ هناك صيحة سيُنادى بها في الدنيا ، وأنّ زلزلة ستحصل ، وأنّ الشمس ستُكسف ، إنّما تبيّن العقبات التي ينبغي طيّها عند الورود إلى البرزخ . أي أنّ هذه الحوادث حين تنشأ وتحدث ، فإنّ الورود إلى البرزخ سينكشف للإنسان ، وآنذاك سيدرك الإنسان البرزخ ويفهم أنّه قد ورد فيه . وليس الأمر بحيث أنّ البرزخ غير موجود حاليّاً وأنّه سيوجد بعد هذه الحوادث .

وباعتبار أنّ الاطّلاع على هذه الأُمور مترتّب على الموت الاضطراريّ والاختياريّ ، فهم ـ لذلك ـ يقولون إنّ البرزخ يعقب الدنيا ويتلوها . فتلوّ البرزخ للدنيا هو باعتبار إدراك البرزخ وانكشافه بعد الموت ، وإلّا فإنّ البرزخ موجود حاليّاً ، والموت شرط إدراكه .

مثال : حين يعيّنون جائزة لطفلٍ ما ، من أنّه إذا اجتاز هذا الفصل الدراسيّ بمعدّل جيّد ، فإنّهم سيمنحونه تلك الجائزة . ومن ثمّ فإنّ تلك الجائزة موجودة الآن ، وعلى الطفل أن يقرأ دروسه ويجتهد ليعطوه إيّاها .

فليس للطفل من سبيل ـ فعلاً ـ للوصول إلى تلك الجائزة ، ونيلها إذ

يترتّب على الارتقاء إلى مرتبة أعلى ؛ وليس الأمر بحيث أنّ الجائزة ستوجد فيما بعد ، أو أنّها ستوجد فيما لو أتى بمعدّل جيّد .

ولدينا روايات جمّة في هذا الشأن ، وقد أوردنا مفصّلاً في المباحث السابقة أنّ الأعمال التي يجترحها الإنسان من خير وشرّ تتّخذ لنفسها منذ الآن صورة برزخيّة وترتدي لباساً مثاليّاً ، وتتّخذ لنفسها صورة قيامتيّة ، فهي ذخيرة للإنسان في عالم عِلم الله المدعو في تعيّن النشآت بعالم البرزخ والقيامة ، ليصل إليها الإنسان وينالها بعد العبور من عقبات الموت .

كما أنّ الأعمال التي يقوم بها الإنسان تتّخذ لنفسها على الفور صورة طبعيّة وبرزخيّة وقيامتيّة ، فصورتها الطبعيّة مشهودة للجميع ، أمّا صورتها البرزخيّة والقيامتيّة فمستورة ومحجوبة بحجاب البرزخ والقيامة ، فإن هُتك كلّ واحد من تلك الأستار والحُجب وأُزيح جانباً صارت مشهودة مُدرَكةً جليّة .

وهكذا فإنّ أسرى عالم الهوى والهوس الذين لم يتخطّوا آثار عالم الطبع ولوازمه ، فهم سجناء في حبس الأماني والشهوات ، سوف لن يدركوها . ومع أنّها نار متأجّجة ، إلّا أنّهم لا يُدركون كُنه الاحتراق بينما يحترقون وسط أُتونها وألسنتها . تماماً كمثل من يجلس تحت مبضع جرّاح يجري له عمليّة جراحيّة ويمزّق كليته فتتدفّق الدماء من بدنه . لكنّه ـ وقد فقد الإحساس والوعي ـ لا يدرك ذلك ولا يحسّه ، أمّا حين يصحو ويعود إليه وعيه ، فإنّه سيفهم ما حلّ به ، وسيحسّ آنذاك بالألم ينتابه ، فيشرع بالبكاء والأنين .

على أنّ ألم هذا الرجل لم ينشأ مع صحوه وعودة وعيه إليه ، بل نشأ من العمليّة الجراحيّة ، كلّ ما في الأمر ، أنّه صار يحسّه الآن .

وللأعلام مقولة مضمونها أنّ عبدة شهوات الدنيا لا يدركون جهنّم ،

لأنّهم سكارى الأُمنيات والتخيّلات ، فمن سكر في غريزة ما عمت عيناه وصُمّت أُذناه عن إدراك غيرها ، فصار أعمى وأصمّ . فهو ـ لذلك ـ لا يدرك الضرر والشرّ ونار جهنّم : **حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ** .

أمّا حين يفقد تلك الغريزة ، ويصحو من سكره الناجم عنها ،وتنفتح عينه وأُذنه فتبصر واقعه ، فإنّه سيرى ، يلحظ الأضرار التي لحقت به ، ويُعاين في أيّ لظى غرورٍ ونخوة واستكبار يحترق .

ومجمل القول إنّ الآيات والروايات التي تعدّ البرزخ والقيامة في الظاهر تلو الدنيا زمنيّاً ، تستند إلى أنّ معرفة تلك العوالم وإدراكها يحصل بعد الموت . وبمقتضى نصوص الآيات والأخبار الدالّة على فعليّة تحقّق تلك العوالم ، فإنّ الظهور في التلو الزمانيّ يجب حمله على التلو في المعرفة والانكشاف .

وهكذا فإنّ **عباد الله المخلَصين** الذين هم وجه الله وفقاً للآيات المذكورة ، والذين لا بوار لهم ـ من ثمّ ـ ولا هلاك ، قد انكشف لهم البرزخ والقيامة في الدنيا وعالم الطبع بواسطة مجاهدة النفس الأمّارة ـ وهو الجهاد الأكبر [1] وعلى إثر الأعمال الصالحة . أي أنّهم خرجوا من الدنيا ووردوا عالم البرزخ وصيح بهم في البرزخ بنفخة صور الإماتة والإحياء ، ثمّ خرجوا من البرزخ ووردوا عالم القيامة ، وأدركوا عواقبه ونتائجه أيضاً .

لقد ماتوا بالموت الاختياريّ فهم أحياء بالحياة الإلهيّة ، ودخلوا إلى

---

١ ـ نقل في «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ٤٢ عن «جامع الأخبار» أنّ رسول الله قال : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . ونقل في «البحار» ، ج ٦ ، ص ٤٤٣ عن «الكافي» بإسناده عن الصادق عليه السلام أنّ رسول الله بعث بسريّة فلمّا رجعوا ، قال : مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر . قيل : يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس .

عالم يفوق عالم النفس ، حيث لا زمان ولا مكان ، بل الإحاطة التامّة للزمان والمكان ، فكلّ شيء حاضر لديهم ، الماضي والحال والمستقبل . والوقائع الحادثة مشهودة لديهم ، وعلم **البلايا والمنايا** لديهم أمر عاديّ مألوف .

فحين أُزيل الزمان للمخلَصين ، فقد استوى لديهم الماضي والمضارع ، ووقفوا على علوم الأوّلين والآخرين وصارت حركة الجبال والصيحات وفوران البحار وغيرها حاضرة أمامهم ينظرون إليها ويشهدونها ، وصارت الأرض والسماء ، الثوابت والسيّارات ووقائع الأرض والسماء بأجمعها مشهودةً لديهم في عالم ما فوق الزمان وما يتعلّق بالزمان ،كما هي مشهودة للّه تبارك وتعالى .

ومع أنّهم لم يعمّروا طويلاً ليروا نفخة الصور ويسمعونها ، وليُشاهدوا زلزلة القيامة ، إلّا أنّهم ـ بسبب ارتقائهم إلى عالم التجرّد من المادّة والطبع ـ قد استولوا على جمع الزمانيّات وهيمنوا عليها ، فهي بأجمعها على مَرأى منهم ومَسمع .

وبطبيعة الحال فإنّ هذه المقامات مختصّة بأُولئك الذين حيوا بحياة الله ، فلم يعد في وجودهم ـ بأيّ وجه من الوجوه ـ شيء من بقايا النفس وآثارها ، فهم طاهرون مطهّرون .

وذلك لأنّ وجودهم إذا احتوى في زاوية من زواياه على شيء من آثار النفس لما أحاطوا بالزمان . وجليّ بيّن أنّ من يكون ـ بذاته ـ أسيراً للزمن ، سجيناً مقيّداً به ، سيعجز أن يطّلع من أُفق الزمان الأعلى للزمان ومتعلّقاته .[1]

١ـ يقول أمير المؤمنين عليه السلام ضمن حكم نهج البلاغة : إنّ أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها ؛ واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس ⇐

أمّا **الأئمّة الطاهرون** صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، الذين علموا بما مضى وما سيأتي ، والذين استقرّوا في منهل التشريع ووصلوا إلى معدن العظمة ، ونهلوا من ماء الحياة السرمديّة ، وذلك لكونهم فوق الزمان ، ولإدراكهم حقيقة أنفسهم الإدراك الملازم لمعرفة النفس ، ولوصولهم إلى درجات الخلوص والإخلاص ، وإقامتهم في حرم أمن وأمان الحضرة الأحديّة .

لذا يُشاهد أنّ قيد الزمان لم يقيّدهم ولم يحدّهم أبداً ، ولم يمنعهم أو يردعهم عن التحليق في سدرة المنتهى ، فكانوا يعطون الأجوبة القاطعة على البديهة عن كلّ سؤال عمّا مضى وعمّا سيأتي ويكون ، وعن الأحكام الجزئيّة والعلوم الكلّيّة والمعارف الإلهيّة .

فالسؤال الذي كان يُطرح على الإمام ، إنّما كان يطرح على الإمام ، أي على عينه وأُذنه وحواسّه الظاهريّة ، فتقوم حواسّه على الفور بالاستعلام من مِثال الإمام ، فيُخبر مثاله ـ بسعته ورحابته تلك ـ عن نفس الإمام ، وتُخبر نفسه عن المُلك والملكوت في طرفة عين . تماماً كما نجد نحن أيضاً في مكالماتنا ومذاكرتنا الاعتياديّة اليوميّة بواسطة الجسم والحواسّ أنّ هناك ارتباطاً بين أحدها والآخر ، حيث تقوم حواسّنا بالاكتساب من مثالنا وذهننا باتّصال برقيّ ، كما يكتسب ذهننا من نفسنا .

فالعين والأُذن واللسان هي آلات يستخدمها ذهننا ، والذهن هو

⇐ بعاجلها ؛ فأماتوا منها ما خشوا أن يُميتهم ؛ وتركوا منها ما علموا أنّه سيتركهم ؛ ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً ؛ ودركهم لها فوقاً ؛ أعداء ما سالم الناس ؛ وسلم ما عادى الناس ؛ بهم علم الكتاب وبه علموا ؛ وبهم قام الكتاب وبه قاموا ؛ لا يرون مرجوّاً فوق ما يرجون ؛ ولا مخوفاً فوق ما يخافون ـ «نهج البلاغة» ج ٢ ، الحكمة ٤٣٢ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر ، ص ٢٣٧ .

الصفحة المرسومة أمام أنظار نفسنا . وهكذا تقوم العين بإرسال إبصارها إلى الذهن ، فيقوم الذهن بإيصال حقيقته وواقعه ـ دون صورة ـ إلى النفس . وعلى العكس فإنّ النفس تُنزل المطالب الكلّيّة إلى الذهن وتجعلها في قوالب معيّنة ، فيقوم الذهن بعكسها إلى الخارج عن طريق العين .

والأمر على هذا النحو الذي ذكرناه في نفس الإمام المقدّسة التي هي نفسه الكلّيّة ، وفي برزخه أي المثال الكلّيّ . فهما في الحقيقة القضاء والقدر الكلّيّ الإلهيّ . بل إنّ الأمر أسمى من ذلك وأجلّ ، وأدقّ إحاطةً وسعة ، وأعجب وأوسع وأكثر شمولاً .

على أنّ الارتقاء إلى هذا المقام يستلزم السعة والكلّيّة ونسيان الجزئيّة ، كما أنّ الارتقاء إلى القيامة من قبل البشر العاديّين يستلزم رفض العلاقات الاعتباريّة والروابط الجزئيّة المنتمية إلى هذا العالم .

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ .[1]

فإذا بُدّل هذا العالم ، تبدّلت معه ارتباطاته التي هي من شؤونه ؛ أمّا ذلك العالم فله شؤون أُخرى . ذلك العالم عالم الحقيقة لا الاعتبار ، وعالم الواقعيّة الذي لا روابط فيه على أساس المادّة والطبع .

وسيجتمع هناك الأفراد الذين يرتبطون ببعضهم من جهة المعنى والواقعيّة ووشائج النفوس الروحانيّة ، ولو كانوا غُرباء عن بعضهم بلحاظ المادّة والطبع ، أو بلحاظ الروابط الاعتباريّة .

إنّ الحقّ والباطل ممتزجان في هذا العالم ، والروابط والعلاقات قائمة فيه على أساس استجلاب المنافع المادّيّة والاعتباريّة ؛ أمّا في ذلك العالم فالحقّ منفصل عن الباطل متميّز عنه ، والروابط قائمة على ميزان قُرب

١ـ الآية ١٠١ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

النفوس وبُعدها عن بعضها.

في هذه الدنيا يُحترم الكبار دفعاً للضرر وللنوايا المختلفة الأُخرى التي تعود نتائجها على الإنسان في هذا العالم، أمّا هناك فلا كبير ولا عظيم، عالمٌ يفرّ الإنسان فيه من أبيه وابنه، إذ لا تدع له محنه وابتلاءاته مجالاً ولا احتمالاً للالتقاء بالآخرين.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.[1]

فمن كان هناك أعرف بالله وبرسوله كان نسبه أشرف. ولدينا في الروايات أنّ إمام العصر عجّل الله فرجه الشريف حين يظهر فإنّ الناس لن يتوارثون على أساس القرابة والرحم، بل يتوارثون ـ كما فعلوا في صدر الإسلام ـ على أساس القرابة المعنويّة والأُخوّة الدينيّة. مع أنّنا قلنا إنّ ظهور إمام العصر مرتبة أدنى من الرجعة، والرجعة أدنى من القيامة. لذا فإنّ أيّ قرابة ورحم سوف لن تنفع الإنسان يوم القيامة أو تُعينه بأيّ وجه.

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ.[2]

إنّ الصداقات التي تربط بين الناس في هذه الدنيا على غير ميزان الله وقُربه ومحبّته، باعتبار عدم قيامها على أساس الحقّ، فإنّها ستتبدّل إلى عداء في ذلك العالم، عالم بروز وظهور الحقائق، وتظهر على هيئة نفور وخصومة، أمّا العلاقات والروابط التي تربط بين الناس على أساس ميزان الحقّ والقربة من الله تعالى، فتتجسّد في ذلك العالم أيضاً في هيئة مودّة وصداقة وخلّة.

١ـ الآيات ٣٣ إلى ٣٧، من السورة ٨٠: عبس.

٢ـ الآية ٦٧، من السورة ٤٣: الزخرف.

ولو نوقشت الصداقات بين أهل الدنيا ، للوحظ أنّها قائمة على محور العهود والمواثيق والأُمور الاعتباريّة الأُخرى ، أو على أساس القرابة والرحم واتّحاد الدم . ولأنّ جميع هذه الأُمور هي لتسكين الخاطر واستجلاب النفع الدنيويّ ، فإنّها لن تبقى أبعد من حافّة الموت وحدّه ، ولن تقاوم أكثر من ذلك وأبعد منه .

فالمرء يربّي ابنه ليستعين به عند هرمه وكبره ، ويحترم السيّد ليستفيد منه ، ويحبّ ولده ليُطيعه وينفّذ أوامره . أمّا لو كبر ولده وتمرّد عليه ، ولو لم يُعِنْه عند شيخوخته ؛ ولو سلّم اليوم على أحد فلم يجبه ؛ ولو لم تكن الزوجة بمستوى ما يتوقّع زوجها ؛ ولو لم يلبِّ الزوج أُمنيات زوجته ؛ أفكانت المحبّة والمودّة ستصمد في هذه الحال وتبقى ، أم أنّها ستتحوّل إلى ساحة تشتعل فيها نيران العداء والانفصال ؟

إنّ جميع صداقات أهل الدنيا لو جرى مناقشتها والفحص عن جذورها وعللها وأسباب نشوئها ، وعن علل تصرّمها وفقدانها ، لاتضح أنّها قائمة بأجمعها ـ عدا المودّة التي تربط بين أولياء الله والمتّقين ـ على أساس الشهوة والغضب وعبادة المال والنفس ، وعلى أساس اللذائذ المادّيّة في الجنس والأكل وحبّ الجاه والرياسة وسائر الأُمور الاعتباريّة الوهميّة .

وحين تقوم القيامة ، فينهار هذا الأساس ويُقلب رأساً على عقب : **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** .[1]

فإنّ هذه الصداقات تتبدّل إلى عداوة ، وإذا ما التقى يوم الجزاء الأصدقاءُ الذين تعاقدوا وتآخوا من فرط المحبّة والمودّة ، فإنّهم سينهالون ضرباً على رؤوس بعضهم البعض ويصرخون من أعماقهم في وجوه بعضهم :

١ـ عجز الآية ٢١ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

اغرب عنّي ! ينهال الأب بقبضة يده على أُمّ رأس ابنه ، والولد على رأس أبيه ؛ والأمر كذلك بين الزوج والزوجة ، وبين الشريكين ، وبين السائق والراكب ، وبين العبد والمولى .

أمّا المتّقون وأخلّاء الإيمان ، فهم يودّون بعضهم دون أن يتوقّعوا من بعضهم أيّ شيء ، ويسعون في قضاء حوائج أحدهم الآخر دون ترقّب مكافأة ، ويجلسون متقاربين في مجالس الصلاة والمساجد ومجالس الذكر فيذكرون الله تعالى دون انتظار شيء . ويجتمعون فيما بينهم فلا يكون اجتماعهم شيطانياً ؛ ويبنون مسجداً للإيمان والتقوى ، لا مسجدَ ضرار .

لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا .[1]

وهكذا يجتمع في مثل هذه المساجد أولياء الله وأحبّاؤه ، فيتطلّعون إلى بعضهم ، ويتبادلون الأمور المعنويّة ، والحقائق والمعارف في محبّة وإخلاص لا يقوى على نقض أُسّها شيء فهي خالدة دائمة ـ باعتبار خلوصها للّه تعالى ـ لا ينقضي زمنها ولا تنقرض مدّتها إثر انقضاء الدنيا وزوالها . خلافاً للصداقات الدنيويّة التي ختامها أوّل مرحلة الموت ، حيث يخاطب أصحابها ملائكة قبض الأرواح عند احتضارهم :

لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .[2]

ولقد كان ابن ملجم المراديّ يُقسم إنّه يحبّ أمير المؤمنين ويودّه ، وكان المسكين يكذب ، فقد كان يحبّه من أجل العطاء والصلات التي كانت تصله من الإمام ، ويحبّه من أجل الفَرَس ذي اللون الجميل الذي أعطاه إيّاه وكان يودّ أن يُزاد عطاؤه من بيت المال .

١ـ مقطع من الآية ١٠٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢ـ مقطع من الآية ٩٤ ، من السورة ٦ : الأنعام .

جاء في «إرشاد المفيد» أنّه روى جعفر بن سليمان الضبعيّ ، عن المعلّى بن زياد ، قال :

جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْن مُلْجَم لَعَنَهُ اللَهُ إلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْتَحْمِلُهُ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ احْمِلْنِي ! فَنَظَرَ إلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْتَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمِ الْمُرَادِيّ ؟

قَالَ : نَعَمْ !

ثُمَّ قَالَ : أَنْتَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمِ الْمُرَادِيّ ؟

قَالَ : نَعَمْ !

قَالَ : يَا غَزْوَانُ [1] احْمِلْهُ عَلَى الْأَشْقَرِ ! فَجَاءَ بِفَرَسٍ أَشْقَر فَرَكِبَهُ ابْنُ مُلْجَم لَعَنَهُ اللَهُ ، وَأَخَذَ بِعِنَانِهِ ، فَلَمَّا وَلَّى ، قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أُرِيدُ حِبَاءَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي — عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِن مُرَادِ [2]

وورد في «مناقب ابن شهرآشوب» **أَنَّهُ جَاءَ لِيُبَايِعَهُ فَرَدَّهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً ، فَبَايَعَهُ وَتَوَثَّقَ مِنْهُ أَلَّا يَغْدِرَ وَلَا يَنْكُثَ ؛ فَقَالَ : وَاللَهِ مَا رَأَيْتُكَ تَفْعَلُ هَذَا بِغَيْرِي !**

فَقَالَ : يَا غَزْوَانُ ؛ احْمِلْهُ عَلَى الْأَشْقَرِ ، فَأَرْكَبَهُ ، فَتَمَثَّلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي — عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ

امْضِ يَابْنَ مُلْجَم فَوَاللَهِ مَا أَرَى تَفِي بِمَا قُلْتَ ! [3]

ونقل المجلسيّ في «بحار الأنوار» عن كتاب «تذكرة خواصّ الأُمّة»

١ـ غزوان اسم مأمور الإمام .

٢ـ «الإرشاد» للمفيد ، ص ٧ .

٣ـ «مناقب ابن شهرآشوب» ج ٢ ، ص ٧٨ .

قال : قال ابن سعد في «الطبقات» :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا جَاءَ ابْنُ مُلْجَم وَطَلَبَ مِنْهُ الْبَيْعَةَ ، طَلَبَ مِنْهُ فَرَساً أَشْقَرَ فَحَمَلَهُ عَلَيْهِ ، فَرَكِبَهُ فَأَنْشَدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أُرِيدُ حَيَاتَهُ ...[1]

لكن ما وجده الحقير في «الطبقات» كان تمثّل الإمام بذلك البيت فقط ، ولم يذكر طلب ابن ملجم من الإمام الفرس الأشقر .[2]

لقد كان ابن ملجم يدّعي مودّته لأمير المؤمنين ، وكان يكذب في ادّعائه ، فلقد اتّضح حين امتُحن بقطام فعشقها أنّ تلك المودّة كانت صوريّة وأنّه قد ارتكب مثل هذه الجناية لنيل هدفه الشهويّ .

أمّا من له ولاء ومودّة حقيقيّة ، فلو قُطّع إرباً إرباً لما كفّ عن مودّته ، إذ **عِنْدَ الامْتِحَانِ يُكْرَمُ الرَّجُلُ أَوْ يُهَانُ** .

لقد كان أمير المؤمنين يُخاطب بعض صحابة رسول الله الأجلّاء بلفظ «إخواني» مع أنّهم لم يمتّوا إليه بصلة قرابة أو رحم . فقد قال في خطبته :

أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ ؟[3]

أَيْنَ عَمَّارٌ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهانِ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ ؟

فكان عليه السلام يخاطب هؤلاء المؤمنين الراسخين بلفظ «إخواني» ويخاطب عمّاراً بلفظ «أخي» .

ولعمّار تأريخ عجيب في الإسلام ، تأريخ طافح بأجمعه بالفهم والدراية والإيمان والإيثار . وكان عاشقاً لرسول الله متيّماً به . ولقد عمل مع رسول الله في تشييد المسجد بالمدينة ، فكان رسول الله وكلّ واحد من

١ـ «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦٤٧ .

٢ـ «الطبقات» لابن سعد ، ج ٣ ، ص ٣٤ .

٣ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٨٠ ، طبعة محمّد عبده ـ مصر ، ص ٣٤٤ .

الصحابة ينقلون حصّة من اللبن والطين ، فتقبّل عمّار حمل حصّة رسول الله فكان هذا الشيخ الذي شارف الستّين [١] يعمل بشوق ولهفة بحيث كان عبرةً للآخرين ، وكان رسول الله يمسح الغبار عن وجه عمّار بيده وكمّه المبارك ويقول :

وَيْحَ عَمَّارٌ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ !

وقال : **يَا عَمَّارُ ! إِنَّكَ أَخُو عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَصِيِّيّ .**

وقد استشهد عمّار في صفّين في ركاب أمير المؤمنين عليه السلام على أيدي الطغاة : معاوية وأتباعه .

ولقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : **كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي .** [٢ و ٣]

١ـ كان عمر عمّار عند استشهاده أربعاً وتسعين سنة ، لذا فإنّ عمره عند رحيل رسول الله ستٌّ وستّين سنة ، وعند بناء المسجد أوائل الهجرة ما يقارب الستّين سنة .

٢ـ يروي السيوطيّ هذا الحديث في «الجامع الصغير» ج ٢ ، ص ٩٣ ، عن الطبرانيّ في «الجامع الكبير» والحاكم في «المستدرك» ، وعن البيهقيّ في «السنن» عن عمر ؛ كما يرويه أيضاً عن الطبرانيّ في «الجامع الكبير» عن ابن عبّاس وعن المسوّر . ويقول : هذا حديث صحيح .

٣ـ يقول في تفسير «مجمع البيان» ذيل آية : **فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ** : وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : **كُلُّ حَسَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا حَسَبِي وَنَسَبِي** . (المجلّد الرابع ، ص ١١٩) .

فهرس التأليفات

بسم الله الرّحمن الرّحيم

تقوم مؤسّسة ترجمة و نشر

(دورة العُلوم و المعارف الإسلاميّة)

من تأليفات

العلامة آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

بنشر وترجمة كتب سماحته وهي كالآتي :

دورة المعارف :

معرفة الله (١) (الله شناسى)	ثلاثة أجزاء
معرفة الإمام (٢) (امام شناسى)	ثمانية عشر جزء
معرفة المعاد (٣) (معاد شناسى)	عشرة أجزاء

دورة العلوم :

الأخلاق و الحكمة و العرفان (٤)

١ ـ رسالة السير والسلوك المنسوبة إلى بحر العلوم

(رسالۀ سير و سلوک منسوب به بحر العلوم)

٢ ـ رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب
(رسالهٔ لُبّ اللباب در سير و سلوك اُولى الألباب)
٣ ـ التوحيد العلميّ والعينيّ (توحيد علمى و عينى)
٤ ـ الشمس الساطعة (مهر تابان)
٥ ـ الروح المجرّد (روح مجرد)

الأبحاث التفسيريّة (٥)

١ ـ رسالةٌ بَديعةٌ في تفسير آية «ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ»
٢ ـ رسالة جديدة في بناء الإسلام على الشهور القمريّة (رسالهٔ نوين)

الأبحاث العلميّة والفقهيّة (٦)

١ ـ رسالة حول مسألة رؤية الهلال
٢ ـ وظيفة الفرد المسلم في إحياء حكومة الإسلام
(وظيفهٔ فرد مسلمان در احياى حكومت اسلام)
٣ ـ ولاية الفقيه في حكومة الإسلام أربعة أجزاء
(ولايت فقيه در حكومت اسلام)
٤ ـ نور ملكوت القرآن (نور ملكوت قرآن) أربعة أجزاء
٥ ـ نظرةٌ على مقالة بسط وقبض نظريّة الشريعة للدكتور عبد الكريم سروش
(نگرشى بر مقالهٔ بسط و قبض تئوريک شريعت دكتر عبدالكريم سروش)
٦ ـ الرسالة النكاحيّة : تحديد النسل ضربة قاصمة لكيان المسلمين (وقد طبع الكتاب في طبعته الأُولى بهذا العنوان : «الحدّ من عدد السكّان ضربة قاصمة لكيان المسلمين»)
(رسالهٔ نكاحيّة : كاهش جمعيّت ، ضربه‌اى سهمگين بر پيكر مسلمين)
٧ ـ رسالة مسوّدة القانون الأساسيّ (نامهٔ پيش نويس قانون أساسى)

الأبحاث التأريخيّة (٧)

١ ـ لَمَعات الحُسين عليه السلام

٢ ـ الهديّة الغديريّة : رسالتان قاتمة و مشرقة

(هديّهٔ غديريّه : دو نامهٔ سياه و سپيد)

هذه هي مجموعة من الكتب التي أُلّفت من قِبل المؤلّف قدّس سرّه ، والتي بادرت « مؤسّسة ترجمة ونشر دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة » إلى ترجمتها وتقديمها تدريجاً إلى القرّاء المحترمين .

وللحصول على نظرة إجماليّة لهذه المؤلّفات ، يمكنكم الرجوع إلى نهاية الجزء الأوّل من هذا الكتاب .






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

